٨٠

المكتبة التاريخية

مذكرات جوانفيل

القديس لويس

حياته وحملاته على مصر والشام

ترجمة وتعليق

الدكتور حسن حبشي

الطبعة الأولى

١٩٦٨



دار المعارف بمصر

مذكرات جوانفيل

القديس لويس

حياته وحملاته على مصر والشام

ترجمة وتعليق

الدكتور حسن حبشي

الطبعة الأولى

١٩٦٨

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . ع . م

فهرست الترجمة العربية

لكتاب القديس لويس

صفحة

الكتاب الأول

الكتاب الثانى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اتسم القرن الثالث عشر بأنه قرن الفشل في السياسة الفرنسية الخارجية لاسيما في منطقة الشرق الإسلامي ، ففي مستهله قام باروناتها بحملة صليبية دون أن يكون لديهم الاستعداد الكافي من ناحية المال أو الوسيلة ؛ أضف إلى هذا أنها كشفت القناع عن الأطماع الأوربية الغربية في احتلال الشرق مسيحيه وإسلاميه على السواء ، فتبدلت خطة سير التجريدة الصليبية التي دعى لها البابا إنوسنت الثالث وزحفت مستعمينة — رغم إرادة البابا ولكن وفق مخطط سري وضعه قادتها باتفاق خارجي مع ألمانيا — بأسطول البنادقة على مناطق نصرانية خالصة كبلاد المجر رغم كراهية البابا إنوسنت الثالث لمثل هذا العمل واعتباره إياه خطيئة تستوجب قرار الحرمان ، وإن لم يعبأ الفرنسيون بهذا القرار البابوي . ثم إن الحملة تابعت مسيرها فهاجمت الإمبراطورية البيزنطية — وهي الأخرى مسيحية — ولم تحترم الكنائس ولا المقدسات الدينية النصرانية كما يشهد بذلك مؤرخوها أنفسهم الذين ساهموا فيها ، وإن ذهب البعض إلى القول بأن البندقية سيطرت على المحاربين الفرنسيين — الذين كانوا يسمون حجاجاً — فجعلتهم يحققون مآربها الخاصة في الثأر لها من القسطنطينية واليونان معا ..

وفي منتصف ذلك القرن نفسه قامت فرنسا بحملة صليبية أخرى على مصر

والشام بقيادة الملك لويس التاسع — موضوع هذه المذكرات — فكان الفشل الذريع من نصيبها هذه المرة أيضاً ، مما حمل لويس على الاتجاه إلى تونس فلم يلق فيها خيراً مما لقيه فى مصر ، حتى لقد خاطبه أحدهم ساخراً :

يافرنسيس هذه أخت مصر   فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً   وطواشيك منكر ونكير

وقيام هاتين الحملتين فى مدى نصف قرن من الزمان يصور ما كان يضمره الغرب من نزعة استعمار الشرق : نصرانياً كان أم إسلامياً .

• • •

بين هاتين الحربين الصليبيتين (١٢٠٢ ، ١٢٤١) ولد مؤلف هذه المذكرات چان سيردى چوانفيل Jean Sire de Joinville فى سنة لم يتفق المؤرخون عليها وذهبوا فى تحديدها مذاهب شتى ، فيرون أنه ولد فى فترة جعلوها بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٢٨ دون أن يكونوا متأكدين من سنة بذاتها . على أن الأكثرية منهم ترجح ظناً لا تأكيداً سنةً وسطاً هى ١٢٢٤م هذا على الرغم من أنه كان من أسرة قوية غنية ساهمت فى أحداث فرنسا الداخلية مساهمة غير ضئيلة ، إذ المعروف أن أحد أجداده واسمه «اتيان دى فو» Etienne de Vou كان قد تزوج من سيدة إقطاعية ثرية هى كونتة مقاطعة جوانى Joigny التى تنسب إليها الأسرة وكذلك المؤلف صاحب هذه المذكرات

وكان أفراد هذه الأسرة ممن تغلب عليهم روح العصور الوسطى القحة من حيث المساهمة فى الحروب : أفصالا أو مستقلين ، سواء أكانت هذه المساهمة فى حرب خارجية للفتح والغزو ، أو داخلية بقصد الثأر والتغلب ومدّ حدود الإمارة الإقطاعية أو المدينة أو وفاء جهد لمتبوع وإن تعدّد المتبوعون وتوحّد التابع رغم يمين الولاء ، ونرى أنه قد توفّر لدى الفارس الإقطاعى وقت

لم يجد ما يشغله فيه سوى أن يؤجر سيفه لمن يبذل له عن سخاء فى رفده هو وأتباعه الفرسان الصغار ، بل لقد وجد أمثال هذا الفارس أن حروب الثأر لم تعد كافية لشغل وقتهم الطويل الممل ، فاتخذوا من القتال وسيلة للهو وتزجية الفراغ .

وهناك اثنان من عائلة مؤرخنا يمثلان هذه الناحية أجلى تمثيل ، أحدهما عمه جوفرى دى جوانفيل الذى ساهم مع كونت فلاندرز فى الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ، وقد عدّه فلهاردوان[1] ـ مؤرخ هذه الحملة الرسمى ـ من كبار الرجال الذين شاركوا فيها وحملوا الصليب ، وأشار إليه فى أكثر من موضع من كتابه .

أما الشخص الآخر من هذه الأسرة فهو « سيمون دى جوانفيل » والد جوانفيل صاحب هذه المذكرات ، إذ يخبرنا الإبن عن مساهمة أبيه فى محاربة البارونات والكونتات الذين أرادوا قتال مدينة « تروى » استغلالا لصغر سن الملك لويس التاسع ورغبة منهم فى مدّ نفوذهم .

ونقرأ فى ثنايا هذه المذكرات أسماء أقاربه ، وكلهم فى الذروة من المكانة فى فرنسا يومئذ ؛ وهكذا نرى أن صاحبنا جوانفيل ـ قد درج فى أسرة لم يكن يقر لأفرادها قرار فى المدينة حتى يهبوا إلى حمل السلاح فى حرب أو مبارزة . وانحدرت هذه الرغبة فى المساهمة فى الحرب فى عروق جان دى جوانفيل فلم يكد يبلغ مبلغ الشباب ويصبح فى الرابعة والعشرين من عمره ـ على حد قول المؤرخ رافالبير

---

(١) يقوم كاتب هذه الأسطر بترجمة مذكرات فلها ردوان إلى العربية وذلك ضمن مجموعة « المكتبة الصليبية » لمشاهدى هذه الحروب والتى طبع منها أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس لمؤرخ مجهول ، وكتاب فتح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ثم مذكرات جوانفيل هذه عن لويس التاسع .

ـ أو الثامنة والعشرين ـ على قول المؤرخ الصليبي دى كانج .du Cange Ravaliere ـ حتى وجد نفسه مدفوعاً عن صدق وإخلاص وحماسة للإسهام في تلك الحملة الصليبية الكبرى التي نهض بها لويس التاسع للقضاء على مصر ، إيماناً منه بأن التغلب على مصر وقهرها سيفتح أمامه ـ كممثل للمسيحية الغربية ـ رقعة الشرق العربي الإسلامي ، ويمكنه من سلب فلسطين وامتلاكها . لكن ما لبث أن حاقت به الهزيمة النكراء التي لا زال بيت ابن لقمان بالمنصورة دليلا حياً عليها .

ولعل هذه الرغبة العارمة في نفس جوانفيل كانت أقوى من روح الأبوة عنده ، حيث يقرر أنه حين مغادرته مقاطعته جوانفيل للانضمام إلى الحملة أبى أن يتجه ببصره إليها وهي المقاطعة التي خلّف فيها زوجته وولده مخافة أن يحن إلى البقاء ، فيقعده ذلك عن المساهمة في حرب كانت دوافعها في نفسه دوافع صادقة ، فكبح قلبه من الالتفات إلى الوراء فكأنه بذلك جاوز المدى الذي بلغه الشاعر العربي في قوله منذ أن خفيت عنه الديار وقاطنوها :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفّت القلب

• • •

كان جوانفيل ابن سيمون من زوجته الثانية بياترس البرجندية ، وقد نشأ في خفض من العيش ولكنه درب على السلاح وفاضت نفسه بحب الدين ورجاله ، وإنزال المقدسات والأحرام والآثار الدينية منزلة سامية تهون لديها نفسه إن كانت النفس لها فدية .

وكما اختلف المؤرخون في سنة مولده كذلك اختلفوا في تاريخ زواجه ، فرجح البعض أنه كان عام ١٢٤٠ م ، أي بعد عام من توليه إدارة شئون المقاطعة خلفاً لأبيه سيمون .

ولم يكن جوانفيل فصلا إقطاعياً للويس التاسع حتى سنة خروجه من فرنسا على رأس حملته الصليبية إلى مصر ؛ ذلك أنه يحدثنا أن الملك استدعاه إليه ولكن لم يحمله على قطع يمين الولاء له ، لأنه لم يكن قد صار بعد تابعاً إقطاعياً للويس بل كان مستقلا ؛ ثم إنه يحدثنا مرة أخرى أنه « لم يكن قد وضع إذ ذاك الخوذة على رأسه » كناية على أنه لم يكن يومئذ فارساً إقطاعياً ، بيد أنه دخل فى خدمة الملك لويس فصلا حين وصل إلى قبرص فى السنة التالية لنهوض الحملة من فرنسا ، فضمه الملك إلى رجاله ، واستخدمه هو ومن معه لمدة عام بمبلغ نقده إياه مقدماً .

كان دخول جوانفيل فى خدمة لويس بداية اتصال دائم به، فقد لازمه مدة ست سنوات فى حملته على مصر والشام ، ولم يفارقه مفارقة تامة إلا حين نهض لويس بحملته على تونس ، رغم أن لويس وثيبوت كونت نفارة توسلا إليـه أن يحمل الصليب ويسهم فى الحملة ، ولم يكن انصراف جوانفيل عن المساهمة فى هذه الحملة عن قلى أو نقص فى إحساسه الدينى، بل كان يدفعه إلى ذلك عاملان أحدهما يقينه من عـدم جدوى هذه الحملة ، وإن لم يذكر لنا الأسباب — إلا ما قد يكون من شـدة ضعف الملك جثمانياً — ، وثانيهما ما أصاب مقاطعته وأهلها من تعنت عمـال الملك بهم أثناء تغيب سيدهم فى مصر والشام .

ولم يكن جوانفيل بالشخص الذى يغريه المـال بل كان أقرب ما يكون إلى الزهد فيه ، وأبرز الأمثلة على ذلك رهنه جميع أملاكه قبل سفره لسداد ما قد يكون عليه من ديون، واكتفاؤه بمبلغ بسيط يقوم بنفقاته هو وفرسانه .

• • •

ليس من شك فى أن جوانفيل كان شديد التدين ومسيحياً مخلصاً

لعقيدته وفكرته الدينية كما رسمتها ظروف الزمان الذى عاش إبانه ، ومن ثم كانت عنايته بتصوير الجانب الإنسانى فى كل ما يراه ، فالرحمة بالفقراء تتجلى فى أكثر من موضع من مذكراته، سواء أكانت هذه الرحمة صادرة منه هو نفسه أم من لويس أم من غيرهما، صديقاً كان أم خصماً ؛ هذا إلى جانب أنه انفرد من بين بارونات الملك ومشيريه وكبار رجال الدين بالإصرار على البقاء فى بلاد الشام بعد هزيمتهم فى مصر فى وقت كان البقاء فيه بها خطراً كبيراً .

ولم تكن فكرة الاستيلاء على بلاد الشام هى وحدها الباعث له على الإصرار على البقاء ، بل كانت تواكبها رغبة صادقة فى ألا يترك وراءه أولئك الذين جاءوا معه من صغار المحاربين ؛ كما أن فكرة القضاء على القوة الإسلامية واستخلاص بيت المقدس والاستيلاء على فلسطين وتحطيم قوة الجماعات العربية الموجودة فى تلك المناطق كانت هى الدوافع المحركة له ، وهى دوافع – كما سنرى فى ثنايا هذه المذكرات – نابعة عنده عن روح دينية خالصة، بل إن هذه الروح ذاتها هى التى حماته على أن يخلف وراءه أبناءه وزوجته وأملاكه، ويحاول بذل كل ما فى طاقته لاسترضاء أهل منطقته مخافة أن يكون قد آذى أحدهم من قبل فى نفسه أو ماله أو ممتلكاته .

وهو يعلل كثيراً من الأحداث تعليلا دينياً، فالنصر فى الحرب أو النجاة فى البحر أو الخلاص من الأسر : كلها نتيجة إرضاء الرب ورضائه، كما أن الغرق والحريق والهزيمة والأسر ضربات إلهية جزاء وفاقاً لمعصية فى العمل أو خطيئة فى النية أو القول .

ولعل هذا الإيمان القوى فى نفس جوانفيل هو الذى جعله غير فزع من فكرة ملاقاته القتل على أيدى أعدائه، بل يتقبلها مرحباً ، ذاكراً فى موضع

معين — وقد حان وقت الاعتراف — أنه لم يرتكب من المعاصى والخطايا والذنوب ما يشعره بوقر فى ضميره ، بل إنه ليصور — عن غير قصد — ما كان فى جيش لويس التاسع من موبقات يرتكبها كبار رجالاته ، ولم يكن أحدهم ليخشى قالة السوء فى حقه ، أو يرى فى ارتكاب هذه الموبقات ما يقلل من هيبته وكرامته ومنزلته ويدنى درجته مما انزعج له خاطر الملك لويس نفسه ، كما أن جوانفيل كان شديد اللوم لأخوة الملك الذين لم يراعوا ظروفهم القاسية فكان فيهم من يقضى وقته فى لعب الميسر .

وينص جوانفيل ذاته صراحة على أنه خاف من أن تثار الشكوك حوله ، فجعل فراشه فى مكان بيّن تراه العين ، ولعل هذه الطهارة النفسية هى التى جعلته يعدّ لويس مثلا صالحاً يضربه للتاريخ فيدوّن سيرته — وإن كانت بإيحاء غيره — « ليطالعها من يطالعها فيقتدى بها » كما جاء فى إهدائه هذا الكتاب إلى لويس العاشر .

* * *

نص جوانفيل على أن مصادره فيما ذكر من الأحداث فى كتابه ثلاثة ، منها ما رآه بعينيه ، ومنها ما تلقفه بالسماع من فرد أو أفراد كانوا شهودا لما رأوا ورووا ، أما المصدر الثالث فهو استعانته بكتاب يتضمن سيرة الملك لويس التاسع ، دون أن ينص على اسم هذا الكتاب مما سنعرض له فى ثنايا هذه الكلمة .

على أن هناك مصدراً أشار اليه إشارة عابرة دون أن يسميه أيضاً ، وذلك فى معرض كلامه عن ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

ونريد أن نعرض أولا لقيمة أخباره ومقدار مطابقتها للتاريخ فنرى أنه ليس ثم شك فى أنه كان حريصاً أشد الحرص على إيراد الأحداث إيراداً صحيحاً بقدر استطاعته ، وأنه كان يتمتع بذاكرة لا شك أنها كانت صافية رغم تقدم

سنه حين شرع فى تدوين تلك الأخبار على الصورة التى يطالعها القارىء فى بردتها العربية الآن لأول مرة .

ولا يعرف على وجه التحقيق متى بدأ جوانفيل كتابة مذكراته ، وكم من الزمن استغرقته هذه المذكرات ، بل أنه لم يذكر متى طلبت منه الملكة البدء فى تدوين هذه المذكرات ، وهل شرع فى تدوينها مباشرة عقب هذا الطلب أم انقضت فترة من الزمن؟ ، وكم كان طول هذه الفترة ؟ وقد عرض لهذا الموضوع المؤرخ ويللى فرجح أن يكون جوانفيل قد شرع فى تأليفه فى المدة الواقعة بين مارس ١٣٠٥ ومارس ١٣٠٦م ، وليس ثم مايدعونا إلى استعراض الأدلة التى ساقها ويللى للوصول إلى هذه النتيجة .

وقد ذكر جوانفيل فى آخر فقرة من مذكراته أنه أنهى كتابته إياها فى أكتوبر ١٣٠٩ ، أى بعد قرابة خمسة وخمسين عاماً من أول مصاحبة له للويس التاسع فى حربه على مصر والشام . أضف إلى هذا أنه هو ذاته كان فى العقد التاسع من عمره ، وهى سن من المحتمل جداً أن يركن صاحبها إلى الخمول الجسمى والفكرى ، وتخون الذاكرة فيها صاحبها .

فإذا أخذنا برأى المؤرخ ويللى بأن بدء تاريخ كتابة هذه المذكرات كان فى الفترة الواقعة بين ١٣٠٥ و١٣٠٦ م تبين لنا أن تأليفه إياها وجمعه شتاتها قد استغرق منه قرابة أربع سنوات ؛ على أن جوانفيل نفسه يشير إلى جون الثانى كونت بريتانى « بالكونت الحالى » ، والمعروف أن هذا الكونت مات سنة ١٣٠٥ ، ومن هذا يستدل على أن الكتاب - أو أجزاء من الكتاب - دونت قبل تلك السنة .

ومهما يكن الأمر من حيث البعد الزمنى بين كتابة جوانفيل مذكراته

وبين وقوع أحداثها فإننا نلمح فيها حرصاً قوياً على إيراد الأحداث إيراداً يعتمد على ذاكرته أولا .

لكن حرص جوانفيل المشكور فى إيراد الحقائق لم يحل دون وجود ثغرات وزلات تضمنتها أخباره ، ولم يعن مترجموها بالتنبيه عليها فى مواضعها ، غير ما فعله ويللى الذى تعد ترجمته لمذكرات جوانفيل عن حياة لويس أصدق ترجمة حافظ فيها على الأصل الذى طابقته الصورة الفرنسية الحديثة .

ويلاحظ أن جوانفيل مهد فى البداية بتاريخ لويس ومولده ، وكان المتوقع منه — والكتاب ترجمة لحياة لويس وأعماله — أن يتتبع أخباره وأن يستشيره أو يستشير بطانته وحاشيته فيما استغلق عليه فهمه ، أو فاته من أخباره فى ظروف لم تساعده على أن يكون فى رفقته وشاهد عيان لها ، وهذا أمر لم يغب عن ذهن جوانفيل أحياناً ولكن ليس دائماً ، وربما كان السبب فى هذا — وهو قليل — راجعاً إلى أن المؤلف لم يكن قد فكر فى وضع تاريخ للويس وإنما كان وضعه إياه متأخراً استجابة لإشارة الملكة الوالدة ، وقد جاءت هذه الإشارة متأخرة فعمد إلى جمع ما وعته ذاكرته الصافية التى أعانته إلى حد كبير ، يتجلى فى مطابقة بياناته — إلى حد ما — بالتاريخ الواقعى المدون .

وتستغرق أخبار لويس التاسع الجانب الأكبر من هذه المذكرات التى كان من الممكن أن يتجنب فيها المؤلف مزالق الخطأ والتحريف غير المقصود اعتماداً على عاملى السماع والمشاهدة ، بيد أنه كان ينطلق فى بعض الأحيان إلى إيراد أحداث تاريخية سابقة لزمنه دون أن يتوفر بين يديه من المصادر والمراجع ما يدعمها أو يمكنه من إيراد سنوات حدوثها فى غير زلل فى الحوليات ، ولو كان جوانفيل وضع أمامه ثبتاً بالسنوات وأحداثها لجنب نفسه الأخطاء

التى وقع فيها . ولعل الخطأ التاريخى الذى وقع فيه جوانفيل والذى خانه فيه تقدم سنه هو إشارته إلى هجوم المغول على بغداد ، إذ يستشف القارىء أن هذا الحدث الضخم جرى إبان وجود لويس التاسع فى الشام ، غير أن سنة الحادث تكذب هذا ، إذ زالت الخلافة على يد المغول عام ١٢٥٨م أى بعد أربع سنوات من عودته إلى فرنسا التى بلغها فى سبتمبر عام ١٢٥٤ .

لكن هناك ظاهرة نستشفها من مطالعة هذه المذكرات هى رغبة المؤلف فى استجلاب العطف على لويس القديس ، من حيث إشارته إلى قيام البعض بتدبير المؤامرات ضده وخروجه منها سالماً بفضل فهمه أحياناً وبفضل « رعاية الرب » دائماً .

وجوانفيل فى هذه المذكرات تغلب عليه سمة معظم كتاب عمره فى الغرب والشرق على السواء من حيث بروز الجانب الدينى،ولن يعاب عليه ذلك بحال من الأحوال إلا بمقدار ما تضيع معه الحقيقة التاريخية على طالبيها ، ومن الأمثلة التى حاول بها جوانفيل أن يدعم العطف النفسى بالحدث التاريخى ماأورده من قصة مؤامرة البارونات واتحادهم جميعاً فيما بينهم لتقوية أنفسهم باقتطاع بعض المناطق من بلانش الملكة الوصية ، مستغلين ظروف الوقت إذ ذاك من نعومة سن الملك الطفل وعدم وجود مؤيدين للملكة « الأجنبية » بين الفرنسيين؛ ثم الحلقة الأخرى فى تلك السلسلة من المؤامرة حين اتحد الأمراء والبارونات ضد الكونت ثيبوت الرابع لوقوفه فى صف الملك ، متخذين من حادثة تراجع الكونت عن الزواج بابنة بيير موكليرك — أحد كبار النبلاء — ذريعة لمحاربته ، ثم الاتفاق بين ملكة قبرص وثيبوت الرابع . وقد ذكر جوانفيل هذه الأحداث التى وقعت فعلا ولكن فى غير تواريخها .



وقــد فات جوانفيل الإشارة إلى زواج لويس من الملـكة مرجريت دى بروفانس، على حين نلتقى بالملـكة الشابة فى أكثر من موضع من المذكرات، دون أن يمهد المؤلف ــ ولو فى إشارة عابرة ــ إلى زواجها الذى تم سنة ١٢٣٤ .

ولعل من أجلى الصوز التى أبرزها جوانفيل فى مذكراته هذه ما رواه عن طائفة الإسماعيلية أو الحشاشين ببلاد الشام ، ولقد أماط جوانفيل اللثام عن ناحيتين هامتين : أولاهما هى رغبة هذه الطائفة فى هذا الوقت بالذات فى عقد تحالف مع لويس التاسع ، وثانيهما علاقتها بجماعة الفرسان الداوية والاسبتارية . وليس من شك فى أن الحشاشين كانوا يؤلفون مصدر خطر على القوات السنية فى مصر والشام والعراق .

* * *

وقد ترك لنا جوانفيل صورة حية عن هذه الطائفة ، على أن الطريف الجديد فيها هو إشارته إلى دفعها شبه جزية سنوية إلى فرسان المعبد والاسبتارية ، غير أن تسميته إياها « بالبدو » وكلامه الساذج عن الرسول العربى عليه السلام والإمام على كرم الله وجهه تبين ضحالة معلوماته ، وهذا جانب ملحوظ فى كتاب الغرب فى العصور الوسطى عامة .

هذه هى هنات جوانفيل فى مذكراته هذه ، غير أنها لا تطعن فى قيمته كمؤرخ لحياة الملك لويس ، ولا لحملته الصليبية على مصر والشام التى استغرقت جانبا كبيرا من عنايته تجلى فى إيراده الأحداث بصورة تفصيلية نستطيع بضمها ــ إلى الشذرات المبعثرة فى ثنايا الحوليات العربية الإسلامية عن حملة المنصورة وبقية الكتابات الغربية ــ كتابة تاريخ الحملة الصليبية على مصر عام ١٢٤٩ م وما آلت إليه من فشل ذريع ، وأى فشل أبلغ فى مداه من أن

يفدو الملك — الذى كان يتطلع إلى تملك البلاد — أسيراً فى بيت لا يزال موجوداً حتى اليوم ويعرف باسم صاحبه ابن لقمان ، ولقد خلّد الشعر العربى السخرية به فى قول أحد الشعراء :

أتيت مصرا تبتغى ملكها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق بـه عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهمو إلا قتيل أو أسير جريح
فقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق ، والطواشى صبيح .

ثم شاءت الأقدار أن يلقى أحد إخوته مصرعه فى المنصورة ، وأن يلتمس الملك فكاك أسره هو ورجاله بأموال ضخمة ترك للمصريين تقديرها ، وأن يقسم على الوفاء بهذه الاتفاقات قسماً يضعه جماعة من رجاله العلمانيين والمدنيين الذين وقعوا فى الأسر كما يذكر جوانفيل .

والواقع أن ما صاحب الحملة من أحداث تاريخية واتصالات خاصة ومفاوضات بين الجانبين المصرى والفرنسى على الصورة التى ذكرها جوانفيل هى أخبار جديدة كل الجدة ، ويحتاج إلى بحث من جانب المؤرخين ، مع الاستعانة بأضواء أحداث التاريخ المصرى إذ ذاك .

ومذكرات جوانفيل حافلة بشتى الأخبار التى تتعلق بهذه الفترة من القرن الثالث عشر الميلادى ، ولست هنا بصدد سردها واحدة واحدة ، وإنما أترك ذلك لقارىء هذا الكتاب .

على أن القارىء سوف يتبين فى جلاء ما بعده من جلاء أن جوانفيل كان ملماً إلماماً طيباً فوق مستوى الرجل العادى بالأحداث الجارية فى تلك الحقبة من تاريخ العالم ، وهو مع هذا الإلمام الكبير تغلب عليه روح المدقق ، فيأبى أن يذكر شيئاً عن حملة لويس الصليبية على تونس عام ١٢٦٧ لأنه لم يساهم فيها بنفسه .

* * *

لكن هل نستطيع من هذه المذكرات أن نطالع شخصية لويس التاسع ؟

ليس من شك فى أنه كان يدرك مقدار التنازع بين أمراء مصر والشام فى هذه الفترة ، وهو نزاع أدى إليه انتقال الحكم من البيت الأيوبى فى مصر إلى أيدى جماعة المماليك البحرية ، ولعله وجد فى تولى شجرة الدر أمور السلطنة بارقة أمل فى أن يتمكن من تحقيق هدفه فيمحو بذلك فشل هزيمته فى المنصورة وعار أسره بها ، وفاته أنها لم « تدع أحداً يطمع فى الملك لعظمتها فى النفوس . . . واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها . . . وبايعوها بالسلطنة فى أيام أرسالا » على حد قول أحد المؤرخين[1] . ثم انبسط الأمل أمام لويس حين قام أمراء القيمرية فى دمشق فأنكروا على شجرة الدر ولايتها على مصر ، ورفضوا الاعتراف بشرعية حكومتها وامتنعوا من الحلف لها[2] .

ولم يقف القيمرية عند هذا الحد بل كاتبوا صاحب حلب الملك الناصر الدين يوسف بن العزيز محمد يدعونه للمسير إليهم ليملك دمشق كى يجابهوا

---

(١) راجع النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) راجع السلوك المقريزى (طبعة زيادة) ج ١ ص ٣٦٧ .

به - وهو فرع الدوحة الأيوبية — حكومة شجر الدر وأتباعها المماليك .

وزاد من أطماع لويس فى تفرق شمل كلمة الإسلام موقف الخليفة العباسى المستعصم بالله الذى كره أن تتولى امرأة السلطنة ، فأنفذ كتاباً إلى أمراء مصر يؤنبهم على سماحهم لشجرة الدر بأخذ مقاليد الأمور فى يدها فى عبارة قاسية مخبرا إياهم « إن كانت الرجال قد عدمت عندهم فليعلموه حتى يسير إليهم رجلاً » .

كل هذه الأحداث المتتالية حملت لويس بلا شك على محاولة استغلال هذا النضال لصالحه الصليبى الخاص عساه يمكنه من استخلاص بيت المقدس، أو عساه على الأقل يؤمّن وجود الإمارات اللاتينية فى الشام .

على ضوء هذه الأحداث يمكن تفسير ذهابه إلى بلاد الشام عقب فكاك أسره من مصر وطول إقامته بها طولا لا نلاحظ فيه قيامه بأى عمل حربى ، ولعله — وقد أدرك فشله المطلق فى مصر، واللطمة التى أصابته بها حين وقع فى الأسر — أراد أن يعوض هذا بمحاولته إظهار سلطانه على أمراء الشام ، ومظهر هذا السلطان عمله على إزالة العلاقات التى بين بعضهم والبعض الآخر .

لم يكن أمراء الصليبيين فى الشام فى حال من المودة والاتفاق فما بينهم ، والفضل فى ذلك راجع إلى أطماعهم الشخصية التى لم تقف عند حد سلب الأراضى من جيرانهم المسلمين ، بل ربما تكون أقرب إلى الواقع إذا قلنا إن هؤلاء الصليبيين قد أسقطوا هذه الفكرة من حسابهم منذ أمد بعيد، بعد أن أيقنوا — كما أيقن أسلافهم من قبل — عدم جدوى هذه المحاولة الفاشلة، لا سيما بعد تكتل القوات الإسلامية على يد زعمائها أمثال نور الدين محمود

وصلاح الدين الأيوبى ، فقنع الأمراء الصليبيون بما فى أيديهم ، وعدوا المحافظة عليها غاية آمالهم فى محيط لم يكن من حولهم فيه ينظرون إليهم نظرة صداقة أو رضا أو عطف .

انصرف الأمراء الصليبيون إلى التنازع فما بينهم وليس أدل على ذلك مما شاهده لويس التاسع بنفسه من موقف الأميرة لوسيا صاحبة أنطاكية فى تصرفها حسب أهوائها وبعثرتها أموال الصليبيين فى غير نفع للصليبيين ، ثم إيثارها الإقامة فى طرابلس استجابة لنزعاتها الخاصة ، وقد حملت كل هذه الفعال ابنها بوهيمند السادس على التأفف منها ، فراح يبث شكواه إلى لويس وهو فى يافا ، وأفهمه صراحة أن أنطاكية موشكة على الضياع ، ونجح لويس فى التوفيق بين الشاب وأمه لوسيا توفيقاً أجدى على الصالح الصليبى فى أنطاكية كما يستدل من كلام جوانفيل .

لم يكن لويس — أثناء إقامته السلمية فى بلاد الشام — ليترك فرصة تمر دون أن يغتنمها لتقوية الروح الصليبية والتوفيق بين الجماعات المسيحية، حتى لا تجد القوات المعادية لها ثغرة تنفذ منها إليها ، ويبرز هذا الاتجاه عند لويس فى محاولته إزالة العداء بين اليونان وبين اللاتين فى آسيا الصغرى ، فيحدثنا جوانفيل فى مذكراته هذه بخبر وفادة صاحب طرابيزون إليه ملتمسا منه إرسال أميرة من عنده ليتزوج بها ، كما يحدثنا أيضاً أن لويس أشار على الوافدين عليه أن يطلبوا من مولاهم التفتيش عن طلبته لدى بلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى .

وقد يبدو لنا فى تاريخ بيزنطة فى ذلك الحين أن إشارة لويس هذه تنطوى على السذاجة وجهل بالأوضاع لما كان بين البيزنطيين واللاتين من

عداء عنيف استحكمت حلقاته منذ أن غير الصليبيون وجهة حملتهم الصليبية الرابعة من مصر والشام إلى القسطنطينية، ومنذ أن أزالوا إمبراطورها الشرعى وأقاموا لهم إمبراطورية لاتينية فى العاصمة، ولم تعرف هذه الإمبراطورية الجديدة طعم الاستقرار، فما استطاع بطش أباطرتها وحكامها أن يفل من غرب حدة اليونان فى التمسك باستقلالهم واستعادته والإطاحة بمغتصبي حقوقهم، وإذا كان البيزنطيون قد لقوا الهزيمة أمام الصليبيين فى القسطنطينية، وإذا كانت إمبراطوريتهم قد زالت فسرعان ما أقاموا لهم حكومة قومية فى الداخل خارج القسطنطينية، فكانت شوكة تقض مضجع المحتل الغريب. لكل هذا أراد لويس التاسع — وكان واهما فيما أراد — أن يزيل مظاهر العداء بين الوطنى والمغتصب، فأشار على سفراء الإمبراطور البيزنطى أن يطلبوا إلى مولاهم أن يلتمس الزواج من بيت إمبراطور القسطنطينية اللاتيني علّه بذلك يزيل الإحن الموروثة؛ كما أنه أراد من ناحية أخرى أن يفشل ريح اليونان ويبث الفرقة بين صفوفهم، ورأى — كما يقول جوانفيل — أن إتمام هذا الزواج سوف يؤدى إلى وقوف طرابيزون والقسطنطينية ضد إمبراطورية نيقية اليونانية التى لم يلق إمبراطورها بالا إلى الصليبية فى العاصمة، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن سقوط الإمبراطورية اللاتينية سيكون على يد نيقية بالدرجة الأولى.

* * *

إذا كان لويس قد اتجه إلى تقوية الإمارات اللاتينية وإزالة البغضاء بين أمرائها بعضهم وبعض، وإذا كان قد حاول تكتيل القوى النصرانية الشرقية والغربية للعمل يدا واحدة فى ميدان أكبر من ميدان التنازع المحلى فإنه قد

رسم سياسة أخرى تتفق مع هذه فى هدفها العام وإن اتجهت نحو قوى غير نصرانية ، ونعنى بذلك جماعتى التتار والحشاشين .

كان التتار قد ظهروا على مسرح أحداث الشرق كقوة حيوية فتية طامعة، وإن اتسمت بالتخريب أكثر من اتسامها بالفتح والاستقرار ، وطبيعى أن تحتك هذه القوة الجديدة بالخلافة العباسية والدول الاسلامية فى تلك البقعة من عالم ذلك الوقت ، ولم يكن احتكاكها احتكاكا سلمياً بل كان ينزع إلى الفتك والإغارة والسلب والتدمير، وأدرك الغرب الأوربى مدى نفعه من ظهور التتار فى القضاء على دول المنطقة الإسلامية ، فلما جاء لويس لم تفته هذه الناحية ورغب فى استغلالها لقضاء مآربه ، كما رغب المغول من جانبهم — أيضاً — فى الاستعانة بلويس كذلك .

على أن العلاقة بين التتار والغرب لم تكن وليدة يومها ، إذ ظهرت فى مستهل القرن الثالث عشر قوة المغول هائلة مخيفة تكتسح كل ما فى طريقها، واندفعوا كالأتى المزبد حتى سلبوا بولندة والمجر ، ودقت جيوشهم أبواب ألمانيا ، وأدرك الغرب المسيحى خطر هذا الجنس ، فكان من جراء ذلك ما دبره البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) من محاولة تكتيل الغرب المسيحى فى حملة صليبية ضدهم عام ١٢٤١، إلا أن صراعه مع فردريك إمبراطور ألمانيا حال دون مثل هذا التكتل ، ولقد تبين لجريجورى ألا جدوى عملية تنتظر من الانجليز الذين اكتفوا بالعطف على حركته دون أن يتجاوزوا هذا الحد .

لذلك أخذت هذه الحركة الغربية اتجاها جديداً هو محاولة التقريب بين التتار والغرب المسيحى وساعد على هذا الاتجاه عاملان :

أولهما ما كان من عدم معارضة المغول لحركة التبشير بين رعاياهم .

وثانيهما التفكير فى تكوين تآلف حربى من المغول والمسيحيين لمحاربة المسلمين بعامة ومصر بخاصة .

وكان من أكبر المحبذين للفكرة الثانية البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) معاصر لويس التاسع ، فقد أرسل البابا سفارة من لدنه قبل سنوات قلائل من حملة لويس على مصر إلى كيوك خان إيلخان المغول ، ثم عقب البابا بسفارة أخرى على رأسها أنسلم Ansellimus الراهب اللمباردى، ولسنا يعنينا الدخول فى تفصيلات هذه السفارة ولكن نكتفى بأن نقول إنها نهجت نهج سابقتها من حيث دعوة التتار إلى اعتناق المسيحية الكاثوليكية، ثم انكفأت إلى أوروبا حاملة رد المغول ، كما صحبت معها رسولين تتاريين إلى البابا فى رومة ، وتلقاهما أنوسنت الرابع فى منتهل عام ١٢٥١ .

جرت هذه الاتصالات الدبلوماسية البابوية ولويس فى حملته على مصر وأثناء إقامته بالشام، على أنه تنبغى الإشارة إلى أن التتار اتخذوا قرابة هذا الوقت موقفاً إيجابيا حين كان لويس فى طريقه إلى مصر ، إذ وفد عليه فى قبرص رسولان من قبل كيوك خان يعرضان عليه رغبة مولاهم فى محالفته واستعداده لأن يكون إلباً معه على المسلمين فيساعده على تحقيق هدفه من استخلاص بيت المقدس من أيديهم ، وهنا قد يتساءل المرء : أكان ذلك العرض المغولى بلا مصلحة شخصية ؟ . . . تولى الرد على هذا التساؤل الأستاذ برهييه حين ذكر أن المغول كانوا فى هذه اللحظة يتأهبون لمحاربة الخلافة العباسية فى بغداد، أى أنهم يهيئون سبيلهم لتكوين تحالف مع الصليبيين، أما لويس فقد نظر إلى المسألة من ناحية أخرى دخل فيها عامل نشأته الأولى ونعنى بذلك تربيته

الدينية وطمعه فى أن يحقق للمسيحية نصراً تطمئن له روحه،وذلك بحمله التتار على التنصّر ، وإذ ذاك يكونون حرباً على المسلمين فى الشرق ، ولعله فاته أن التتار — من جانبهم — كانوا يريدون تكوين قوة ارتكاز لهم فى هذه المنطقة الحيوية ، كما فاته أيضاً أن عطفهم على المسيحية كان يماثله عطفهم على بقية الأديان والمذاهب الأخرى التى تعيش فى رحابهم: خطة حكيمة ابتدعوها لأنفسهم وكانوا فيها بناة دولة .

وأنفذ لويس مع هذه السفارة المغولية رسلا من قبله حمّلهم بالهدايا التى كان من بينها — كما يذكر جوانفيل — كنيسة صغيرة وأدوات القداس .

على أننا لانعرف على وجه الدقة أبلغت هذه السفارة بلاط كيوك ايلخان التتار أم أنها وصلت إلى معسكر جغطاى خاله ،فذلك مالا ينص عليه جوانفيل فى مذكراته ، على أن الأرجح أن المبعوثين واصلوا رحلتهم حتى بلغوا بلاط الإيلخان الذى كان قد مات،فتلقاهم أخيراً منكوخان الذى لم يمنعه ترحيبه بالبعثة من أن يعد هديتها دليلا — يسوقه إلى من لم يدخلوا بعدفى طاعته — على تبعية الملك لويس له ، وحذّرهم من أنه سيدفعه إلى محاربتهم إن لم يبادرو إلى هذه الطاعة، فلما عادت السفارة الصليبية من البلاط المغولى وأفضت بكل ما جرى لام لويس نفسه على إيفاد تلك البعثة .

على أن نهاية تلك السفارة المذلّة للويس لم تصرفه عن معاودة الاتصال بالمغول مرة أخرى ،لاسيما بعد أن وردت إليه الشائعات تقول إن سارتاك — أحد خانات المغول — اعتنق المسيحية — ولم يكن لهذه الشائعات نصيب من الصدق ، فأنفذ وفادة على رأسها وليم روبروك — أحد الرهبان الفرنسيسكان

— الذى غادر قيسارية عام ١٢٥٢ م حاملاً معه رسالة خاصة من لويس يرجو فيها الإذن للمبشرين الكاثوليك بالدعوة للمسيحية فى بلاد التتار .

هذه إيضاحات لما هو وارد فى مذكرات جوانفيل .

* * *

لكن قبل أن نختم هذه الكلمة نحب أن نبين أن المدى الجغرافى الذى تضمنته هذه المذكرات يشمل أقساماً ثلاثة : هى مملكة فرنسا فى القرن الثالث عشر ، ثم بلاد الشام ، ثم مصر السفلى .

وربما لم يكن ثم شىء من هذه الأقاليم الجغرافية فى حاجة إلى كلمة إيضاحية مثل « مملكة فرنسا » ، إذ ربما وقع القارىء غير الملم إلماماً قوياً بتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى فى حيرة وارتباك مصدرهما إشارة جوانفيل — وغيره من كتاب تلك العصور ومؤرخيها — إلى ما كان يعرف إذ ذاك بفرنسا ، بحيث لو تتبع المطالع خريطة فرنسا فى العصور الحديثة لظن أن هناك خطأ فى إيراد الأحداث أو عدم فهم لتقسيمات فرنسا الجغرافية .

لكن الواقع غير هذا وذاك .

ذلك أن « مملكة فرنسا » تحددها معاهدة فردان سنة ٨٤٣م التى جعلتها ثلاثة أقسام كما يعرف طلاب التاريخ ، وما مملكة لويس التاسع غير ذلك القسم الذى كان من نصيب شارل الأصلع ، وكانت حدوده من الشرق : نهر الموز والساءون والرون ، ومن الشمال إسكوت Escout ، ومن الجنوب جبال البرانس .

على أننا نختلف فى تقدير مدى ما كانت عليه هذه المملكة من اتساع زمن لويس التاسع حيث كان قد انضاف إليها قبل ذلك بزمن أبرشيتا فيفيه وأوزيه ، إلا أن

هذه الإضافة الإقليمية إلى ممتلكات فرنسا لم تغير شيئاً من حقيقة ثابتة هى اتخاذ الرون حداً شرقياً فاصلا بين المملكة و بين الأقاليم المجاورة لها، ويستدل من وثائق المنح و الهبات الإقطاعية أن حق ملك فرنسا قد أصبح مؤكداً على الأقل فى أبرشية فيفيه منذ عام ١١٨٨ ، حيث يؤكد صاحبها سيادة الملك عليها .

على أن جغرافية « مملكة فرنسا » تختلف فى منتصف القرن الثالث عشر حين قام لويس بحملته على مصر فى مستهل القرن الرابع عشر ، وكانت حدودها مرنة مطاطة تتلاءم مع قوة الملك وضعفه ، ومع التيارات السياسية الداخلية لاسيما الحركات الإقطاعية وزعماء الإقطاع ، وعلى ذلك فإن دراسة مملكة فرنسا إبان هذه الحقبة يجب أن تكون مقرونة بدراسة الأطلس ، بل إنه يتجلى من الوثائق أن بعض الإقطاعيات والولايات كانت زئبقية رجراجة ، ونذكر على سبيل المثال أن قراءة الخريطة تبين لنا أن مقاطعتى روكورت Roucourt و كورنى لم تعودا ضمن حدود « مملكة فرنسا » فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وحقيقة الواقع أنه فى السنة الأولى من مطلع هذا القرن أصبح كونت شمبانيا فصلا إقطاعياً تابعاً لملك فرنسا ، وتجلت فصليته له فى حكمه بعض الحصون ومنها حصنا روكورت و كورنى .

والمقارن لحدود فرنسا الحالية من ناحية الجنوب بحدودها زمن أحداث هذه الذكرات يستطيع أن يرى فى غير عسر عدم الاختلاف الشديد ، اللهم إلا أن نفارة السفلى ومنطقة روسيلون لم تكونا داخلتين ضمن حدود فرنسا لويس التاسع ، كما أن مطالعة قاموس Expilly : Dictionnaire Geographique de Gaule et de France ربما دلت القارىء على أن نفارة السفلى كانت نواة مملكة نفارة التى ظهرت فى القرن الثالث عشر مملكة قوية مستقلة

بفضل ما تهيأ لها من ظهور شانجة القوى الذى استطاع غزوها،وبذلك تخلصت نفارة السفلى من أن تصبح تابعة لمملكة فرنسا .

لكن ما هو مدى اتساع حكم الملك الجغرافى ؟

الواقع أن هذه الناحية جديدة فى موضوعها طريفة فى مظهرها ، ذلك أن سلطة ملك فرنسا فى مطلع القرن الثالث عشر لم تكن تتجاوز النواحى التى تشغل الآن الإقليم الأوسط منها ، وهو الذى عرف فى تاريخ العصور الوسطى باسم جزيرة فرنسا وبيكاردى،وفيرماندوا،وايفيرو،وأورليانيه،وبرّى،وجاتينيه وكونتية دى سان ، كما انضاف إلى هذه المناطق بعض الإقطاعيات ، وكانت هذه الإضافة بطريق المصادرة لاسيما على يد فيليب أغسطس ، ثم جاءت اتفاقية ١٢٢٩ التى أصبح من حق الملك بمقتضاها امتلاك جزء من منطقة لانجدوك .

وفى عهد لويس التاسع نفسه — وفى عام ١٢٣٧ بالذات — تمكنت مملكة فرنسا من أن تضيف إليها منطقة جغرافية جديدة لم تكن لها من قبل هى كونتية ماكون Macon .

هذا هو القسم الأول من « مملكة فرنسا » زمن لويس التاسع موضوع هذه المذكرات .

أما القسم الثانى فهو الإقطاعيات التابعة لها ويبلغ مقدارها قرابة ستين إقطاعية أى أنها تزيد عدا ومساحة عن مساحة فرنسا القرن الثالث عشر ، والواقع أن تاريخ هذه الإقطاعيات هو تاريخ تبلور القومية والتوحيد السياسى، وليس هذا موضع دراسة تاريخ فرنسا ، لذلك لن أعرض فى هذه المقدمة لتلك الإقطاعيات والإمارات اكتفاء بما أضفته من الحواشى المتعلقة بها فى هذه الترجمة العربية .

* * *

أما فيما يتعلق بالأصل الذى كتبه جوانفيل فليس لدينا هذا الأصل ، لكن المذكرات وصلت إلينا فى صور يختلف بعضها عن بعض باختلاف السنوات والنساخ ، وقد عمد المؤرخ المحقق ناتالى دى ويللى Natalis de Wailly فى القرن التاسع عشر إلى سبع نسخ منها ، قارن بينها وأخرج منها النسخة التى هداه تعمقه التاريخى واللغوى إلى أنها أقرب النسخ إلى الأصل كما وضعه جوانفيل بالفرنسية القديمة ثم ترجمها ويللى إلى الفرنسية الحديثة ، فاتخذتها أصلا أترجم عنه .

ثم عمدت إلى ترجمة بالفرنسية موجزة حديثة لمقارنتها بالأصل ، كما عمدت إلى ترجمتين بالإنجليزية لمذكرات جوانفيل إحداها هى النسخة التى ترجمها الكولونيل / John of Hafod ونشرها عام ١٨٤٨ والتى كان اعتماده فى ترجمتها على نسخة معروفة بنسخة مينارد ، والتى تختلف عن نسخة ويللى فى كثير من الأحداث والترتيب بالزيادة حيناً والنقص حيناً آخر ، والتقديم والتأخير ، والإطالة والإيجاز فى بعض الأحيان ، وأشرت إلى ما قد يكون من اختلاف كبير بينها وبين الأصل الفرنسى القديم الذى نشره ويللى . أما الترجمة الإنجليزية الأخرى فهى الترجمة التى نشرت فى مجموعة إفريمان تحت عنوان Memories of the Crusades (Everyman's Library) وهى فى الواقع ترجمة لنسخة ويللى .

ولما كان ويللى قد قسم المذكرات إلى أجزاء جعل لها عناوين وأخرى مرقمة مسلسلة فقد اتبعت نفس الترتيب ، لا سيما وأنه كثيراً ما ترد الإشارة إليه إلى المراجع الغربية الحديثة التى تكتب عن هذه الفترة وتستعمل المذكرات ، غير أنى أبحت لنفسى التغيير فى العناوين تبعاً لمقتضى الحال .

كما أنني لم أشأ إتخام الترجمة بالحواشي والتعليقات إلا حيث وجدت إلا محيص لي عن ذلك ، ذلك لأنني أريد أن أقدم للقارىء العربي مذكرات العصور الوسطى كما كتبها أصحابها، وأدعه يكوّن لنفسه صورة من مطالعاته الخاصة عن حقيقة الحروب الصليبية وأهدافها التي كانت مرتسمة في أذهان أهل الغرب في تلك العصور ، وإن ألبسوها مسوح الدين .

وأحب أن أشير إلى أن هذه هي أول مرة تترجم فيها هذه المذكرات إلى العربية .

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت ، وما توفيقي إلا بالله ؟

الدقي ١٩٦٨/١/٣١

حسن حبشي

حياة القديس لويس

— ١ —

الإهـــداء وتقسيم الـكتاب

١ — إلى سماحة سيدى لويس[١] الصالح بن ملك فرنسا الذى هو بفضل الله ملك نفارة وكونت شمبانيا[٢] وبرى ، يرفع تابعه جون دى جوانفيل سنكال شمبانيا إليه تحاياه وحبه واحترامه وطاعته[٣] .

٢ — مولاى العزيز :

لعله ما يرضيك أن تعرف[٤] أن السيدة الجليلة والدتك الملـكة — قدس الله روحها — التى كانت كثيرة الحب لى ، سألتنى ملحة أن أضع لها كتاباً

(١) يقصد بذلك لويس العاشر بن فيليب الجميل ، راجع فيما بعد فقرة رقم ٣٧.

(٢) تعتبر كونتية شمبانيا من أهم كونتيات فرنسا وأغناها ، وكانت تتألف فى منتصف القرن الثالث عشر — زمن أحداث هـذه المذكرات — من ست مقاطعات رئيسية هى مقاطعة جوانى (التى ضمت إليها سنة ١٢٠١) والتى خرج منها جوانفيل صاحب هـــذه المذكرات ، ومقاطعــة جراندبريه Grandpré (١٢١٦) ، ومقاطعات بورسيان Porcien وريثيل Relhel وروثى Roucy وبريين التى ضمت إليها عام ١٢٥٠ ، راجع ذلك بالتفصيل فى ; Longnon : Etudes sur les Pays de la Gaule
Histoire des ducs et des Comtes de Ghampagne t. VII .

(٣) جاء بعد هذا فى نسخة جونز، ص ٣٥٠ « ويدعو له فى صلواته أن يكلأه المسيح بحبه القدسى » .

(٤) فى جونز ،شرحه، بعد هذا «أيها المولى الشريف القادر» .

يتضمن ما لملكنا الراحل القديس لويس من أقوال طاهرة وفعال كريمة [1] ، فوعدتها الامتثال لأمرها ، وتم الكتاب الآن بعون الله فى قسمين : يروى القسم الأول منهما كيف حكم نفسه طول أيام حياته وفق إرادة الرب والكنيسة ، وكيف ساس الأمور سياسة انطوت على خير مملكته .

أما القسم الثانى من الكتاب فيسرد أعماله المنطوية على الفروسية، وفعاله النابهة فى القتال [2] .

٣ — مولاى :

لقد جاء فى الكتاب المقدس « أطلبوا أولا ملكوت الله وبرّه ، وهذه كلها تزاد لكم » ، ولذلك فقد شرعت باديء ذى بدء فى تدوين ما بدا لى أنه مطابق للأمور الثلاثة السالفة ، أعنى ما يتعلق بصلاح الروح وخير الجسد وحكم الناس .

وقد دونت هذه الأمور الأخرى [3] كلها إجلالا لذلك القديس الصادق لأنها سوف تمكن الناس من أن يروا بجلاء أنه [4] لم يوجد قط فى أيامنا رجل علمانى عاش العيشة الطاهرة التى عاشها الملك لويس منذ بداية حكمه حتى ختام حياته .

---

(١) فى Op.cit. loc. cit. « وقد حملها على ذلك ما عرفته من تفانى فى خدمتها تفانى المطيع المحب » .

(٢) إنجيل متى : ٤/٣٣ .

(٣) يعنى بذلك جميع الأعمال غير الحربية وإن كانت كلمة « الأخرى » محذوفة فى الترجمة الإنجليزية .

(٤) جاءت هذه العبارة على النحو التالى فى « م » ، ص ١٣٥ ، س ٢٨ « لم يسلك أى رجل علمانى فى وقتنا عيشة طاهرة جميع أيامه حتى منذ بداية حكمه إلى ختام حياته » .

لم أكن حاضراً ساعة وفاته ، ولكن ابنه بطرس كونت ألنيسون[1] الذى أحبنى كثيراً كان موجوداً إذ ذاك وأنبأنى بالنهاية السعيدة التى صادفها الملك مما ستراه فى ختام هذا الكتاب[2] .

من أجل هذا فإنه يخيل إلىّ أنه لم يُقدَّر التقدير الكافى من أولئك الذين لا يدرجونه فى عداد الشهداء بعد وقوفهم على خبر الآلام العظيمة التى التى تحملها فى حجه الصليبي خلال السنوات الست التى رافقته فيها ، ورأيته على الأخص خلالها يقتفى خطى سيِّدنا فى مسألة الصليب .

فإذا كان السيد قد مات على الصليب ، فقد لقى الملك القديس نفس الميتة ، لأنه كان صليبياً يحمل الصليب على صدره حين وافاه الأجل فى تونس[3] .

* * *

٦ — أما الكتاب الثانى فسيحدثك عن أعمال بطولته المنطوية على الفروسية وعن بسالته ، حتى لقد رأيته يعرض نفسه لخطر الموت أربع مرات — كما ستسمع — لتخليص رجاله من الأذى .

صور من تقواه

٧ — كانت أول مرة عرّض نفسه فيها لخطر الموت حين أصبحنا أمام دمياط ،

---

(١) راجع عنه الفقرات ٥١٤ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٢) راجع رقم ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٣) يقصد بذلك حملته الصليبية على تونس التى شنها عام ٦٦٨ هـ (= ١٢٧٠ م) ، وانتهت بموته هناك وفشل فرنسا فى الاستيلاء عليها ، راجع المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

فقد سمعت أن جميع من حوله من أهل الرأى محضوه النصح بالبقاء فى سفينته حتى يرى مصير فرسانه الذاهبين إلى الشاطىء .

٨ـــوقد حملهم على إسداء هذه النصيحة إليه من أنه لو أرسى وإياهم ثم قتلوا وقتل هو معهم فمعنى ذلك القضاء المبرم على الحملة ، أما إذا بقى حيث هو على سفينته فإنه يتمكنّ من معاودة فتح مصر بنفسه ، لكنه لم يُعِرْهم أذناً صاغية بل قفز إلى الماء وهو فى كامل عدته ، ودرعه حول عنقه ، ورمحه فى يده ، وكان هو أحد الأوائل الذين مسَّتْ أقدامهم الساحل .

٩ - أما المرة الثانية التى عرض نفسه فيها لخطر الموت فكانت حين رحيله عن المنصورة قاصداً دمياط ، إذ نصحه مشيروه — كما فهمت — بالذهاب إليها فى أحد الأغربة ، وقيل إن السبب فى إشارتهم عليه بذلك هو أن يتمكن من إطلاق سراح رجاله من ربقة الأسر إن ألمّتْ بهم كريهة .

١٠ـــأضف إلى هذا أنهم نصحوه بذلك لما رأوا ما هو عليه من الضعف الناجم عن الأمراض العدّة التى نخرت جسمه ، فقد عاودته الحمى الثلاثية مرتين ، واعترته الدوسنطاريا الحادة ، وأصابه المرض المتفشى بالجيش[1] فى فمه وساقيه ، ولكنه لم يستجب لأحد ما بل قال إنه لن يترك رجاله أبداً ، ولا بد له من أن يشاركهم نفس المصير الذى سوف يلقونه ، وأصبح من الضرورى لسبب ما به من الدوسنطاريا قطع الأجزاء السفلى من سراويله ، كما تعدّدت

---

(١) سيسميه جوانفيل — كلما وردت الإشارة إليه — بمرض الجيش ، وقد شرحه هو بنفسه فذكر أنه عبارة عن تضخم فى اللثة شديد الألم ، وقروح فى الساقين ، وكان علاجه قص اللحم المتراكم .

مرات إغمائه بسبب الألم الشديد الذى انتابه من مرض الجيش ، كما ستعلم فيما بعـد .

١١ــأما المرة الثالثة التى عرض نفسه فيها لخطر الموت فكانت حينما أقام أربع سنوات فى الأرض المقدسة بعد عودة إخوته إلى فرنسا، وكنا إذ ذاك فى خطر مقيم نتوقع الموت ، حيث لم يعد بصحبته أثناء تلبثه بعكا سوى رجل مسـلح واحد مقابل ثلاثين ممن لدى أهل عكا بعد استيلاء المسلمين عليها .

١٢ــولست أدرى السبب الذى حال بين الأتراك[1] وبين الهجوم علينا حينذاك فى المدينة وأسرنا بها إلا أن أعزو ذلك إلى حب الرب للملك ، فقـد بث الخوف فى قلوب أعدائنا فلم يجرءوا على مهاجمتنا مصداقاً لمـا هو وارد فى الـكتاب المقدس : « إذا كنت تخاف الله فسيخافك الجميع » .

ومن ثم لبث الملك فى الأرض المقدّسة رغم نصيحة مشيريه ـ كما ستسمع ـ معرضاً نفسه للخطر، دفاعاً عن أهل تلك البقعـة الذين كان لابد وأن يهلـكوا لو لم يبق الملك معهم .

١٣ــأما المرة الرابعة التى عرض نفسه فيها للخطر فكانت فى طريق عودتنا من الأرض المقدسة ، إذ حدث حين وصولنا أمام جزيرة قبرص أن ارتطمت سفينتنا ارتطامة خطيرة بصخرة قذفتها مسافة ثلاث ياردات من القـاعدة التى بنيت عليها .

١٤ــحينذاك أرسل الملك فى طلب أربعة عشر ملاحاً من كبار الملاحين

---

(١) يعنى بذلك جماعة المماليك .

الذين فى صحبته [1] ، سائلا إياهم أن يشيروا عليه بما ينبغى عليه عمله ، فانعقد إجماعهم على نصحه[2] بالانتقال إلى سفينة أخرى لأنهم لم يروا كيف تستطيع السفينة المعطبة [3] مقاومه ضربات الأمواج بعد أن فُكت المسامير التى كانت تشد ألواحها بعضها إلى بعض ، وبينوا للملك بالأمثلة مدى الخطر المحدق بالمركب، مخبرين إياه عما جرى أثناء سفرنا إلى الأرض المقدسة حيث غرقت السفينة التى أصابها ما أصاب هذه السفينة الآن .

ولقد رأيت بنفسى فى مركب « جُوَانِى » امرأة وطفلها هما كل من قدّر له النجاة من بين ركابها .

١٥ـــ فلما فرغوا من قولهم أجابهم الملك « أيها السادة إننى أعرف أن سيهجر هذه السفينة الأشخاص الثمانمائة الذين عليها لو أننى غادرتها ، ولما كان كل واحد منهم يحب نفسه حبى أنا لنفسى فلن تواتى الشجاعة أحدهم على البقاء بها بعد مغادرتى إياها ، بل سيقيمون جميعاً فى قبرص ، ولهذا السبب ـ ومرضاة للرب ـ فإننى لن أعرّض لخطر الموت أناساً كثيرين كالذين هنا ، بل سأبقى حيث أنا لإنقاذ جماعتى » .

١٦ـــ ومن ثم أقام حيث هو ، وحفظنا الرب الذى كانت ثقته به عظيمة مدة ستة أسابيع من أخطار البحر ، حتى تهيأ لنا الوصول أخيراً إلى مرفأ أمين [4] .

---

(١) فى نسخة م ، ص ١٣٧ ، س ٢٢ — ٢٤ « ثم بعث الملك فى طلب أربعة عشر ملاحاً من كبار ملاحى هذه السفينة أو غيرهم ممن فى صحبتها » .

(٢) بعدها شرحه ، س ٢٥ . « كما ستعلم فيما بعد» .

(٣) هذه الصفة محذوفه من م ، ص ١٣٧ ، س ٢٦

(٤) شرحه ص ١٣٨ ، س ١ « كما ستسمع » .

بهذا [1] أنقذ الملك من الخطر الثمانمائة شخص الذين كانوا بالسفينة ، وقد حدث أن ترك « أوليفر دى تيرم » الملك وراءه وأقام فى قبرص ولم نره مدة عام ونصف عام .

وكان أوليفر هذا قد برهن من قبل على سلوك كريم وشجاعة فائقة .

١٧ — وسنتكلم فى القسم الأخير من هذا الكتاب عن نهاية الملك وكيف مات ميتة كريمة طاهرة .

١٨ — والآن فإنى مخبرك ياسيدى اللورد ويامالك نفارة أننى كنت قد وعدت سيدتى الملكة والدتك ـ عليها رحمة الله ورضوانه ـ بتأليف هذا الكتاب، فدونته وفاء بوعدى لها ، ولست أرى أحداً أحق منك ـ وأنت وريثها ـ بأن أرسل إليه هذا الكتاب لتقف عليه أنت وإخوتك وغيركم ممن سيسمعه مقروءاً ، ولتتخذوا منه قدوة ، وتضربوا أمثلة من ذاتكم للعمل الطيب فتدركون عطف الرب .

* * *

(١) العبارة فى شرحه ، ص ١٣٨ ، س ٥ — ٦ .

الكتاب الأول

فضائل القديس لويس

١٩ - باسم الله القوى أملى أنا ـ جون لورد جوانفيل سنكال شمبانيا ـ قصة حياة مليكنا المقدس لويس ، مضمنا إياها ما رأيته وسمعته فى مدى السنوات الست التى رافقته فيها فى الحج إلى الأراضى المقدسة ، وأملى أيضاً ما رأيته وسمعته بعد رجوعنا ، وسأخبرك بتعاليمه الخيّرة وكلماته القدسية قبل استعراض عظيم فعاله وبسالته.

٢٠ — كان هذا الرجل القديس يحبّ الرب بكل قواه ويقتفى خطاه فى جميع أعماله ، وكما مات السيد من أجل حبّه لشعبه كذلك عرّض القديس لويس نفسه للخطر من أجل حبه هو الآخر لشعبه ، بينما كان فى مقدوره تجنّب هذا الخطر كما سنخبرك فيما بعد .

٢١ — وقد تجلى حبه الشديد لشعبه حين اشتدت به العلة فى «فونتنبلو» شدة أنذرت بالخطر، إذ استدعى إليه ابنه الأكبر مولاى لورد لويس وقال له : « أتوسل اليك يا ولدى العزيز أن تجعل نفسك جديراً بحب أهل مملكتك ، فإننى أوثر ـ صدقاً ـ أن أرى أسكتلندياً يأتى من اسكوتلانده أو من أى بلد بعيد، ويحكم أهل المملكة حكماً طيباً عادلاً عن أن أراك أنت تدير أمورها تدبيراً يكون قذى فى عيون الجميع ».

وهكذا كان الملك القديس يحب الحق حباً شديداً ، حتى إنه ـ كما ستعلم فيما بعد ـ لم يرض مطلقاً أن يكذب على المسلمين أو يتراجع في أي اتفاق اتفق وإياهم عليه [1] .

٢٢ ـ أما فمه فكان طاهراً على الدوام ، فلم يتأتّ لي أبداً أن أسمعه طالباً طعاماً معيناً أو شراباً خاصاً كما يفعل كثير من الأغنياء ، ولكنه كان يُقبِلُ راضياً على تناول كل ما يعدّه له طهاته ويقدّمونه إليه .

وكان عفيفاً في كلامه ، فلم أسمعه في يوم من أيام حياتي يغتاب أحداً ، ولم تجْرِ أبداً على لسانه كلمة « الشيطان » ، وهو لفظ شائع الاستعمال في كافة أرجاء المملكة ، بينما أعتقد أن الرب غير راض عن هذا الأمر [2] .

٢٣ ـ وكان يشعشع الخمر بالماء بقدر يتلاءم مع قوة الشراب وتأثيره، وحدث ذات مرة ونحن في قبرص أن سألني لمَ أشرب النبيذ صرفاً صُراحاً ، فأخبرته إني أفعل ذلك استجابة لنصيحة المطببين الذين أخبروني أن لي رأساً كبيرة ومعدة قوية فلا يتسنىّ للخمر أن تلعب برأسي ، فأجابني بأنهم خدعوني ، ونصحني أن أمزجها بالماء ، لأنني إذا لم أعتد هذا في أيام شبابي ثم حاولته على كبر بُليت بمرض النقرس وغيره من أمراض المعدة ، ولن أعرف العافية بعدئذ أبداً .

أمّا إذا دأبت على شرب الخمر الصراحيّة في شيخوختي فسأبيت كل ليلة مخموراً ، وإنه لمما يقدح في كرامة الرجل الفاضل أن يمسي صريع الشراب .

---

(١) راجع فيما بعد الفقرتين ٣٨٧ ، ٧٦٤

(٢) راجع فيما بعد الفقرة رقم ٦٨٧

٢٤ــ وسألنى [مرة أخرى[1]] عما إذا كنت أريد أن أكون موقراً فى هذه الدنيا وأن تكون الجنة مثواى عند موتى فأجبته نعم، فقال لى « إذن نزّه نفسك وصُن لسانك عن ارتكاب موبقة أو التفوّه بقول إذا ذاع خبرها أخجلك أن تقول نعم فعلته ، أو أجل قلته » .

ونهانى نهياً باتاً عن أن أكذب أو أفند فى خشونة أى شىء يقال فى حضرتى ، اللهم إلا إذا كان الصمت خطيئة أو كانت فيه مضرة تحوق بى ، وذلك لأن الكلمات الخشنة كثيراً ما تؤدى إلى معارك تسيل فيها الدماء ويلقى فيها الآلاف حتفهم .

٢٥ــ وقال أيضا أن واجب كل شخص أن يلبس ويدرّع ما يلائم منزلته وثروته كى لا يدع مجالاً لتقريعه من كبار المكانة والسن، فيشيرون إليه قائلين إنه أسرف كل الإسراف ؛ أو أن يحمل الشباب على أن يقولوا « هذا الرجل قتر على نفسه كل التقتير »، فتضيع مكانته فى المجتمع .

ويذكرنى هذا بأن السيد الملك ــ والد الملك الحالى ــ كان يتكلم عن أبهة الملابس وسترات الأسلحة المزركشة التى عمّ انتشارها فى أيامنا هذه فى صفوف الجيش . ولقد[2] أخبرنى الملك الحالى أنه أثناء وجوده بالأراضى المقدسة مع أبيه وجيشه لم تقع عينه قط على سترة مزركشة أو سرج مطرز فى حوزة أبيه الملك أو أى لورد من لورداته ، فقال إنه أخطأ فى تزيين أسلحته وأن لديه

---

(١) غير واردة فى م ، ص ١٤٠

(٢) هذه العبارة واردة فى م ، ص ١٤٠ ، س ٢٨ ــ ٢٩ على الصورة التالية : « ولقد أخبرته أننى لم أر قط ــ أثناء رحلتنا فيما وراء البحار ــ ألبسة حرب مزركشة للملك أو لغيره » .

بعض سترات كلفته ثمانمائة دينار باريسى ، فأخبرته أنه أجدى عليه لو تصدق بها وخاط ستراته من « الستان » الجيد كما كان يفعل أبوه من قبل .

٢٦ــ وفى ذات مرة استقدمنى الملك إليه لمحادثتى قائلا لى: «إننى لا أجرؤ على الكلام معك فى الأمور المتعلقة بالرب لما أعرفه فيك من قوة الفهم ، لذلك استدعيت هذين الراهبين الموجودين هنا، وإنى لأسألك أمامهما أيها السنكال سؤالاً يتعلق بالله : ماهى ماهية الرب ؟ »

فأجبته : «إنه الخير كل الخير ولا خير يشأوه يامولاى» ، فقال : « الحق أقول لك ، لقد قلت قولا سديداً لأن إجابتك هذه واردة فى هذا الكتيب الذى بيدى » .

٢٧ــ ثم قال : « والآن فإنى مُلقٍ عليك سؤالاً آخر،أيهماتؤثر أن تكونه : « أمبتلى بالبرص ؟ أم مرتكبا المعصية ؟ أو موشكا على ارتكابها ؟ » فأجبته ــ أنا الذى لم أكذب عليه قط ــ « إننى أوثر أن أرتكب ثلاثين خطيئة مهلكة من أن ابتلىَ بالبرص» .

فلما انفصل عنا الراهبان استدعانى إليه على انفراد وأجلسنى عند قدميه وقال لى : « كيف جرؤت على أن تقول لى ما قلته بالأمس ؟ » ، فأجبته إنه لو قدرٌ لى أن أجيب على هذا السؤال مرة أخرى لاصطنعت نفس الرد ، فقال « إنك لتنطق عن حمق وجنون ، ولقد خدعتك نفسك لأنه يجب أن تعرف أنه ليس من برص أقبح وأخزى من الخطيئة الكبرى ، كما أن الروح التى دنستها الخطيئة أشبه ما تكون بالشيطان فى الجحيم » .

٢٨ــ «ومن نافلة القول وصدقه أن البرص يزايل المرء حين موته، أما الخاطىء

فلا يعرف على وجه التحقيق عند قبض روحه عما إذا كان قد كفر فى حياته عن خطيئته وتاب عنها توبة نصوحا غفر الله له من أجلها ذنبه ، ومن ثم تراه فى هول مقيم مخافة أن يظل برص المعصية ملازماً له طيلة بقاء الرب فى الجنــة ، لذلك ألتمس منك أولا بحق حبك للرب وحبك إياى أن تستوعب فى قلبك أن أقبح برصٍ يلم بجسمك لهو أهون وقعاً عليك من ارتكابك المعصية» .

٢٩ — ثم سألنى بعد ذلك عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء يوم الخميس المقدس فقلت له : « واحرباه ، لم أفعل ذلك ولن أغســل أقدام هؤلاء لأن ذلك يُمرضنى » فردعلىّ قائلا : « لقد قلت شراً لأنه لا يجوز لك مطلقاً أن تتأفف من شىء فعله الرب لتعليمنا [1] ، لذلك أتوسل إليك من أجل حبك لله أولا ، ولى ثانيا، أن تعوِّد نفسك غسل أقدام الفقراء » .

* * *

تقديره للفقراء

٣٠ — كذلك كان الملك لويس يحب كل طاهر مؤمن بالله محب إياه، حتى إنه لما سمع بالشهرة الطيبة العظيمة التى يتمتع بها سير جيـــل دى بروين من خشيته الرب وحبه إياه منحه كونستابلية فرنسا رغم أنه لم يكن من مملــكة فرنسا ؛ والواقع أنى أعتقد اعتقاداً جازماً أنه جدير بهذا الصيت الــكريم .

٣١ — وحدث نفس الأمر للأخ روبرت دى سوربون إثر ما سمعه الملك عن

(١) جاء بعد هذا فى ترجمة جونز ، ص ٣٥٤ مايلى «لأن السيد الذى هو صاحب الـكون قام فى مثل هذا اليوم — أعنى يوم الخميس المقدس — بغسل أقدام جميع رسله قائلا لهم إنه ينبغى أن يعمل بعضهم مع البعض الآخر ما عمله هو معهم رغم أنه سيدهم » .

صدقه واستقامته [فاتخذه أحد[1] رجال بطانته] وأذن له أن يجالسه إلى مائدته ، وحدث ذات يوم أن كنت جالساً إلى جوار الأخ روبرت ونحن نتناول الطعام على خوان الملك الذى رآنا نتحدث معاً فى همس فعنفنا قائلا : [خطأً تفعلان إذ تتهامسان[2] ، لكن] ليكن حديثكما بصوت مرتفع حتى لا يذهب الظن برفاقكما أنكما تتناولانهم بالسوء ، فإذا جلستم إلى الطعام وكان لديكم حديث بهيج مقبول فأشركا فيه رفقتكم وأسمعوهم إياه ، وإلا فأمسكا عنه ولوذا بالصمت » .

٣٢ — وجرت عادة الملك — إذا كان منشرح الصدر — أن يكثر من سؤالى فى حضرة الأخ روبرت ، وحدث ذات مرة أن قال لى :

« يا سنكال ، خبرنى عن الأسباب التى من أجلها يكون الرجل السرى الأخلاق خيراً من الأخ الراهب » ، واحتدم النقاش وطال بينى وبين الأخ روبرت حتى قال الملك : « أيها الأخ روبرت تمنيت لو أننى نُعِتُّ بالمستقيم على أن يطابق الُخبر الخبر ، أما ما يتبقى بعد ذلك نخذه لك ، لأن الاستقامة والطهر أمران جليلان ورائعان حتى أنهما ليملآن الفم زهواً حين ينطق بهما » .

٣٣ — ثم أضاف إلى ذلك قوله « وعلى العكس من ذلك فإن أشد ضروب الإثم هو سلب الآخرين حوقهم ، وهذا هو ما يفعله الشيطان فى خبث ، لأنه يشغل كبار المرابين واللصوص فيجعلهم يعطون الله ما كان ينبغى عليهم رده إلى الناس » .

---

(١) لم ترد هذه العبارة فى م .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى نسخة ويلى ولا فى م ، فأضيفت من جونز ، ص ٣٥٩ .

٣٤ — وحدث أن طلب إلىّ أن أنوب عنه فى تحذير الملك ثيبوت[1] فى أنه ينبغى عليه أن يأخذ حذره من بيت « الآباء المبشرين » فى بروفنس الذى كان يبنيه إذ ذاك ، فلا يظلم روحه من جراء ما يصرفه على هذا الدير من مبالغ جسيمة ، إذ ينبغى على نظار الأموال أن يسلكوا فى حياتهم مسلك منفذ الوصية الذى يتحتم عليه قبل كل شىء أن يسدد كل ديون الميت فيدفع لكلٍّ ماله ، حتى إذا فرغ من ذلك كله استطاع أن يتزكى بما يتبقى من أملاك الراحل » .

رأيه فى ملابس الناس

٣٥ — كان الملك القديس ذات يوم من أيام عطلة عيد العنصرة فى كوربيل فى ثمانين فارساً ، فلما فرغ من تناول الغذاء نزل إلى الساحة الواقعة دون الكنيسة ووقف عند بابها يتحدث مع كونت بريتانى ـ أبى الكونت الحالى[2] حفظه الله — وحينذاك قدم الأخ روبرت دى سوربون مفتشاً عنى هناك ، وجذبنى من أطراف عباءتى وأخذنى إلى حضرة الملك وفى إثرنا بقية الفرسان ، وإذ ذاك قلت للأخ روبرت « ماذا تريد أن تفعل بى يا سيد روبرت ؟ » .

فقال : « أريد أن أسألك أتراك تستحق اللوم إذا ما جلس الملك فى هذه الساحة على حين تجلس أنت على أريكته وأصبحت تعلوه » فقلت له « أجل ، بكل تأكيد » .

---

(١) هو زوج ابنة الملك لويس التاسع .
(٢) يقصد بكونت بريتانى جون الأول (ت أكتوبر ١٢٦٨) ، أما ابنه فيعرف بجون الثانى المتوفى عام ١٣٠٥ ، والإشارة إليه بأنه كان لا يزال حياً تبين متى كتبت هذه الفقرة على الأقل ، راجع المقدمة .

٣٦ – فقال لى : « إذن فأنت أجدر باللوم حين ترتدى من الثياب ما هو أغلى من ثياب الملك فتتدثر بالفراء والملابس الخضراء ، بينما لا يفعل هو ذلك » فأجبته « يا سيد روبرت إننى لم أفعل شيئاً استحق عليـه الملامة لأن ما تراه علىّ من فراء وثياب خضر ليس بالجديد علىّ فقد خلّفه لى أبى وأمى ، بيد أنك أنت الملوم لأنك ابن لرجل وامرأة من عامة الناس ، ولـكنك هجرت زى أبيك وأمك ورحت ترتدى ملابس صوفية أغلى ممـا يرتديها الملك نفسه » ، ثم أمسكت بطرف معطفه مقارناً إيّاه بمعطف الملك وقلت له : « أنظر أترانى كاذباً فيما قلت ؟ » وإذ ذاك انبرى الملك للدفاع عن الأخ روبرت بكل قواه[1] .

٣٧ – بعد الفراغ من هذا النقاش بعث مولاى الملك فى استدعاء ابنه سيدى لورد فيليب وهو أبو الملك الحالى الجالس على العرش وكذلك الملك ثيبوت وجلس هو ذاته عند مدخل محرابه معتمداً على الأرض بيده وقال لهما : « اجلسا على مقربة منى كى لا يسمع أحد ما يدور بيننا من حديث » فأجاباه : « لعلك تعفينا يا مولانا من هذا لأننا لا نجرؤ على الجلوس جد قريبين منك » ، فاتجه الملك نحوى قائلا : « يا سنـكال اجلس هنـا » ففعلت ما أمرنى به واقتربت حتى مسّ ثوبى ثوبه ، وإذ ذاك اقتعدا – بأمره – مكاناً ورائى وقال لهما « لقد سلكتما أسوأ مسلك إزائى ، فأنتما ابناى ولـكنكما لم تبادرا إلى تلبية أمرى لأول وهلة ، ألا فاستمعا إلىّ ، إننى أرجو ألا يقع ذلك منكما مرة أخرى » ، فقالا إن ذلك لن يتكرر ثانية .

---

(١) جاء بعد ذلك فى جونز ، ص ٣٠٧ « مبيناً ما عليه روبرت من شدة التواضع ومشيداً برحمته على الجميع » .

٣٨— ثم التفت إلىّ ذاكراً أنه استدعانا جميعاً إليه ليعترف لنا بخطئه فى الدفاع عن الأخ روبرت وقال « ولكن رأيت أنه قد غُلب على أمره حتى أصبح فى مسيس الحاجة إلى مساعدتى إياه ، ومع ذلك فيجب عليك ألا تفكر فيما قلته فى معرض الدفاع عنه ، لأن الأمر لا يخرج عما قاله السنكال من أنه ينبغى عليكم أن تلبسوا من الثياب الجيد الملائم حتى يزداد حب زوجاتكم لكم ، ويزداد احترام الناس لكم ، لأن ملابسنا — كما يقول الحكيم — ينبغى أن تكون على الصورة التى إذا رآها المسنون الفضلاء لم يظنوا أننا أسرفنا فيها ، وإذا رآها الشباب لم يرمونا بالتقتير » .

• • •

تحذير الرب وتحوله إلى خير

٣٩— وستقف هنا على درس من الدروس التى لقّننى إياها ونحن بالبحر حينما كنا عائدين من وراء البحار ، فقد حدث أن هبت ريح خفيفة تسمى « بالجريان » ليست واحدة من الرياح الأربع الكبرى جعلت سفينتنا تجنح أمام جزيرة قبرص ، فما كادت الصدمة تصيبها حتى تسرب اليأس إلى نفوس ملاحينا فشقوا ثيابهم وشدو لحاهم ، فوثب الملك من فراشه حافى القدمين لأن الوقت كان ليلا وليس عليه من الدثار سوى قميصه ، وانطلق لتوه إلى حيث تمثال سيدنا وانبطح على الأرض أمامه على هيئة الصليب مثل رجل لا يتوقع غير الموت .

وفى اليوم التالى لوقوع هذا الحادث استدعانى إليه على انفراد وقال لى « يا سنكال ، لقد أرانا الرب قلامة ظفر من عظيم بأسه ، إذ بعث إحدى تلك الرياح التى بلغت من التفاهة حداً لم يكترث معه الناس فى الاتفاق على

تسميتها ، لكنها أوشكت أن تغرق ملك فرنسا وأطفاله وزوجته ورجاله ، ويفسر القديس أنسلم هذه الأمور بأنها تحذيرات من سيدنا كأن الرب يريد أن يقول لنا : أنظروا ما أيسر أن أبلوكم بالموت لو أردت ذلك » ، ويقول القديس[1] « أيها السيد الرب ، لماذا تهددنا بهذه الصورة ، أن تهديدك إيانا ليس بمجديك نفعاً وليس لخيرك ، لأنك لو قضيت علينا جميعاً لما كان أفقر منك ولو انقذتنا جميعاً لما كان هناك أغنى منك ، ومن ثم فإن تحذيرك ليس لنفعك بل لنفعنا[2] نحن لو أدركنا مرماه » .

٤١ — فلنتخذ من هذا التحذير الذى ساقه لنا الرب عبرة فى وجوب مبادرتنا إلى إزالة أى شىء نحسه فى قلوبنا أو أجسامنا قد يغضب الرب ، فلو فعلنا ذلك فإن الرب سيغدق علينا رحماته فى هذه الدنيا ،وستكون نعمه علينا فى العالم الآخر فوق كل تصور ، أما إذا لم نفعل ذلك فإنه سينزل بنا ما ينزله السيد الصالح بخادمه اللئيم الذى إن لم يُجْدِه التحذير نفعاً فى تقديم نفسه عاقبة مولاه بالموت أو بما هو أسوأ من الموت » .

٤٢ — فليكن هذا تحذيراً للملك لأنه نجى من خطر كبير يعادل ما كنا فيه أو ربما أكبر ، ومن ثم فدعه يتخلص من فعاله الشريرة حتى لا يبتليه الله ببلاء شديد فى نفسه أو فيما تملكه يداه.

* * *

---

(١) فى جونز ، ص ٣٥٨ « وأضاف الملك الصالح إلى ذلك قائلا » .

(٢) هكذا فى الأصل ولست أدرى المعنى المقصود من ذلك .

٤٣ــ لقد بذل الملك التقى قصارى جهده كما ستسمع حالا لتثبيت إيمانى بالعقيدة المسيحية التى منحنا إياها الرب ، وقال : إنه يجب علينا أن نؤمن إيماناً قوياً بمواد الإيمان ، فلا نفعل فعلا أو نقول قولا منافياً له خوف الموت أو أى ألم يلم بالجسد ، وقال : إن عدو الإنسان [وهو الشيطان[١]] خبيث جــداً حتى إنه ليبذل قصارى جهده ليشكك مَنْ على فراش الموت فى بعض مواد الإيمــان ، وهو يفعل ذلك لأنه يدرك تمام الإدراك عجزه عن حرمان الشخص من الأعمال الطيبة التى عملها، ويعرف أيضاً أنه لا حُكم له على المرء لو أنه مات فى ظل الإيمان الحقيقى[٢] .

٤٤ ــ ومن ثم فإنه يتحتم على كل فرد منا أن يحافظ على نفسه ويدافع عنها ضد هذا العدو حين يدركِ أنه يريد إدخاله فى تجربة قائلا له : « أغرب عنى فلن تستطيع غوايتى فتحملنى على أن أ كف عن الاعتقاد المتين بجميع مواد الإيمان، وسأحيى وأموت فى ظل الإيمان[٣] حتى ولو بترتَ جميع أطرافى » .

فإن فعل المرء هذا الفعل قهر العدو مهما كان سلاحه الذى يريد أن يصرعه به .

٤٥ ــ وقال[٤]: إن الإيمان والعقيدة المسيحيتين أمران يجب أن نعتقد فيهما اعتقاداً جازماً حتى ولو لم نكن متأ كدين منهما إلا بالسماع .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى جونز، ص٣٠٩ .
(٢) فى جونز ، شرحه ، «الإيمان الكاثوليكى» .
(٣) راجع فيما بعد الفقرة رقم ٧٧٥
(٤) يعنى بذلك الملك لويس نفسه .

ولما وصل إلى هذه النقطة سألنى ما اسم أبى فأخبرته أن اسمه سيمون ، فقال : « وكيف عرفت ذلك » فقلت : « إننى واثق من ذلك تمام الثقة ومعتقد إياه كل الاعتقاد ، لأن أمى شهدت بذلك[1] ، وأخبرتنى به مراراً » ، فقال لى : : « هكذا يجب عليك أن تؤمن بجميع مواد الإيمان التى كان الرسل عليها شهوداً كما تنشد يوم الأحد فى العقيدة » .

* * *

وليم أسقف باريس

٤٦ — وأخبرنى أن وليم[2] أسقف باريس ذكر له كيف جاءه ذات يوم سيد كبير من رجال اللاهوت سائلا إياه أن يأذن له بمحادثته ، فقال له الأسقف : « هات ما عندك أيها السيد » ، فلما شرع الرجل فى الكلام استخرط باكياً بكاءاً حاراً ، فقال له الأسقف : « تكلم ياصاح ولا تيأس فعفو الرب أكبر من ذنبك مهما جلّ ذنبك » ، فأجابه الآخر : « أحب أن أقول لك إنه ليس أمامى من سبيل سوى البكاء خشية أن أكون كافراً لأننى لا أستطيع أن أحمل قلبى على الاعتقاد فى القربان المقدس الموضوع على الهيكل كما علمتنا إياه الكنيسة المقدسة ، ومع ذلك فإننى واثق تمام الثقة أن هذه تجربة أدخلنى فيها العدو » .

٤٧ — فقال له الأسقف : «خبرنى أيها السيد ، هل تشعر بالراحة حينما يدخلك

---

(١) راجع الفقرة رقم ٧٧١

(٢) هو وليم الثالث المعروف باسم d'Auvergne وقد كان أسقف مدينة باريس من سنة ١٢٢٨ حتى ١٢٤٨م .

العدو فى هذه التجربة ؟ » فأجابه : « كلا يا سيدى ، بل إنها لتعذبنى شأنها فى ذلك شأن أى ألم آخر » فقال له الأسقف: « والآن فإنى أسألك عما إذا كنت قد نطقت — بدافع من إغراء المال — نطقاً يعتبر قذفاً فى تناول القربان أو فى أى سر من أسرار الكنيسة المقدسة الأخرى ؟ » .

فقال له : « أحب أن تعلم يا سيدى أنه لا يوجد شىء أبداً فى العالم يستطيع إغرائى على إتيان ذلك الأمر، وإنه لأهونُ على نفسى أن يتمزّق جسدى إرباً إرباً من أن أرتكب مثل هذا المنكر » .

٤٨ — فقال له الأسقف : « والآن سأقول لك شيئاً آخر : إنك تعرف أن ملك فرنسا فى حرب مع ملك إنجلترا ، وتعرف أيضاً أن القلعة الواقعة على حدود الاثنين هى قلعة «روشل[1] أن بواتو» فهل إذا عهد الملك إليك بحراسة تلك القلعة الواقعة فى تلك المنطقة الخطرة وعهد إلىّ بحراسة قلعة « مونتلهيرى » التى هى فى قلب فرنسا حيث لا خطر يهددنى ، فما ظنك — حين تضع الحرب أوزارها — لمن سيكون الملك مديناً أكثر : ألك أنت الذى قمت بحراسة قلعة بواتو أم لى أنا الذى قمت بحراسة قلعة مونتليرى ؟ » .

فأجابه الرجل : « سيكون مديناً لى — باسم الرب — لقيامى بحراسة قلعة روشل دون أن أخسرها » .

٤٩ — فقال الأسقف : « ياسيدى ، إن قلبى مثل قلعة مونتليرى لأنى لم أدخل فى تجربة ولم يداخلنى الشك فى أسرار المذبح المقدس ، ومن أجل هذا أخبرك أنه إن كان الرب مديناً لى لتمسكى بهذا الإيمان واطمئنانى إليه فإنه مدين لك بأضعاف هذا الدين ، لأنك حافظت على قلبك وسط حرب البلية ولأن عندك طوية كريمة نحوه ، فلم تتخل عن إيمانك جرياً وراء نفع دنيوى أو خشية

(١) Rochelle - en - Poitou .

أذى يلم بجسدك ، ومن أجل هذا أقول لك كن مطمئن البال قرير العين لأن حالتك هذه تسر الرب أكثر من حالتى أنا » .

فلما سمع الرجل هـذا القول ركع أمام الأسقف وأحس بالطمأنينة تغمر نفسه .

***

إيمان دى مونتفرت وعدم جدوى مجادلة اليهود

٥٠ـــ أخبرنى الملك القديس[١] أن فئة كبيرة من جماعة الألبيجنسيين جاءوا إلى كونت دى مونتفورت ، وكان إذ ذاك متوليا أمر ولا يتهم من قبل الملك وسألوه أن يذهب معهم لرؤية جسد سيدنا الذى استحال إلى لحم ودم فى يدى القسيس ، فقال لهم الكونت دى مونتفورت : « اذهبوا أنتم وشاهدوه بأنفسكم يا من كفرتم به، أما أنا فلا حاجة لى بذلك لأننى شديد الإيمان به وفق تعاليم الكنيسة المقدسة بشأن أسرار المذبح المقدس ، ولكن هل تعلمون ما ذا سيكون كسبي فى أثناء تلك الحياة الفانية التى آمنت فيها وفق تعاليم الكنيسة المقدسة ؟ إننى سأحظى بتاج فى السموات أعظم من تاج الملائكة الذين يرون الرب وجهاً لوجه ، ومن ثم لا سبيل لهم إلا الإيمان به[٢] » .

---

(١) يستفاد من رواية Giovanni Villani, 1,ch.7 أن هـذا الحادث حدث للملك لويس التاسع نفسه وليس لكونت دى مونتفورت ، راجع ترجمة جونز ، ص ٣٦١ ، حاشية ١ .

(٢) راجع فيما بعد الفقرتين ٧٧٢، ٧٧٣ .

وحدثنى أنه جرى ذات مرة جدال شديد فى دير كلونى بين رجال الدين وجماعة من اليهود ، وحدث أن كان بالدير إذ ذاك فارس تحنّن عليه رئيس الدير فأجرى عليه به رزقاً محبة فى الله ، فالتمس الفارس منه أن يأذن له بأن يكون أول المتكلمين فأجابه بعد لأى ، فوقف متكئاً على عكازه ، وطلب من اليهود أن يدلوه على حَبر يكون من أكبر أحبارهم وأعلمِهم فدلّوه عليه ، وإذ ذاك سأله قائلا : أسألك أيها الحبر عما إذا كنت تؤمن بأن العذراء مريم التى حملت الرب فى جسدها وبين ذراعيها كانت لا تزال عذراء حين وضعته ، وأنها أم الرب ؟ » .

٥٢ــ فأجابه اليهودى أنه لا يعتقد قط فى شىء من هذا القبيل،فقال الفارس إذ ذاك إن اليهودى سلك مسلك الغبى إذ لم يتورع رغم عدم إيمانه بها أو حبه إياها عن دخول ديرها وهيكلها وقال « الحق أقول لك إنك ستدفع الثمن غاليا » .

ثم رفع عكازته وضرب اليهودى ضربة أصابته بجوار أذنه فجندله أرضاً ، وإذ ذاك انطلق اليهود هاربين حاملين كبيرهم دامى الجراح . وهكذا انتهى الجدل .

٥٣ــ حينذاك جاء رئيس الدير إلى الفارس وأخبره أنه ارتكب حماقة كبرى، فرد علية الفارس بأنه هو ذاته قد فعل فعلا أشد شناعة حين جمع الناس لمثل ذلك الجدل لكثرة من كان موجوداً إذ ذاك من المسيحيين الطيبين الذين غادروا المكان قبل نهاية المناقشة وقد كاد إيمانهم أن يتزعزع لعدم فهمهم ما قاله اليهود تمام الفهم .

ثم قال الملك « وأحب أن أخبرك أنه لا يجوز لأحد أن يناقش اليهود إلا إذا كان حَبراً علامة ، أما الرجل العلمانى فلا يملك من وسائل الدفاع عن العقيدة المسيحية — إن أسىء إليها — إلا سيفه يطعن به المجدف ، ويظل يدخله فى جسده إلى أقصى ما يمكن للسيف أن يدخل » .

. . .

تقواه وعدله فى بلده

٥٤ — كان العرف قد جرى فى وطنه أن يستمع كل يوم إلى أغنية الساعات وإلى قداس Requiem دون نشيده ، فإذا كان الوقت ملائماً استمع إلى قداس اليوم أو قداس القديس مع أغنية .

وكان يذهب كل يوم للاستراحة فى فراشه بعد تناول الطعام فإذا نام واستراح أنشد هو وأحد قسيسيه فى حجرته نشيد الموتى ، وذلك بعد سماع تراتيل صلاة الغروب .

٥٥ — وحدث ذات مرة بعد مغادرتنا البحر أن وفد عليه أحد الإخوان الفرنسيسكان [١] فى قلعة Hyéres فقال فى موعظته إنه قرأ الإنجيل والكتب التى تتكلم عن الحكام الوثنيين فلم يلحظ قط بين المؤمنين أو الكفرة أن قد هلكت مملكة أو بدلت حكامها إلا وسبق ذلك ضياع العدل فيها ، ثم قال « فليأخذ الملك الذاهب إلى فرنسا نفسه بوجوب مراعاة تطبيق العدالة والحكم الصالح بين شعبه ليكفل سيدنا بقاء مملكته ناعمة بالسلام طيلة أيام حياته » .

---

(١) هو Hugues de Dignes ، راجع فيما بعد الفقرات رقم ٦٥٧ — ٦٦٠ .

٥٦ — ويقال إن هذا الرجل العادل المستقيم الذى أسدى للملك هذه النصائح يرقد فى مرسليا حيث أظهر الله — من أجله — كثيراً من المعجزات العظيمة ، وعلى الرغم من إلحاح الملك عليه بالبقاء معه إلا أنه لم يقبل أن يطيل إقامته أكثر من يوم واحد .

كيف حقق العدالة

٥٧ — لم ينس الملك تعاليم الأخ الفرنسيسكانى فأخلص فى حكم بلاده إخلاصاً يرضى الرب مما ستقف على خبره فيما بعد . فأمر أن يذهب سيدى لورد نيزل[1] Nesle وكونت سواسون[2] الطيب وأن نذهب نحن الذين كنا حوله بعد سماع القداس لسماع شكايات الناس عند البوابة المسماة ببوابة التوسلات .

٥٨ — وكان إذا آب من الكنيسة صباحاً[3] أرسل فى طلبنا وجلس عند قدم سريره وأجلسنا جميعاً حوله وسألنا عما إذا كانت هناك شكايات لا يستطيع حلها أحد سواه هو شخصياً ، فنسمى له أصحاب الحاجات ، وإذ ذاك يرسل فى استقدامهم ويسألهم « لماذا لا تقبلون ما يعرضه عليكم رجالى ؟ » فيجيبونه «لأنهم يقدمون لنا يا مولانا شيئاً ضئيلا جداً » فيقول « أنكم تحسنون صنعاً إذ تقبلون ما قُدِم لكم من اقتراحات وفق رغبات رجالنا » .

---

(١) هو سيمون كونت نيزل ، وكان أحد أوصياء المملكة أثناء قيام لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس .

(٢) هو جان الثانى المسمى بجان الطيب و Le Bèque كونت سواسون من ١٢٣٧ — ١٢٧٠ ، وكان ابن راءول كونت سواسون من زوجته الثانية جولاند جوانفيل وابن خالة جوانفيل صاحب هذه المذكرات .

(٣) هذه الكلمة واردة فى جونز ، ص ٣٦٣

ثم يحاول الرجل القديس أن يفض المنازعات بما يرضيهم ، ويسلك إزاءهم مسلكاً حكيما .

٥٩ - وطالما حدث أن ذهب بعد سماع قداسه وجلس فى غابة فنسن وأسند ظهره الى شجرة بلوط وأجلسنا حوله فيتحدث إليه كلٌ بما يشغل باله دون تدخل من أحد ما ، ويقول « هل عند أحد منكم شكاية ؟ » ، فيقف أصحاب الشكايات فيقول إذ ذاك : « ليلتزم الجميع الصمت ، وليتكلم كل بدوره واحداً بعد الآخر» ، ثم يستدعى سيدى بطرس لورد دى فونتين ، وجوفرى دى ڤيييه ويقول لأحدهما « فضّ لى هذه المشكلة » .

٦٠ — وكان إذا رأى اعوجاجاً فى قول من ينوبون عنه أو سواهم قوّم الاعوجاج بنفسه ، ولقد رأيته فى بعض الأحيان فى الصيف يذهب إلى حديقة باريس ليقضى بالعدل بين شعبه ، وليس عليه غير قميص من العبك ، وجلباب من الصوف بلا أكمام ، وملفحة من قماش أسود حول رقبته ، وقد أحسن تمشيط شعره ، وعلى رأسه قبعة من ريش الطاوس الأبيض ، ثم يأمر بفرش سجادة لنجلس معه . أما جميع أصحاب الحاجات فيقفون حوله ، ثم ينظر فى مشكلاتهم ، كما أخبرتك من قبل ، كما كان يفعل فى غابة فنسن .

رفضه طلب الأساقفة الجائر

٦١—ورأيته مرة أخرى فى باريس حيث سأله جميع أساقفة فرنسا أن يأذن لهم فى التحدث إليه ، فذهب إلى القصر الذى هم فيه ليستمع إليهم ، وكان من بين الحاضرين الأسقف جى دوسير d'Ausserre ابن سيدى وليم لورد ميللو ، الذى ناب عن بقية الأساقفة فى مخاطبة الملك قائلا له : « مولاى » إن

السادة الحاضرين هنا ـ من أساقفة ورؤساء أساقفة ـ عهدوا إلىّ بأن أخبرك بأن الملة المسيحية تتلاشى على يديك ، على حين أنه كان ينبغى أن تكون أنت حاميها وراعيها » ، فما كاد يسمع هذا القول حتى رسم الصليب على صدره وسأله : « خبرنى كيف كان ذلك ؟ » .

٦٢ — فقال جى دوسير « لم يعد الناس يامولاى يأبهون بقرارات الحرمان ولا يأخذونها مأخذ الجد ، حتى إنهم ليلقون الموت قبل أن يطلبوا من الكنيسة الغفران أو يحاولوا جلب مرضاتها عليهم . لذلك فإن هؤلاء السادة يسألونك — إرضاء للرب وتنفيذاً لما يقتضيه واجبك — أن تأمر نوابك وعمالك وقضاتك إذا صادفوا من انقضى عليه عام ويوم وهو محروم أن يكرهوه على طلب الغفران ، وذلك بالاستيلاء على كل ما يملك » .

٦٣ ـــ فأجابهم الملك إنه سيصدر هذه الأوامر عن طيب خاطر لو استطاعوا أن يثبتوا له خطيئة المحرومين من الغفران ، فردّ عليه الأساقفة بأنهم لا يرتضون هذا الشرط أبداً ولا يقبلونه ثمنا لتحقيق شكواهم ، فأنبأهم الملك أنه لن يفعل شيئا آخر يكون مثيراً لغضب الرب ومنافيا للعدل ، إن هو أجبر المحرومين على التماس المغفرة دون سماع دفاعهم عن أنفسهم ، فى الوقت الذى يخطىء فيه رجال الدين » .

٦٤ ـــ ثم قال لهم : « سأضرب لكم المثل على ذلك بكونت بريتانى الذى ظل سبع سنوات محروما من غفران الكنيسة ، وتظلّم من أساقفة بريتانى ودأب على الشكاية حتى انتهى الأمر أخيراً بأن أدانهم البابا ، فلو أننى صادرت أملاك كونت بريتانى فى نهاية السنة الأولى لأحمله على تبرئة نفسه لأجرمت حنيذاك فى حق الرب » .

وإذ ذاك انصرف الأساقفة ؛ ولم أسمع بعدئذ باتخاذ أية خطوة فى المسائل الآنف ذكرها .

إستقامة لويس

٦٥ — تم الصلح بينه وبين ملك انجلترا على غير رضا من أعضاء مجلس مشورته الذين قالوا له : «يبدو لنا يامولانا أنك ستضيع المناطق التى وهبتها إلى ملك انجلترا الذى ليس له حق فيها بعد أن فقدها أبوه شرعاً» ، فأجابهم الملك إنه عالم تمام العلم أن ليس لملك انجلترا الحق فى هذه الأرض ، ولكن هناك سبباً يدعوه لإعطائه إياها عن طيب خاطر ، ذلك أن « زوجتينا أختان وأبناءنا أبناء خئولة ، فمن الأوفق أن يسود السلم بيننا ، أضف إلى ذلك أنه يشرفنى كل الشرف أن يصبح ملك انجلترا — الذى عقدت السلم معه — تابعاً لى ، وهو وضع لم يكن من قبل » .

٦٦ — وتتجلى استقامة الملك فى حالة رينودى ترى Trie الذى أحضر ذات مرة إلى الرجل القديس كتابا يتضمن أن الملك منح ورثة كونتسة بولونيا التى توفيت أخيراً إقطاعاً هو كونتية دامارتان Damartin فى جديل، وكان الخاتم الملكى المهورة به الوثيقة مكسوراً لم يتبق منه غير نصف أرجل الصورة التى به ، والمسند الذى يريح الملك عليه قدميه، فأطلعنا الملك وأطلع جميع من كانوا بمجلسه على هذا الخاتم سائلا أن نسديه الرأى .

٦٧ — فأجمعنا الرأى على أنه غير ملزم بأن يعتبر الوثيقة صحيحة، وحينذاك أمر كاتم سره سير جون ساراسان أن يأتيه بوثيقة عينها له، فلما أخذها بين يديه قال لنا :

« أيها السادة ، هذا هو الخاتم الذى استعملته قبل ذهابى إلى الأرض المقدسة وتستطيعون أن تتحققوا بأنفسكم التشابه التام بين الرسم الذى على الخاتم المكسور والرسم الصحيح الموجود هنا ، ومن ثم فإن ضميرى يؤنبنى إذا أنا احتفظت بالكونتية المشار إليها » .

ثم استدعى إليه لورد رينو دى ترى وقال له : « إننى أرد إليك الكونتية » .

* * *

الكتاب الثانى

ميلاد القديس لويس وتتويجه

---

٦٨ ـ هنا يبدأ القسم الثانى من هذا الكتاب الذى أنبأتك من قبل أنك ستطالع فيه أعمال فروسيته الكبرى[١] .

لقد كتبنا آنفا — باسم الله القوى — جزء من أقوال ملكنا القديس لويس وتعاليمه الطيبة ليقف عليها من يستطيع القراءة منظمة مسلسلة ، وليكون الانتفاع بها أعم مما لو أنها أدرجت بين أعماله التى أشرع الآن فى تدوينها باسم الله وباسمه .

* * *

طالما سمعت أنه ولد[٢] يوم عيد القديس مرقص الرسولى الإنجيلى وذلك بعد عيد الفصح ، وفى هذا اليوم خرج الناس فى مواكب فى كثير من مناطق فرنسا رافعين الصلبان المسماة بالصلبان السوداء[٣] ، فكان هذا أشبه بنبوءة

---

(١) ابتداء من أول هذه الجملة فى هذه الكلمة غير وارد فى ويلى ولا فى الأصل الفرنسى الذى نشره ولكن فى جونز ، ص ٢٦٧ .

(٢) ولد يوم ٢٥ أبريل ١٢١٥ فى مدينة بواسى Poissy ، ويذكر جونز أنه لا يزال يوجد فى كنيستها وعاء من الحجر الرملى يقال إنه الوعاء الذى عمد فيه القديس لويس .

(٣) هو موكب يقام دائما يوم عيد القديس مرقص ، وهو موكب تعترف به الكنيسة =

بالجموع الكثيفة ممن كتب عليهم أن يموتوا فى الحربين الصليبيتين اللتين قام بهما الملك لويس، وأعنى بهما الحملة على مصر، والأخرى التى مات فيها هو ذاته وهى الحملة على تونس[1]، وقد ترتب عليها حزن طافح فى هذه الدنيا ومباهج جمة فى الجنة، إذ مات الصليبيون الصادقون فى هذين الحجين.

٧٠ — لقد توج أول أحد فى عيد البشارة[2]، وكان مستهل القداس الذى رتل فى هذا الأحد هو ad Te Levani animam وما جاء بعده، ومعنى هذا: « أيها الرب الرحيم، لقد دفعت قلبى وروحى إليك، وأضع ثقتى فيك[3] »؛ كما شب على الإيمان التام بالله منذ نعومة أظفاره حتى غيبه الردى، إذ كانت آخر كلماته — وقد حضرته الوفاة — أن هتف بالرب وقديسيه لا سيما القديس جاك والقديسة جنفييف.

٧١ — لذلك جازاه الرب برعايته إياه منذ أن كان فى المهد حتى وافاه أجله، وكانت رعاية الله إياه على الأخص أيام شبابه حيث كانت الحاجة شديدة إلى هذا الحفظ، كما ستسمع حالا.

كذلك يرجع الفضل أيضاً فى خلاص روحه إلى التعاليم الطيبة التى لقنته إياها أمه إذ ثبتت فى نفسه الإيمان بالله، ونشأته وهو فى صدر شبابه

= وتسميه عيد Litania major وقد بدأه البابا جريجورى الكبير ثم عرف باسم « الصليب الأسود »، إذ تغطى المذابح والصلبان بالسواد فى ذلك اليوم.

(١) فى الأصل « قرطاجنة » ويعنى بها تونس.

(٢) وذلك يوم ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦.

(٣) جاء بعد هذا فى جوانڤ « وبهذه الكلمات كان للملك ثقة كبرى فى المهمة التى نهض بها ».

على حبه والخوف منه [فعاش[1] منذ ذلك الحين حياة طاهرة مقدسة] ؛ وحملته أمه على أن يجمع حوله أهل الدّين الذين كانوا يلقنونه فى أيام الآحاد والأعياد كلمة الرب ، وكانت تأخذه فى طفولته بتلاوة كتاب الصلوات والإنصات إلى مواعظ الأعياد ، وكثيراً ماروى أن أمه طالما قالت إنها تؤثر موته على أن يرتكب إحدى الخطايا المهلكة .

٧٢ — كان لويس فى حاجة إلى معونة الرب له فى أيام شبابه ، إذ كانت أمه من اسبانيا — [وهى[2] بلد أجنبى] — وبقيت فى مملكة فرنسا دون أن يكون معها أحد من أهلها أو أصدقائها ، فلما رآه بارونات فرنسا طفلا وأمه غريبة الدار ليس لها من معين سوى الله فقد رأسوا عليهم كونت بولونيا[3] — عم الملك — واتخذوه مولى لهم يأتمرون بأمره .

وحدث بعد تتويج هذا الملك الصالح[4] أن عمد بعض بارونات فرنسا العظام إلى التمرد والعصيان ، فطلبوا من الملكة أن تعطيهم [الأراضى[5] التابعة للتاج الفرنسى] ، فأبت عليهم ذلك الطلب [متذرعة[6] بأنه لم يعد من شأنها

---

(١) هذه العبارة غير واردة فى ويللى .

(٢) الإضافة من جونز .

(٣) هو فيليب أخو لويس الثامن ، أما كونتية بولونيا Boulogne فقد ضمت إلى كونتيــة أرتوا Artois عام ١٢١٢ ، حيث وصلت إلى يدى الأمير لويس صاحب أرتوا ، وذلك حين تحالف فيصله كونت رينو مع الإنجليز .

(٤) كلمة غير واردة فى ويللى .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى جونز ، أما ويللى فجاء فيــه « الأراضى الكبرى grans terres » فقط .

(٦) غير واردة فى ويللى .

أن تتنازل عن أجزاء من مملكة فرنسا ضد مشيئة ولدها الذى توج]، ومن ثم اجتمع هؤلاء البارونات فى Corbeil كوربيل[1] .

٧٣—وقد أخبرنى الملك القديس أنه لم يجرؤ هو أو أمه — عندما كانا فى مونثيرى Monthery — على العودة إلى باريس حتى قدم سكانها [فى[2] قوة كبيرة] مسلحين لحراستهما فى عودتهما ، وأضاف إلى ذلك قوله إن الطريق بأكمله من مونثيرى إلى باريس كان غاصا من جانبيه بالمسلحين [وغير[3] المسلحين] الذين التمسوا من السيد الرب أن يطيل عمر الملك فى هناءة ، وأن يقيه شر أعدائه ، وهذا ما استجاب له الرب[4]، كما ستسمع فى ثنايا هذا التاريخ .

٧٤—انعقد إجماع البارونات فى هذا المجلس الذى عقدوه فى كوربيل على دفع الفارس الطيب بطرس كونت بريتانى[5] إلى الثورة على الملك ، ولكى تزداد

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٢٢٧.

(٢) غير واردة فى الأصل .

(٣) هذه العبارة واردة فى الأصل الفرنسى وكذلك فى ترجمة ويللى ، ولكنها ساقطة فى ترجمة م ، ص ١٥٤ وجونز ٣٦٩ .

(٤) أضاف جونز بعد ذلك قوله « فى أماكن كثيرة وأوقات مختلفة .

(٥) هو Pirre de Dreux وقد خرج عن طاعة الملك والولاء له ، أما فيما يتعلق بكونتية بريتانى فقد ظلت محافظة على حدودها منذ القرن الثالث عشر حتى العصر الحديث ، هذا وقد كانت تتألف من إمارة Goello ولامبل Lamballe ، وقد أعطاها أحد الآباء واسمه « كليرك » حوالى سنة ١٢٣٥ إلى ابنته يولانده حين زواجها من هيج دى لوزنيان ، وكذلك كونتية ليون وكونتية Porhoet

الخيانة ضد الملك الصالح فقد وعدوا كونت بريتانى أنهم سيلبون الأوامر الملكية ، فإذا ما بعث إليهم الملك لمحاربة الكونت فلن يستصحب أحد منهم أكثر من فارسين فقط كى يتيسر للكونت هزيمة الملك الصالح لويس وأمه التى كانت غريبة كما علمت من قبل .

أخذ البارونات فى تنفيذ هذه المؤامرة وفق الاتفاق الذى أبرموه مع كونت بريتانى ، ولقد سمعت الكثيرين يقولون إنه كان فى قدرة الكونت هزيمة الملك وأمه وإخضاعهما له ، لو لم يلاق لويس العون من الرب الذى لم يخذله أبداً .

٥٧ ـ وكأن العناية الإلهية قد دفعت تيبو Thibaut كونت شمبانيا ـ الذى صار فيما بعد ملك نفارة[1] — لأن يضع نفسه وقواته فى خدمة الملك الصالح فى هذا الوقت العصيب حيث الخطر محدق به ، فجاء فى ثلاثمائة فارس فى كامل سلاحهم وعدتهم ، ووصل فى الوقت الملائم .

ويرجع الفضل فى نجاح الملك إلى المساعدة التى أمده الله بها ، فقد تمكنت قوات كونت شمبانيا من إرغام كونت بريتانى على الاستسلام للملك والتماس رحمته به ، وسلم إليه كونتيتى أنجو وبيرش[2] .

---

(١) وقد اشترك تيبو فى الحملة التى قادها لويس على تونس فى يوليو .

(٢) تطلق كلمة Perche على اتحاد مؤلف من خمس بارونيات ظهرت فى مستهل القرن الحادى عشر من جراء زواج وليم جوت Jouet الأول صاحب مونتميرال من ماهوت Mahaut صاحبة برو Brou ، راجع فى ذلك Merlet : Dictionnaaire Topografique d' Eure -et- Loire.

ولم يكن للملك رغبة فى الانتقام ، وعد النصر الذى ناله من فضل الله عليه حين بعث إليه فى ساعة الحرج كونت شمبانيا ، ومن ثم فقد عفا عنه ، وإذ ذاك أخذ الملك يتنقل فى طمأنينة فى ربوع مملكته .

٧٦ — لما كانت هناك أحداث تجرى وتستحق الاهتمام فإننى مضطر أن أترك الموضوع الرئيسى لتاريخى للإشارة إليها .

ومن ثم فإنى مخبرك هنا أنه كان لكونت هنرى الكبير إبنان من الكونتس مارى — أخت[١] فيليب وريتشارد ملكى فرنسا وانجلترا — واسم أكبر هذين الابنين هنرى والآخر Thibaut ثيبو ، وقد حمل الابن الأكبر هنرى : الصليب ، وصحب الملك فيليب والملك ريتشارد فى الحملة الصليبية على الأراضى المقدسة حيث حاصروا عكا واستولوا عليها[٢] .

٧٧ — لم يكد يتم الاستيلاء على عكا حتى انقلب الملك فيليب على عقبيه إلى فرنسا : الأمر الذى اشتد لوم الناس له عليه ، على حين أقام الملك ريتشارد فى الأراضى المقدسة ونهض فيها بفعال جليلة جدا ضد الكافرين والمسلمين الذين بات الخوف الشديد يملأ قلوبهم منه ، حتى لقد ورد فى كتاب تاريخ هذه[٣] الحملة إلى الأرض المقدسة أن النسوة المسلمات كن يخفن أطفالهن إذا بكوا بقولهن لهم « صه ، صه ، ها هو الملك ريتشارد » ، فيلزم الأطفال الصمت خوفاً من اسم الملك ريتشارد ، وكانت جياد المسلمين إذا جفلت خائفة — من شجرة

(١) المقصود بفيليب : فيليب أوجستس جد الملك لويس التاسع .
(٢) كان ذلك فى ١٣ يوليو ١١٩١ .
(٣) يقصد بذلك ما ورد فى كتاب وليم الصورى عن تاريخ الإمبراطور هرقل فى Rec. Hist. Gr. (Occid.) III, 189 Seq ، أما النسخة الانجليزية فقد ترجمت العبارة بقولها « كتاب الأرض المقدسة » .

أو شبح — ضربها راكبوها بالمهاميز وصاحوا بها « أتظنون أن الملك ريتشارد هناك[1] » .

[وكل[2] هذه براهين جلية على أنه قام بأعمال حربية عظيمة ضد المسلمين أنزلت الخوف منه في قلوبهم] .

٧٨ — نال الملك ريتشارد هذا شهرة كبيرة لشجاعته، وزوّج ملكة بيت المقدس التي كانت وريثة مباشرة المملكة إلى هنرى كونت شمبانيا، الذى قلت من قبل إنه قد بقي معه، وقد ولدت له[3] ابنتين صارت كبراهما ملكة قبرص، أما الأخرى فقد تزوجها سيدى إيرارت دى برييِن الذى استولدها ذرية صالحة[4] كبيرة كما هو معروف في فرنسا وشمبانيا ، ولن أقول لك شيئاً الآن عن زوجة سيدى دى برييِن ، ولكن سأحدثك عن ملكة قبرص ، إذ أرى الصواب أن أتابع موضوعي .

مهاجمة البارونات لكونت تيبو

٧٩ — بعد أن تمكن الملك من التغلب على كونت بطرس دى بريتانى اشتد الغضب بجميع بارونات فرنسا على تيبو كونت شمبانيا ، حتى لقد أجمعوا

---

(١) وردت في ترجمة جونز ، ص ٣٧١ ، أن المراجع الغربية وكتابات مؤرخي الإنجليز عن سنة ١١٧٢ م قد خلت من الإشارة إلى ما هو ما ورد بالمتن عن تخويف المسلمين صغارهم بريتشارد ، وانظر المصادر التى رجع إليها المترجم هناك .

(٢) الإضافة من جونز ٣٧٢

(٣) أى للكونت هنرى .

(٤) غير واردة فى الترجمتين الإنجليزيتين .

الرأى فيما بينهم على أن يطلبوا من ملكة قبرص — وكانت حفيدة كونت شمبانيا من ابنه الأكبر — أن تحرم كونت تيبو من ميراثه ، وكان كونت تيبو حفيداً لكونت شمبانيا من ابنه الثانى .

٨٠ — غير أن هذه الخطة بدت لبعضهم أنها لن تجدى نفعا ، ورأى الآخرون أنها لن تحقق إربتهم ، فعمدوا إلى تهدئة ما بين كونت بطرس وكونت تيبو ، وأدت المفاوضات بين الجانبين إلى أن يتعهد كونت تيبو — رغبة منه فى توكيد السلم — بالزواج من ابنة بطرس كونت بريتانى ، وحددوا لعقد القران يوما تمضى فيه العروس الشابة إلى أحد أديرة الإخوان المبشرين قرب قلعة تييرى ، وأغلب ظنى أنهم يدعونه «ڤال سكريه» Val Sacreé ، ومن ثم فإن كونت بريتانى خرج — كما سمعت — محاطا ببارونات فرنسا الذين كان معظمهم من أقاربه — مع العروس ، ومضوا إلى الدير ، وبعثو فى استقدام كونت شمبانيا الذى كان إذ ذاك فى قلعة تيرى ليبنى بعروسه[1] [وفاء[2] بعهده الذى كان هو نفسه راغبا فى البر به] .

٨١ — لكن بينما كان كونت شمبانيا ماضياً لإتمام الزواج جاءه لورد جوفرى دى لاشابل نائباً عن الملك وحاملا[3] منه إليه رسالة يقول له

(١) يعنى بها إليكس ابنة هنرى الثانى كونت شمبانيا وإيزابلا وريثة أمورى الأول ملك بيت المقدس، هذا وقد أصبحت إليكس ملكة لقبرص من زواجها من هيج دى لوزنيان .

(٢) الإضافة من جوانز ٣٧٢ .

(٣) فى م « بخطاب اعتماد من الملك وقال له : سيدى اللورد كونت شمبانيا : لقد سمع الملك أنك اتفقت مع كونت بطرس على أن تتزوج بابنته ... »

فيها « أيها السيد تيبو كونت شمبانيا ، لقد علمت أمك عقدت اتفاقاً مع بطرس كونت بريتانى على الزواج بابنته ، وإننى لمرسل إليك هذا طالباً منك ألا تنفذ هذا الاتفاق إرضاء لجميع من تحبهم فى فرنسا ، وإنك لمدرك تمام الإدراك ما حدانى لأن أطلب إليك هذا الطلب ، ألا وهو أننى لم أجد أحداً قط يبز كونت بريتانى فيما تنطوى عليه نفسه من الرغبة الملحة فى إيذائى والإضرار بى » .

فلما[1] قرأ كونت تيبو هــذه الرسالة بحث الأمر مع الرسول وانكفأ راجعاً فى الحال إلى قلعة تيبرى .

٨٢ — فلما سمع كونت بطرس وبارونات فرنسا الذين كانوا فى انتظاره فى « ڤال سكوريه » بماجرى[2] اشتد بهم الغضب عليه شدة حملتهم على أن يرسلوا فى الحـال إلى ملـكة قبرص التى مالبثت أن جاءتهم وانضمت إليهم .

وما كادت الملـكة تحضر حتى ناقشوا الموضوع ، واتفقوا على أن يبعث كل منهم فى جمع أكبر عدد مستطاع من المحاربين لمهاجمة شمبانيا ، ولمـا كانوا على وفاق مع دوق برجنديا الذى كان متزوجاً من ابنة روبرت كونت درو ، فقد رضى الدوق بمهاجمة دوقية شمبانيا من ناحية برجنديا ، على أن يدخل بقية الأدواق برى Brie من ناحيــة فرنسا ، وضربوا فيما بينهم يوماً يجتمعون فيه أمام

---

(١) فى نسخة جونز ، « وبعدئذ عاد كونت شمبانيا إلى قلعة تيبرى نزولا على نصيحة أولئك الذين كانوا معه » .

(٢) زادت بعض النسخ قولهـا « وأدركوا أن كونت شمبانيا غرر بهم » .

مدينة تروى للاستيلاء عليها إذا أمكنهم ذلك ، غير[1] أن خبر هذه الاستعدادات بلغ مسامع الملك لويس فاستدعى من لديه من المحاربين وطلب إليهم مرافقته لنجدة ثيبوكونت شمبانيا .

٨٣ — جمع الدوق كل من استطاع جمعه من الناس والبارونات الذين راحوا فى الواقع يخرّبون ويضرمون النيران فى كل ناحية ساروا فيها ، وفعل فعلهم حليفهم دوق برجنديا (٢) .

فلما رأى كونت شمبانيا أن العدو يهاجمه هو ودوقيته من كل النواحى عمد إلى حرق وتدمير عدة مدن من مدنه مثل إبرني Epernay وفيرتس Vertus وسوزان ، حتى لا يجد مهاجموه فيها ذخيرة أو مذخراً يستفيدون منه فى محاربتهم إياه .

* * *

دفاع والد جوانفيل عن تروى .

والسلم بين الكونت وملكة قبرص .

٨٤ — فلما رأى أهل تروى أنهم فقدوا معونة سيدهم لهم بعثوا فى الحال إلى سيمون جوانفيل والد جوانفيل كاتب هذه المذكرات ، ملتمسين منه القدوم لنجدتهم ، فلبى (٣) هـذا الرجل الطيب رجاءهم ، وعلم رجاله فى الحال بالخبر الذى جاءه

---

(١) من هنا حتى آخر الخبر وارد فى م فقط .

(٢) فى نسخة م بعد هذا أن ملك فرنسا جاء من ناحية أخرى لمحاربتهم .

(٣) فى م « وجمع جوانفيل جميع رجاله من حملة السلاح وتحرك ليلا حينما وصلته الأنباء ، ووصلوا إلى تروى قبل انبلاج النهار » .

فما لبثوا أن اجتمعوا فى مدينة تروى قبل مضى يوم واحد وخرجوا من جوانفيل ليلا ، وجاء لورد جوانفيل بالأعاجيب فى مساعدة الأهالى ، وعجز البارونات عن أخذها فمروا بها دون قتال ، وساروا قدماً حتى عسكروا فى سهول إيل Isle حيث كان فى انتظارهم دوق برجنديا .

٨٥ — فلما علم ملك فرنسا بمكانهم زحف بجيشه رأساً لمحاربتهم، وإذ ترامى خبر ذلك الزحف إلى البارونات بعثوا إليـه ملتمسين منه الانسحاب بجيشه ، لأنهم ماضون لمحاربة كونت شمبانيا ودوق اللورين وبقية[1] رجال الملك فى قوة تقل عما لدى الـكونت والدوق بثلثمائة فارس.

فردّ عليهم الملك أنهم لايستطيعون محاربة فصيل من أفصاله دون أن يساهم هو ذاته فى الوقوف إلى جانبه[2] ، وسرعان ما أرسلوا رسولا مرة أخرى إلى الملك يقولون له إنهم راغبون - إذا وافق الملك - على حمل ملـكة قبرص على تقديم شروط الصلح إلى كونت تيبو دى شمبانيا ، فردّ عليهم الملك قائلا إنه لن يستمع إلى أية شروط صلح ، ولن يدع كونت شمبانيا يفعل ذلك إلا إذا هم غادروا دوقية شمبانيا .

٨٦ — فلما سمعوا مقالته بادروا إلى الانسحاب من إيل، وضربوا معسكرهم تحت أسوار مدينة «جويلى» ، على حين عسكر الملك عند « إيل » التى أجلاهم عنها ؛ فلما رأى البارونات أن الملك فى أعقابهم قوّضوا معسكرهم وضربوه فى شورس

---

(١) ساقطة فى م .

(٢) جاء بعد هذا فى «م» : «فبعث جوّاب الملك الاضطراب فى صفوف البارونات» ، أما فى جونز « لـكن الملك أخبرهم أنه لا ينبغى عليهم القتـال بدونه لأنه سيبقى مع رجاله بنفسه » .

ولم يجرءوا على انتظاره،ورحلوا الى مدينة لين Laignes التابعة لحليفهم كونت نيفير[1] Nevers الضالع معهم فى مشروعهم هذا ، واستطاع الملك أن يوفق بين ملكة قبرص وكونت شمبانيا [رغم[2] محاولة البارونات الفاشلة] ، وتم الصلح بين الاثنين على صورة مرضية اتفق بمقتضاها أن يقوم كونت شمبانيا بإعطاء ملكة قبرص ألفى دنيار سنوياً من دخل الأرض نظير حقوقها فى الولاية ، كما دفع لها الملك — نيابة عن الكونت — مبلغ أربعين ألف دينار[3] .

٨٧— ولكى يتمكن الكونت من رد هذا المبلغ وقدره أربعون ألف دينار إلى الملك فقد باع للملك الإقطاعيات التالية وهى :

إقطاعية دوقية بلوا[4] .

إقطاعية دوقية شارتر .

إقطاعية دوقية سانسير .

إقطاعية دوقية شاتودون .

---

(١) يلاحظ أن كونت نيفير كان تابعاً على الدوام لكونت شمبانيا ، ومع ذلك فقد وقف ضد مولاه كما هو وارد بالمتن .

(٢) الإضافة من جونز .

(٣) كان هذا لتغطية نفقات مصروفاتها .

(٤) كانت كونتية Blois فى العصور الوسطى واحدة من مجموعة من الكونتيات الصغيرة الهامة المذكورة بالمتن أعلاه، والتى كان التنازع عليها شديداً بين الملوك والأمراء، ومن هذه المجموعة أيضاً كونتية Chartres ، أما كونتية Sancerre فيتبين من النص أعلاه أنها أصبحت ملكا للملك فرنسا منذ سنة ١٢٣٤ ، ويلاحظ أن حدودها كانت غير ثابتة على الدوام، راجع d'Arbois:Catalogue des acies des Comtes de Champagne

وقال البعض إن الملك استولى على هذه الإقطاعيات رهناً حتى يتم الدفع ، فكان ذلك زعماً باطلا ، لأنى سألت الملك عن هذه المسألة أثناء وجودنا بفلسطين فأخبرنى أنه استولى عليها شراءً .

٨٨— أما الأراضى التى تخلى عنها كونت شمبانيا إلى ملكة قبرص فكانت جزءً من إقطاعية بيريين Brienne[١] الحالية ودوقية جوانى Joignv ، لأن جدة كونت دى بريين كانت ابنة ملكة قبرص وزوجة الكونت الكبير جوتييه[٢] دى بريين .

٨٩—ولكى تعرف كيف جاءت هذه الإقطاعات التى باعها كونت شمبانيا إلى الملك ، فإنى منبئك أنه كان للكونت ثيبو[٣] — الملقب بالكبير والمدفون فى لاجنى — ثلاثة أبناء أكبرهم اسمه هنرى ، وثانيهم ثيبو ، وثالثهم اتيين[٤] .

وقد أصبح هنرى ، فيما بعد كونت شمبانيا وبرى معا ، ولقب بهنرى العظيم لأنه كان كريماً تجاه الرب والخلق .

أما فيما يتعلق بكرمه تجاه الرب فيتجلى فى إنشائه كنيسة سانت استيفن

---

(١) كانت كونتية بريين Brienne تؤلف جزءا من كونتية شمبانيا ، راجع نفس المرجع السابق ، أما فيما يتعلق بكونتية جوانى Joigny التى استمد منها جوانڤيل اسمه فهى أيضاً تابعة لشمبانيا .

(٢) هو جوتييه الرابع كونت دى بريين ويافا ، وقد تزوج الأميرة مارى ابنة اليكس ملكة قبرص .

(٣) هو المعروف بثيبو ، الذى عاش من سنة ١١٠٢ إلى ١١٥٢ .

(٤) الواقع أن اسمه « ستيفان » أو «ستيفن» و ليس « اتيين » راجع رقم ٩٢ .

فى تروى وغيرها من الكنائس الجميلة التى أقامها فى شمبانيا[1] .

أما فيما يتعلق بكرمه تجاه الخلق فقد تجلى ذلك فى مسلكه إزاء أرتو[2] دى نوجنت ، وغير ذلك من الأمثلة العدة ، غير أننى يجب أن أذكر قصة أرتو بالذات .

٩٠ — كان أرتو يتمتع أكثر من جميع مواطنيه بمحبة الكونت هنرى ، وازدادت ثروة أرتو حتى بنى قلعة نوجنت ، وحدث فى يوم أحد الزعف أن نزل الكونت هنرى من قلاعه فى تروى ليسمع القداس فى كنيسة القديس ستيفن ، فتلقاه على درجها فارس فقير راكعاً على ركبتيه يهتف به بصوت عال : « سيدى الكونت ، إننى ألتمس منك باسم الله أن تصلنى بشىء مما أنعم الله به عليك ، كى أستطيع إتمام مراسيم زواج ابنتىّ اللتين تراهما هنا » .

٩١ — فما كان من أرتو دى نوجنت الذى كان خلف الكونت إلا أن أجاب الفارس الفقير بقوله : « سيدى الفارس ، لقد أخطأت إذ رحت تقدم هذا الالتماس إلى سيدى الكونت ، لأنه قد أعطى كثيراً حتى لم يعد معه ثم ما يجود به » .

فلما سمع الكونت العظيم ذلك القول استدار على عقبيه ، والتفت إلى أرتو وقال : « أيها السيد ، لقد كذبت حين زعمت أننى لم أعد قادراً على العطاء ، فأنت رهن إشارتى ، وإننى لأهبك لهذا الفارس » ثم التفت إلى الفارس وقال له : « والآن ياسيدى الفارس أهبك هذا الرجل ، وأجعله فى رقك » .

---

(١) جاء فى نسخة جونز ، ما يلى بعدئذ : « وكان يغدق عليها جميعاً فى كل يوم كثيراً من الهدايا كما هو معروف جيداً فى جميع أرجاء شمبانيا » .

(٢) واسمه Artaud du Nogent .

فاستولت الدهشة الكبرى على الفارس الفقير ، وأمسك فى الحال بالمواطن من جزة رأسه ، وقال إنه لن يدعه من بين يديه حتى يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، فاضطر أرتو لدفع غرامة قدرها خمسمائة دينار .

٩٢ــ أما الأخ الثانى لهنرى المسماح فاسمه تيبو كونت دى بلوا، وأما الثالث فاسمه ستيفن كونت دى سانسير . غير أن هذين الأخوين كانا يتوليان أقاليمهما تحت إشراف أخيهما الأكبر هنرى العظيم ، ثم من بعده تحت إشراف ورثته الذين آلت إليهم دوقية شمبانيا ، حتى جاء كونت تيبو هذا فباعها إلى ملك فرنسا [القديس لويس] كما أشرت آنفا .

* * *

عقد محكمة فى سومير ١٢٤١

٩٣ ــ والآن لنعد إلى موضوعنا الأصلى فنذكر أنه بعد فترة قصيرة من هذا الحادث عقد الملك لويس اجتماعا كبيراً عاما فى سومور بأنجو(٢) وكنت حاضره ، وأشهد أنه أروع منظر رأيته فى حياتى ، وأعظم مشهد بولغ فى تنميقه وتهيئته ، فقد جلس إلى المائدة التى يجلس عليها الملك ــ بعده ــ كل من كونت

---

(١) كانت كونتية Anjou من الكونتيات التى اغتصبها فيليب أغسطس ملك انجلترا ، كما اغتصب فى نفس السنة (وهى سنة ١٢٠٣) كونتية Le Maine ، وقد آلت فيما بعد إلى ملك فرنسا حيث نجد أنها أصبحت فى سنة ١٢٢٥ ملكا لجان ثالث أبناء الملك لويس الثامن ، وقد صدر مرسوم سنة ١٢٤٦ بأيلولتها إلى شارل أصغر إخوة الملك لويس التاسع الذى سيرد ذكره فى ثنايا حملة المنصورة الصليبية .

دى بواتييه[1] الذى كان الملك قد جعله فارساً فى آخر يوم من أيام الاحتفال بعيد القديس يوحنا ، وبعده الكونت جون دى درو الذى جعله الملك هو الآخر فارساً حديثاً ، ومن بعده كونت دى لامارش وكونت بطرس دى بريتانى .

وكانت هناك مائدة أخرى قبالة مائدة الملك على الجانب الذى يجلس عليه كونت دى درو Dreux ،وقد جلس إليها ملك نافارا يتناول غذاءه ، وارتدى أغلى مالديه من الثياب المطرزة بالذهب، وعليه سترة وعباءة وقبعة من الذهب الرائع ، وكنت أنا أوزع الطعام أمامهم.

٩٤— وجلس أمام الملك أخوه كونت دارتوا[2]،وكان كونت دى سواسون يقطع اللحم ويوزع الطعام .

---

(١) هو ألفونس أخو الملك لويس التاسع الذى صحبه فيما بعد فى حملته على المنصورة ولقى مصرعه بها،وفى هذا اليوم الذى نصبه أخوه فارساً أعطاه كونتية بواتييه التى وهبها لويس الثامن إلى ثالث أبنائه ، وكانت هذه الكونتية تنقسم إلى قسمين هما سنكالية بواتييه وسنكالية سنتون Saintonge .

(٢) هو الكونت روبرت الأول ، الذى أصبح فارساً منذ سنة ١٢٣٧ ، ومما يلاحظ فى تاريخ فرنسا السياسى خلو جغرافيتها السياسية ـ قبل مستهل القرن الثالث عشر ـ من لفظ « ارتوا » ، والمرجح أن فيليب الإلزاسى كونت فلاندرز قد وهبها مهراً لابنة أخيه إيزابلا Isabella de Hainaut أول زوجة لفيليب أوجست ، فلما جاء ابنها لويس الثامن خلعها على ابنه روبرت المذكور بالمتن،راجع Nain de Tillemont : Histoire de Saint Louis, t. I, p. 16 ومنذ ذلك الحين ضمت إليها بعض كونتيات أخرى أمثال بولونيا وجين Guines وسنت بول .

أما حراسة مائدة الملك فقد وكلت إلى سير همبرت دى بيجو[1] الذى صار فيما بعد كونستابل فرنسا ، وإلى سير انجراند دى كوسى[2] وسير أرشيبولد دى بوربون[3] .

ووقف خلف هؤلاء البارونات الثلاثة : ثلاثون فارساً من فرسانهم فى ملابسهم الحريرية للقيام بخدمة من هم دونه ، كما وقف خلف هؤلاء الفرسان جمع كبير من العسكر المزودين بالسلاح الذى عليه رنك كونت دى بواتييه ، وكان الملك مرتديا رداء من القطيفة الزرقاء ، ومعطفاً وعباءة من القطيفة الحمراء ، عليها فراء كفراء الرهبان ، وعلى رأسه قلنسوة من القطن بدت كريهة لعدم ملاءمتها لرأسه الذى كان إذ ذاك رأس شاب .

٩٥ — أقام الملك هذه الوليمة فى قاعة سومور التى بناها — كما يقولون — هنرى العظيم ملك انجلترا ليقيم فيها احتفالاته ، وكانت هذه القاعة قد بنيت

---

(١) كانت إمارة Beaujeu هى الأصل الذى نشأت عنه فيما بعد منطقة Beaujolais ، ومن النظم الإقطاعية الملحوظة فى هذه الإمارة أن متوليها كان فصلا لكونت فوريز ، أما الإمارة نفسها فكانت تابعة تبعية مباشرة للملك ، راجع : Inventaire des Titres de la maison de Bourbon, t. I, pp. 22, 105 and 116.

(٢) كانت إمارة Coucy تتألف من منطقتين جغرافيتين هما كوسى الأصلية ولا فير La Fère

(٣) فيما يتعلق بإمارة Bourbon فى القرون الوسطى يلاحظ أنها كانت فى منتصف القرن الثالث عشر تابعة لكونت أوفون ، ثم إنه كان لصاحبها أفصال يتبعونه مباشرة فى هذا الوقت بالذات .

على نمط أديرة جماعة الرهبان البيض من طائفة السستريان ، ولا أظن أن فى العالم قاعة تضاهيها فى الضخامة ، وسأخبرك سر اعتقادى هـذا ، ذلك أنه كان يوجد إلى جانب الناحية التى يتناول الملك فيهـا طعامه حيث يحوطه فرسانه وعسكره الذين يشغلون ساحة كبيرة — أقول كانت إلى جانب هذا قاعة طعام أخرى لإطعام عشرين أسقفا ورئيس أساقفة ، وإلى جوارهم كانت تجلس الملـكة بلانش أم الملـك لتناول الطعام عنـد طرف الدير فى الجانب الآخر المقابل للملك .

٩٦ — وكان يقوم على خدمة الملـكة كونت دى بولونيا الذى أصبح فيما بعد ملك البرتغال ، وكونت هيج دى سنت بول ، وشاب ألمانى فى الثامنة عشرة من عمره يقال إنه ابن القديسة إليزابث ثورينجيا ، ولهذا السبب يقال إن الملـكة بلانش كانت تقبله من جبهته ، وهذا مظهر من مظاهر العبادة لأنها كانت تظن أن أمه لابد أن قبلته من هذه الجبهة كثيراً .

٩٧— وفى نهاية هذا الرواق - على الجانب الآخر - توجد المطابخ وحجرات التخزين والـكرار ومخازن الأكل ، وكانت اللحوم والخمر والخبز توزع على الملك والملـكة من هذه الأماكن .

وكان الفرسان يأكلون بالجناحين والوسط ، وكان عددهم كبيراً لا أستطيع حصره ، وقال الـكثيرون إنهم لم يروا أبداً فى أى احتفال مثل ما فى هذا الحفل من كثرة الملابس والعبي والثياب المطرزة بالذهب والفضة ، وقيل أيضاً إن المجتمعين إذ ذاك كانوا لا يقلون عن ثلاثة آلاف شخص .

٩٨ — بعد هذا الحفل أخذ الملك كونت دى بواتييه إلى بواتييه ليسترد إقطاعياته[1]، وقد حدث أن أراد الملك ـ حين وصوله إلى بواتييه ـ العودة إلى باريس لأنه وجد أن الكونت دى لامارتن[2] الذى كان قد شاطر الملك طعامه يوم الاحتفال بعيد القديس يوحنا قد حشد جمعا كثيفا من المسلمين فمن استطاع جمعهم فى لوزينيان القريبة من مقاطعة بواتييه .

أقام الملك فى بواتييه مدة خمسة عشر يوما لم يستطع الانتقال أثناءها، حتى عقد كونت دى بواتييه صلحا مع كونت دى لامارش ، ولا أعرف كيف كان ذلك .

٩٩ — وكثيراً ما رأيت كونت دى لامارش قادماً من لوزينيان للتحدث إلى الملك فى بواتييه ، وكثيراً ما كان يُحضر معه زوجته ملكة[3] انجلترا التى كانت أم ملك انجلترا ، وقال الكثيرون إن الملك وكونت دى بواتييه قد عقدا صلحاً كريها مع كونت دى لامارتن .

---

(١) يقصد جوانفيل بذلك أن الكونت دى بواتييه عاد إلى إقطاعياته ليؤدب أفصاله الذين خرجوا عن طاعته .

(٢) هو هيج العاشر المعروف باسم Le Brun ويلاحظ أن نسخة م أشارت إلى أن كونت دى لامارتن وملك انجلترا قد دبرا الهجوم ، على حين أن نسخة ويلى خلت من الإشارة إلى ملك أنجلترا ، راجع Hist. de Joinville, ed. de Wailly p. 57.

(٣) هى إيزابلا أرملة جان المفلس وأم هنرى الثالث ، وكانت قد تزوجت مرة ثانية عام ١٢١٧ من هنرى العاشر .

١٠٠ — لم ينقض غير أمد قصير على عودة الملك من بواتييه إلى باريس حتى نهض ملك انجلترا إلى غاسقونيا لمحاربة ملك فرنسا ، فأخذ ملكنا القديس فى الاستعداد للقتال ، بجمعه أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين، وذهب إلى هناك[1] ملك انجلترا وكونت دى لامارش، واستعدا للحرب أمام قلعة تيلبورج الواقعة على نهر شديد الخطورة يسمى بنهر شارنت، لا يستطيع أحد عبوره إلا على جسر صخرى شديد الضيق .

١٠١ — لم يكد ملك انجلترا يصل إلى تيلبورج وتأتى الجيوش : جيشا فى إثر آخر حتى قام رجالنا — وكانت فى يدهم القلعة — فأقدموا على خطر جسيم، فعبر بعضهم النهر على ذلك الجسر ، وركب آخرون القوارب لعبوره وأغاروا على الإنجليز ، وبدأ القتال قويا عنيفا ، فلما رأى الملك شدة القتال اندفع بنفسه وبرجاله للمعركة ، وانطوى عمله هذا على الخطر العظيم لأن الإنجليز كانوا أكثر من رجاله عشرين[2] مرة .

ومع ذلك فقد تقدم الملك كما أراد الرب ، حتى إن الانجليز — حين رأوا الملك قد عبر النهر — هلعت قلوبهم ولاذوا بأذيال الفرار ، واتجهوا إلى مدينة سانتس Saintes التى دخلوها ، فدخلها فى أعقابهم كثير من رجالنا وراحوا أسرى .

١٠٢ — ولقد علم بعض رجالنا الذين أسروا فى سانتس أنهم سمعوا فى تلك الليلة ما حدث من شقاق كبير بين ملك انجلترا وكونت دى لامارش فى سانتس ،

---

(١) يعنى بذلك غاسقونيا .

(٢) فى بعض النسخ « مائة مرة »

وأن ملك انجلترا قال إن كونت دى لا مارش بعث إليـه مدعيا أنه[1] واجد مساعدة كثيرة من فرنسا .

وفى هذه الليلة رحل ملك انجلتر من سانتس ذاهباً إلى غسقونيا .

. . .

استسلام كونت دى لامارش

١٠٣ — أدرك كونت دى لا مارش أنه غير مستطيع معالجة الموقف ، ومن ثم فقد وضع نفسه فى سجن الملك ، وأخذ معه زوجته وأبناءه ، ولهذا السبب أخذ الملك منه — فى سبيل الصلح — كثيراً من أراضيه ، ولست أعرف عددها لأننى لم أكن حاضرا ساعة توقيع الاتفاق ، ولم أكن قد ارتديت[2] بعد سترة القتال ، غير أننى سمعت أن الكونت دى لامارش أعطى الملك — بالإضافة إلى الأراضى — مبلغاً قـدره عشرة آلاف جنيه باريسى كانت له فى خزانة الملك ، كما تعهد أيضاً بدفع مثل هذا المبلغ سنويا .

١٠٤ — وحينما كنا فى بواتييه رأيت فارساً اسمه جوفرى دى دانسون كان كونت دى لامارش قد ارتكب فى حقه خطأ كبيراً ، فأقسم - رانكون - كما يقولون — على الآثار المقدسة ألا يحلق رأسه كما يحلقها الفرسان ، بل سيرسل شعره ضفائر كما تفعل النساء ، حتى ينتقم هو أو غيره لنفسه من كونت دى لامارش .

---

(١) أى الملك .

(٢) كناية عن أنه لم يصبح بعد تابعاً إقطاعيا للملك لويس .

فلما رآى رانسون الكونت وزوجته وأبناءه راكعين أمام الملك يسترحمونه ، بعث رانكون فى طلب مساند خشبية ، وجزّ غدائر شعره ، وبادر فى الحال إلى المثول فى حضرة الملك حيث كونت دى لامارش والحاضرون .

١٠٥ — ولقد أخبرنى من عادوا من تلك الحملة التى قام بها الملك ضد ملك انجلترا والبارونات أن لويس وزع كثيراً من الهدايا العظيمة ، لكن لم يحدث أبداً أن طلب الملك أو أخذ نظير هذه الهدايا أو المصاريف التى تكلفها فى هذه الحملة أو سواها سواء خارج حدوده أم داخلها ، أقول لم يحدث أبداً أن طلب أو أخذ نظير ذلك أية مساعدة مالية من باروناته أو من فرنسا أو رجاله أو مدنه بصورة جعلت واحداً من هؤلاء يجأر بالشكوى .

ولا عجب فى ذلك لأنه كان يسترشد فى سلوكه بنصيحة أمه الطيبة التى كانت معه والتى كان يأخذ برأيها ، كما كان يسترشد بمشورة الفضلاء من الرجال الذين لا زالوا حوله منذ زمن أبيه وجده .

. . .

مرض لويس ١٢٤٤

١٠٦ — لم يلبث الملك طويلا بعد هذا الحادث أن مرض بباريس مرضاً خطيراً ، وساءت حاله سوءاً شديداً أشرف فيه معه على الموت ، حتى إننى سمعت أنّ إحدى السيدات اللائى كن يمرّضنه ظنت ذات مرة أنه قد قضى نحبه فأرادت تغطية وجهه بغطاء ، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من الفراش ، لم تحتمل رؤية هذا المنظر فقالت إنه لا يزال حيا .

١٠٧ — وبينما كانت هاتان السيدتان فى جدلهما حوله نفخ الله فيه من روحه، وأنطقه بعد سكون، وبث فيه القدرة على الـكلام، فطلب إليهما أن تأتياه بالصليب ففعلتا ما طلب، فلما سمعت [السيدة الطيبة] [الملـكة [1]] أمه أنه استرد القدرة على الـكلام ازدهاها السرور الشديد ثم جاءت إليه، فلما أبصرت الصليب على صدره اعتراها الألم البالغ، وتعالى نحيبها كأنما قد رأته ميتا .

١٠٨ — وفعل فعله فى أخذ الصليب إخوته الثلاثة روبرت كونت دارتواء، وألفونس كونت بواتييه، وشارل كونت دانجو الذى صار فيما بعد ملك صقلية .

كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا، ووليم كونت فلاندرز أخو جى كونت فلاندرز [2] المتوفى حديثاً، والـكونت الباسل هيج دى سانت بول، وابن أخيه جوشيه الذى أبدع فى الحملات إبداعاً دل على أنه مسعر حرب وابن كريهة، ولو عاش لدوّى ذكره فى الآفاق .

---

(١) واردة فى نسخة ويلى .

(٢) تعتبر كونتية Fl andres من الـكونتيات التى أخذت فى التضخم فى العصور الوسطى، فقد كانت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر تشمل ما يعرف الآن بغرب بلجيكا والقسم الشمالى الأقصى من فرنسا على حساب الملـكية الإقطاعية، ويستدل من اتفاقية ١٢٥٧ المبرمة بين أبناء الـكونتيسة مرجريت أن كونتية فلاندرز كانت تمتد جنوباً حتى تبلغ أرض الإمبراطورية، إذ كان لها فيها مقاطعات كريفكير وآرلو Arleux، راجع فى ذلك :

Warnkonig : Histoire des la Flandre (trad. Fr.), t. I, p. 374 söq.

١٠٩ــ كذلك كان من بين هؤلاء كونت دى لامارش الذى أشرتُ إليه آنفاً ، وابنه هيج لى برون Brun ، وكونت ساربروك ، وأخوه جوبرت دابرمونت اللذان ركبت البحر فى صحبتهما ــ أناجون لورد جوانفيل ــ ، وقد ركبت معهما فى سفينة استأجرناها لأننا جميعاً أبناء عم ، ومضينا مع عشرين فارساً ، منهم عشرة معى وعشرة مع أبناء عمى .

• • •

جوانفيل يرحل مع الحملة الصليبية

١١٠ــ وفى عيد فصح ١٢٤٨ استدعيت إلى جوانفيل جميع رجالى وأفصالى فجاءونى ليلة العيد ، حيث ولد ابنى جان أمير انسفيل Anceville من زوجتى الأولى أخت كونت جرانبريه .

وأمضينا هذا الأسبوع بأكمله نلهو ونرقص ، وقام أخى فوكولير Vaucouleurs وغيره من أثرياء الناحية بإقامة المآدب واحدة بعد أخرى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس [١] .

١١١ــ فلما كان يوم الجمعة خطبت فيهم قائلا : «أيها السادة، إنكم لتعلمون أنى على وشك السفر إلى ماوراء الحدود ، ولست أدرى إن كان مقدراً لى أن أعود أم لا ، فإن يكن بينكم من أسأت إليه من قبل فليتقدم الآن كى أسترضيه ، وإن يكن لأحد شكوى منى أو من رجالى فليذكرها كى نعالجها» ، ثم نظرت

(١) فى جونز « وبعد الفراغ من الطعام والشراب أخـذنا نتلهى بالأغانى وقضينا فترة هانئة » .

فى مطالبهم واحداً بعد آخر ، وانسحبت من مجلسهم هذا كى لا يكون لحضورى مناقشاتهم تأثير على أحد ما ، ونزلت على قراراتهم دون أدنى معارضة منى .

١١٢ — ولما كنت كارهاً أن أحمل معى شيئاً من المال ولو دانقاً واحداً يكون قد جاء عن طريق غير مشروع ، فقد ذهبت إلى ميتز بمنطقة اللورين ، ورهنت الجانب الأكبر من أرضى(١).

وأحب أن تعلم أنه لم يكن معى يوم رحيلى عن وطنى إلى الأراضى المقدسة أكثر من ألف(٢) دينار من دخل أرضى السنوى ، لأن سيدتى(٣) الوالدة كانت لا تزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد استصحبت معى تسعة من الفرسان ، وكنت ثالث ثلاثة من حاملى الرايات(٤) .

ولقد ذكرت لك هذه الأشياء كلها لتدرك أنه لولا معونة الرب الذى لم ينسنى قط لما كنت قادراً أبداً على احتمال مثل هذا العبء الذى احتملته مدة السنوات الست التى قضيتها فى الأرض المقدسة .

١١٣ — وبينما كنت على وشك الرحيل أرسل إلىّ جون لورد أبريمونت وكونت ساربروك عن طريق زوجته يخبرنى أنه(٥) قد رتب أموره للرحيل إلى

---

(١) فى جونز أنه رهن الأراضى عند بعض أصدقائه .

(٢) فى جونز « ألف ومائتا دينار » ، لكن راجع فيما بعد رقم ١٣٦

(٣) راجع المقدمة .

(٤) سيرد فيما بعد أنه كان أحد فرسان أربعة من حملة الرايات .

(٥) اعتبر جونز أن جون لورد أبريمونت وسار بروك شخصان ، على حين أن الذى يريده جوانفيل هو أن جون كان صاحب بريمونت وفى الوقت ذاته كان كونت =

الأراضي المقدسة ، وأنه استصحب معه عشرة فرسان ، واقترح - إن رضيت - أن نستأجر فيما بيني وبينه سفينة لنقلنا إلى وجهتنا ، فقبلت العرض مرحباً به ، واستأجر رجاله ورجالي سفينة في مرسيليا(١) .

. . .

كاهن يقتل ثلاثة جنود

١١٤ — استدعى الملك إليه بباريس(٢) جميع البارونات وطلب إليهم تجديد اليمين والطاعة له والولاء لأطفاله فيما لو جرى له مكروه خلال حملته في الأرض المقدسة ، واستدعاني أنا الآخر أيضاً إليه ، ولكنني لم أقسم(٣) له اليمين لأنني لم أكن إذ ذاك تابعاً له(٤) .

١١٥— وبينما كنت في طريقي إلى باريس وجدت ثلاثة رجال مسجون على عربة وقد قتلهم أحد رجال الدين ، وعلمت أن القوم ماضون بهم إلى الملك ، فلما سمعت ذلك أرسلت واحداً من أتباعي ليعرف الخبر ، فأنبأني أن الملك خرج من

= ساربروك بفضل زواجه من سيدة اسمها Laurette ، ولذلك جاء قوله: Jehans sires d'Apermont et eueus de Salebruche de par sa femme, envoia a may .... que il avoit sa besoigne areé pour aler autre mer.

(١) Matlhew de Paris, Hist. des Croisades Occid., t. IV, p.24.

(٢) جاء في نسخة جونز بعد هذا « قبيل مغادرته المملكة » .

(٣) راجع المقدمة بشأن تبعية جوانفيل الفصلية .

(٤) في جونز بعد هذا « أضف إلى هذا أنه لم يكن في نيتي التخلف عن الركب » .

كنيسته وذهب إلى الباب ليرى القتلى ، واستفسر من مدير باريس عن كيفية حدوث هذا الأمر .

١١٦ — فأنبأه المدير أن القتلى الثلاثة من جنوده فى شاتيليه، وأنهم كانوا قد خرجوا إلى الشوارع لسلب الناس، وذكر للملك «أنهم وجدوا هذا الرجل وليس عليه من شىء سوى قميصه، فذهبوا إلى منزله وأخذوا فرسه وأمروا طفلا وجدوه هناك أن يأتيهم بسيفه القصير ، فلما رآهم الرجل ثانية صاح بهم وقال لا بد من موتهم، ثم سحب قوسه وسدده نحوهم ورمى به أحدهم فى قلبه ففر الآخران ، ثم أخذ الكاتب القوس من يدى الصبى وتتبعهم فى ضوء القمر الساطع .

١١٧ — «ورآى أحد الهاربين أن يثب من سور إلى داخل إحدى الحدائق، فرماه الكاتب بسهم أصاب رجله فكسرها عند الحذاء كما ترى .

«ثم تتبع الكاتب الرجل الثالث الذى رأى الاحتماء ببيت غريب كان أهله لا يزالون يقظانين ، ولكن الكاتب فوّق إليه سهما شقّ رأسه عند أسنانه كما ترى .

«ولقد أطلع الكاتب الجيران — يامولاى — فى الشارع على مافعل : ثم جاء وقدم نفسه عن طواعية ليكون نزيل سجنك ، ولقد أحضرته لك يامولاى لتنظر فى أمره وتأمر بما ترى ، وها هو ذا » .

١١٨ — فقال الملك للكاتب: «أيها السيد الكاهن، لقد خسرت كهونتك ببطشك ، وإننى من أجل قوتك أضمّك إلى خدمتى وستذهب معى فى حملتى الخارجية ، وإننى أفعل ذلك معك لأنى أحبّ أن يعرف رجالى تمام المعرفة أننى لا أحميهم إن كانوا شريرين » .

فلما سمع من كانوا حاضرين هذا القول هتفوا بخلصنا ، ودعوا الله أن يسعد الملك بالعمر الطويل ، وأن يرده فرحاً سالماً .

. . .

جوانفيل يترك قلعته

١١٩ — عدت بعدئذ إلى مقاطعتى واتفقت أنا وكونت ساربروك أن نرسل حوائجنا فى العربات إلى «أوسون Aus onne» لتحمل من هناك فى السفن فى نهر الساءون ، ثم إلى آرل عن طريق الساءون والرون .

١٢٠ — فلما كان يوم رحيلى من جوانفيل بعثت فى استدعاء راهب شمينون Cheminon الذى كان مبشرا إذ ذاك من أعظم الرهبان البيض ، وقد سمعت هذه الشهادة فى حقه من فم راهب آخر قالها فى حضرة الملك القديس فى كليرفو يوم عيد سيدتنا ، وقد رآنى هذا الراهب وسألنى إن كنت أعرفه ، فاستفسرت منه عن علة سؤاله إياى هذا السؤال ، فأجابنى لأنه يظن أنه أعظم الرهبان البيض فى الدنيا بأجمعها .

١٢١ — ثم قال : واعلم أيضا أن ما أرويه لك قد قصه ثقة ممن ينامون فى نفس قلاية رئيس شمينون ، فقد عرّى صدره بسبب الحر الشديد ، وفعل مثله أيضا ذلك الرجل الثقـة الذى يشاركه النوم فى نفس القلاية ، فأبصر أم الرب تذهب إلى فراش رئيس الدير ، وتغطّى صدره بثوبه حتى لاتؤذيه الريح » .

* * *

١٢٢ — أعطانى رئيس رهبان شمينون تلفيعتى وحوائج الحج ، وإذ ذاك رحلت من

جوانفيل راجلا غير منتعل وليس عليّ من ثيابي غير قميص ، وذهبت إلى بليسكورت Blicourt وسنت أربان وغيرها من الأماكن الأثرية المجاورة .

وآليت على نفسي ألاّ أدير بصري نحو جوانفيل حتى لا يأسى القلب على ترك مثل هذه القلعة الجميلة ، وحتى لا يتفطّر على فراق لولديّ الاثنين .

١٢٣ — وتناولت طعامي أنا ورفاقي هذا اليوم في «نبع الأسقف» أمام دونجو Donjeaux ، وهناك قام أسقف سنت أربان — عليه رحمة الرب — فأعطاني وأعطى فرساني التسعة كثيرا من المجوهرات الثمينة .

ثم رحلنا إلى أكسون حيث ركبنا بسلاحنا سفينة مخرت بنا نهر الساءون حتى بلغت ليون ، وأخذنا بعضا من جياد الحرب التي سارت موازية للقوارب .

١٢٤ — وحين بلغنا ليون ركبنا نهر الرون للذهاب إلى آرل لى بلانك، ووجدنا على الرون أطلال قلعة يسمونها قلعة جلون Rocche- de- Glun كان الملك قد أمر بهدمها بسبب تعرّض صاحبها — المسمّى روجر — للحجاج والتجار ، وسلبهم ما معهم .

* * *

تحرك الصليبيين في أغسطس ١٢٤٨

١٢٥ — فلما كان شهر أغسطس ركبنا سفننا عند قلعة مرسيليا، وفي يوم ركوبنا إياها فتحوا بابها ووصفوا بها كل جيادنا التي كان لا بد من أن نستصحبها معنا في رحلتنا ، ثم أغلقوا الباب غلقا محكما وسدوا ما بين ثقوبه بالقار سدًّا متينا

كما لو كانوا يفعلون بدنّ خمر أدلوا به فى الماء ، ذلك لأن باب السفينة بأجمعه يكون غاطساً فى الماء حين تصبح فى عرض البحر .

١٢٦ — ولما صارت الجياد فى السفينة صاح كبير ملاّحينا ببحارته الذين كانوا واقفين عند مقدمتها ، وسألهم : « هل أنتم مستعدون ؟» ، فأجابوه : « نعم أيها السيد ، وادع الآن الكهنة والقسس للتقدم » .

وما كاد هؤلاء يأتون حتى هتف بهم كبير الملاحين : « رتلوا باسم الرب » .

فأنشدوا جميعا فى صوت واحد « Veri Creator Spiritus » تعال أيها الروح الخالق» ، فصاح كبير الملاحين بملاحيه : « أنشروا القلاع باسم الله » ، ففعلوا ما أمرهم .

١٢٧ — وسرعان ما هبت الريح وأخذت تدفع القلاع ، وغاب عنا منظر الأرض ، ولم يعد يطالعنا سوى السماء والبحر ، وكانت الريح تبعدنا كل يوم أكثر عن الأرض التى ولدنا بها .

وإننى أقصّ عليك نبأ هذه الأخبار لتدرك تماماً حمق المرء الذى يحتجن ما ليس له ، أو يقدم على ارتكاب المعصية ، ثم ينام بالسفينة وهو لا يدرى إن كان يتنفس الصباح عنه وهو على ظهرها ، أم وهو مغيب فى قاع البحر .

١٢٨ — وقد جرت لنا عجيبة نادرة بالبحر ، ذلك أننا مررنا بجبل تام الاستدارة أمام ساحل بلاد المغرب ، وكان مرورنا أمامه حوالى وقت صلاة الغروب ، وظلت سفينتنا مبحرة طول ليلها ، وظننا أننا بعدنا عنه بما يقرب من خمسين

فرسخاً ، فلما كان الصباح ألفينا أنفسنا لا نزال أمام نفس الجبل ، وقد حدث هذا الأمر لنا مرتين أو ثلاث مرات ؛ فلما رأى البحارة ذلك استولت الدهشة عليهم جميعاً ، وأنبأونا أننا كنا فى خطر داهم ، إذ كنا على مقربة من بلاد مسلمى المغرب .

١٢٩ ـــ حينذاك تكلم قسيس طيب محترم يدعى موروبت Maurupt ، وأخبرنا أنه لم تحدث مضرة ما فى أبرشيته كالحاجة إلى الماء أو شدة انهمار المطر أو غير ذلك من الضربات ، لأنه أقام القداس ثلاث مرات فى ثلاثة سبوت ، فأنقذنا الرب وأمه ، فلما جاء يوم السبت أقمنا القداس الأول حول صاريتى السفينة ، وقد حضرت القداس محمولاً على أذرع الرجال لوعكة شديدة أصابتنى ، ومن ثم لم نعد نرى الجبل ، فلما كان السبت الثالث بلغنا جزيرة قبرص .

• • •

وفادة التتار ودخول جوانفيل خدمة الملك .

١٣٠ ـ حين وصلنا قبرص ألفينا الملك بها ، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة ، وأعنى بها ما نحتاجه من المثونة والطعام والمخازن ، وكانت حوائج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر ، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك ، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى ، فإذا ما نظرت إليها من بعـــد خيّل إليك أنها بيوت كبيرة .

١٣١ ـــ وكدّسوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول ، فإذا نظرت إليها خيّل

إليك أنك ترى جبالاً ، ذلك لأن الأمطار التى طال سقوطها عليها جعلتها تتفتح فتبدو جوانبها لمطالعيها كأنها الحشائش الخضراء ، فلما عمدوا إلى أخذ مايحتاجونه منها فى مصر ، قطعوا الطبقة العليا المعشوشبة ، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين ، كما لو كانا قد جمعا منذ أمد قريب .

١٣٢ — وكان الملك – كما سمعت فى سورية – يتوق للرحيل إلى مصر دون تريث ، لولا موقف أمرائه الذين أشاروا عليه بالانتظار حتى يصل إليه من لم يأت بعد من رجاله .

١٣٣ — وبينما كان الملك مقيما فى قبرص[١] أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسولان[٢] من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة[٣] ، وكان من بين ماذكره ملك

---

(١) وذلك فى ديسمبر ١٢٤٨ م .

(٢) فى الأصل « رسلا » .

(٣) ربما احتاجت صلات التتار بالصليبيين الى قليل من الشرح ، ففى سنة ١٢٣٢م قضى المغول على الدولة الخوارزمية ، وشعر الحشاشون فى «ألموت» ببلاد الشام بمدى الخطر الذى يهددهم ، فأرسلوا سفارة من لدنهم الى أوربة الغربية لطلب المساعدة ، ثم أخذت الأمور تتعقد فى أوربة من جراء تفكير الامبراطور فردريك فى غزو الأملاك البابوية فى إيطاليا ، وحينذاك أخذت فكرة مجىء منتصر من الشرق تعم أوربة ، وبدأ التفكير فى حملة صليبية للقضاء على القوة الإسلامية Langlois: La vie en France au moyen age II, p. 44-56) ، ولقد عمد البابا إنوسنت الرابع فى سنة ١٢٤٥ الى إرسال سفارتين الى منغوليا لبلاط الإيلخان ، كانت احداها برياسة الأخ الفرنسيسكانى Pian del Carpine ، التى وصلت بعد رحلة ١٥ شهرا الى قراقورم فى أغسطس ١٢٤٦ ، فى الوقت الذى اختير فيه Guyuk إيلخانا وكان بلاطه غاصا بجماعة من النساطرة ، لكن ذلك لم يزحزحه عن فكرته فى أن يعترف أمراء الغرب بسلطانه عليهم ، إلا أن هذا الاتجاه منه لم يحمل البابا على اليأس من الاستعانة بالمغول ، فأنفذ سفارة ثانية برئاسة الأخ الدومنيكانى =

التتار استعداده لمعاونة الملك فى غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين .

١٣٤ — ولقد بالغ الملك فى إكرام وفادة الرسل، وأنفذ بالتالى سفارة من لدنه إلى ملك التتار عادت بعد عامين ، وأرسل معهم إليه خيمة على هيئة كنيسة، وهى خيمة غالية لأنها مصنوعة بأكلها من القماش القرمزى الجميل الرائع ، وأراد الملك أن يرى ما إذا كان فى قدرته اجتذاب أولئك التتار للإيمان بديننا ، فأمر بنقش الخيمة بصور تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح ، وجميع أسس عقيدتنا ؛ وأرسل الملك هـذه الأشياء جميعها بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان لغة[1] التتار ، ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان .

= اسلين Ascelin اللمباردى الذى التقى فى تبريز بالقائد التتارى بيتشو Baichu الذى أبدى استعدادا للتحالف ضد الأيوبيين ، وأرسل معـه اثنين من بلاطه يؤكدان للبابوية ماتطمع فيه .

أما الرسل الذين يشير إليهم جوانڤيل فقد كانوا فى الواقع اثنين فقط أحدهما يدعى « مارك » والآخر « داود » ، كما أنهما لم يكونا من قبل الايلخان بل من ناحية نائبه بالموصل ، لـكن الرسائل التى كانا يحملانها كانت تفيض بما يبث الأمل الحلو فى نفس لويس الذى رد عليه بسفارة دومنيكانية برياسة « أندرو » وأخ له ، وقد وصلت هذه السفارة « لتجد » جويوك « قد مات وقامت مكانه رملة أغل قيمتس بالوصاية ، ولقد برهنت أغل هذه على اعتدادها بنفسها ، حيث اعتبرت هذه السفارة رمزاً لتبعية الملك لويس الإقطاعية للمغول .

(١) راجع ما يلى رقم ٤٧٢ — ٤٩٢ ، على حين أن Runciman ; History of the Grusades, Vol. III, p, 260. يذكر أنهما كانا يعرفان العربية .

١٣٥ — وقد عاد هذان الأخوان إلى الملك وقت أن كان إخوة الملك قد رجعوا إلى فرنسا ، ووجدا أن الملك الذى كان قد غادر عكا حيث رحل عنه إخوته قد وصل إلى قيصرية لتحصينها ، ولم يكن بينه وبين المسلمين حينذاك هدنة أو سلام ، وسأروى فى مكان آخر كيف كان استقبال التتار لرسل الملك كما قصوها بأنفسهم على الملك ، وستسمع فيما نقلاه الشىء العجيب المدهش ، لكننى لن أذكر شيئاً من ذلك الآن ، لأن ذلك يحملنى على أن أقطع ما بدأت بذكره .

١٣٦ — أما أنا الذى لم أكن أملك غير ألف دينار سنوياً من دخل أرضى فقد أخذت على عاتقى — حين أزمعت ركوب البحر — أن أتكفل بإعاشة تسعة من الفرسان واثنين من حملة السناجق ، وحدث حين وصلت إلى قبرص أن لم تعد عندى فضلة من المال ـ بعد دفع أجر السفينة ـ غير مائتين وأربعين ديناراً ، وحينذاك أنبأنى فرسانى أننى إذا لم أجهز نفسى بالمال اللازم فإنهم سينصرفون عنى ؛ بيد أن الرب ـ الذى لم يخذلنى قط هيأ لى ما احتاجه ، حيث أرسل إلىّ الملك ـ وكان حينذاك فى نيقوسيا ـ واستخدمنى عنده ، ووضع فى خزانتى ثمانى مائة دينار ، وبذلك أصبح فى يدى من المال أكثر مما كنت أحتاج إليه .

• • •

وصول امبراطورة القسطنطينية إلى قبرص

— ١٣٧ — بينما كنا لا نزال مقيمين فى قبرص بعثت إلىّ امبراطورة القسطنطينية[1]

---

(١) هى مارى ابنة جان دى بريين صاحب عكا وزوجة بلدوين الثانى ، راجع :

Stevenson, Crusaders in the East.

كلمة تنبئني فيها بوصولها الى ألباف ـ إحدى مدن قبرص ـ ، وتأمرنى أن أذهب إلى هناك فى طلبها أنا وسيدى افرارد صاحب برين .

فلما بلغنا ألباف أخبرنا القوم أن ريحا عنيفة هبت فقطعت حبال المرساة التى تربط سفينتها[1] ودفعتها نحو عكا، ولم يبق من متاعها كله سوى عباءتها وميدعتها التى ترتديها أثناء تناول الطعام ، فأخذنا الملكة إلى ليماسول حيث استقبلت أحسن استقبال من الملك والملكة ومن جميع بارونات فرنسا وكذلك من الجيش .

١٣٨ — وفى الصباح بعثتُ لها بشئ من القماش لتصنع منه ثوباً لها ومعه فراء القاقم الثمين، كما أرسلت اليها بعض « التفتاه »[2]، وحدث أن التقى سيدى فيلب دى نانثيل الفارس المعلم الذى كان فى خدمة الملك بخادمى وحامل ترسى وهو فى طريقه إلى الامبراطورة ، فلما رأى هذا السيد الجليل ماهو جار انطلق الى الملك مخبراً إياه أننى أخجلت الملك والبارونات أشدّ الخجل بإرسال تلك الثياب الى الإمبراطورة ، بينما هم لم يدركوا ماهى فى حاجة اليه .

١٣٩ — وكانت الإمبراطورة قد حضرت تطلب من الملك مدّ يد المعونة لزوجها الذى خلفته فى القسطنطينية[3] وأنها قد حضرت لهذا الغرض ، فرجعت ومعها أكثر من مائتى رسالة منى ومن سواى من أصدقائها ، وقد أقسمنا فى هـــذه الرسائل أغلظ الأيمان أن نذهب إلى هناك إن رغب الملك أو النائب بإرسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية عقب عودته من رحلته .

---

(١) أى سفينة الملكة .

(٢) Heyd : Hist. du Conmerce,

(٣) الواقع أن مجيئها كان لطلب النجدة ضد امبراطور نيقية البيزنطى .

١٤٠ — ولكى أفى بيمينى طلبت من الملك وقت أن حان ميعاد عودتنا إلى فرنسا — وفى حضرة كونت أيو Eu الذى أحمل كتابه — أن يأذن لى بالذهاب إلى القسطنطينية — وفاء بعهدى — إذا قبل إرسال ثلاثمائة فارس إليها ، فأجابنى الملك بأنه لم يعرف بماذا يجيب ، وأن خزائنه قد أوشكت على الإفلاس رغم أنها كانت عامرة بالمال من قبل(١) .

وبعد أن بلغنا مصر رحلت الإمبراطورة إلى فرنسا مستصحبة معها أخاها حنا دى برين صاحب عكا ، الذى زوّجته إلى كونتس دى مونتفورت .

• • •

سلاطين الروم وأرمنيا ومصر

١٤١ — حينما جئنا إلى قبرص كان سلطان الروم أغنى ملوك المسلمين ، وقد جاء بأمر بالغ الدهشة اذ أذاب جانباً كبيراً من ذهبه فى جرار فخارية كتلك التى يستعملها أهل تلك البلاد لحفظ النبيذ ، سعة كل منها ما بين ثلاثة وأربعة أرطال ، ثم أمر بكسر الجرار لتبقى السبائك الذهبية ظاهرة للعيان فى قلاعه ، فيستطيع كل من يدخل القصر رؤيتها ومسها ، وكان هناك من هذه السبائك ما لا يقل عن ست أو سبع سبائك .

---

(١) أشار رنسمان History of the Grusades, III, p. 261 الى أن لويس كان يميل الى استجابة رجاء الإمبراطورة مارى دى برين ، إلا أنه صارحها بأن السيوف أحجى بأن توجه أولا الى المسلمين .

١٤٢ — وكان فى الاستطاعة رؤية ثروته الضخمة من فسطاط كان ملك أرمينيا قد أرسله إلى ملك فرنسا ، ويبلغ ثمنه قرابة خمسمائة دينار ، وأخبر ملك أرمينيا ملك فرنسا أن تابعاً من أتباع سلطان قونية قد أعطاه اياه . أما التابع فهو التابع المسئول عن فسطاط الملك ، والموكل إليه حفظ بيوته نظيفة .

١٤٣ — أما ملك أرمينيا فقد أراد أن ينقذ نفسه من الخضوع لسلطان الروم ، ومن ثم مضى إلى ملك التتار واستسلم له ليضمن مساعدته إياه ، ورجع بعدد من المحاربين الذين استطاع بهم لمحاربة سلطان الروم ، وقد استمرت المعركة مدة طويلة ، وتمكن التتار من قتل الكثيرين من رجال السلطان الذين لم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً ما .

ونظراً لشهرة هذه الوقعة التى كان لها صدى عظيم فى قبرص فقد ذهب بعض رجالنا إلى أرمينيا ليجمعوا بين المساهمة فى القتال والمشاركة فى الأسلاب ، غير أنه لم يقدّر لأحد منهم أن يعود إلينا .

١٤٤ — أما سلطان مصر فقد توقع وصول الملك فى فصل الربيع إليها ، وكان يظن أنه قادر — قبل ذلك الوقت — على هزيمة خصمه اللدود أمير حمص ، ومن ثم مضى لمحاصرة مدينة حمص التى رأى أميرها أن قد سُدّت أمامه جميع سبل الخلاص من سلطان مصر ، وأدرك أنه لو طال الأجل بالأخير فلابد من أن يقضى عليه ، لذلك عمد إلى الاتفاق مع أحد خدم السلطان على قتله ، فدسّ له السم .

١٤٥ — أما الطريقة التى سُمّ بها سلطان مصر فتتلخص فى أن الخادم كان عالماً

بوقت وصول السلطان يومياً بعد تناوله الغذاء للعب الشطرنج ، وأنه اعتاد الجلوس على السجاد المبسوط عند أقدام فراشه ، فعمد إلى رش السم على البساط الذى أَلِفَ السلطان الجلوس عليه ، وكان السلطان حافى القدمين ، فاتكأ على جرح فى ساقه ، وسرعان ما سرى السم فى الجرح ، واستنزف كل قوى الجانب الذى سرى فيه ، وبلغ السم القلب ، فبقى صاحبه عاجزاً عن الشرب والأكل والكلام ، وبذلك بقى أمير حمص فى هدوئه ينعم بالسلام ، أما أهل مصر فقد حملوا سلطانهم إليها .

. . . .

مغادرة الجيش لقبرص ١٢٤٩

١٤٦ — ما كاد يهل شهر مارس حتى أصدر الملك أمره إلى البارونات وغيرهم من الحجاج بوجوب إعداد السفن وإعادة شحنها بالخمر والمئونة لتكون على أتم أهبة للرحيل حين يشير الملك بالرحيل ، فلما رأى لويس أن كل شيء تمّ على ما ينبغى استعد للسفر هو والملكة يوم الجمعة السابق لعيد العنصرة [١] ، وأمر باروناته أن يسيروا فى إثره ويبحروا رأساً إلى مصر ، فكانت سفرته يوم السبت وبصحبته الجميع ، وما كان أبدع منظر البحر وهو يبدو للعيان — على امتداد البصر — مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة .

---

(١) وذلك يوم ٢١ مايو ١٢٤٩ .

١٤٧ — أرسى الملك بسفينته عند رابية صغيرة تعرف برأس ليماسول حولها بقية السفن ، ووطأ الملك الأرض يوم عيد العنصرة .

ولما فرغنا من سماع القداس هبّت من ناحية مصر ريح عنيفة قاسية، بلغ من عنفها أنه لم يبق من فرسان الملك الألفين والثمانمائة [1] سوى سبعمائة فقط ، هم الذين عجزت الريح عن فصلهم عنه أو دفعهم إلى عكا أو سواها من البلاد القريبة ، وإن ظلوا بعيدين عن الملك أمداً طويلا .

١٤٨ — سكنت الريح فى اليوم التالى لعيد العنصرة، وحينذاك أبحر الملك ونحن معه وفقاً لمشيئة الرب ، وصادفنا أمير المورة ودوق برجنديا الذى كان يتجول فى إقليم المورة .

فلما كان يوم الخميس التالى لعيد العنصرة وصل الملك أمام دمياط ، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى سامعيها .

١٤٩ — دعى [2] الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله، لاسيما وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث ، فلم تجد هذه المشورة رضا من الملك ولم تصادف عنده قبولاً ، وحجته فى رفضه رأيهم هى أن كل تأخر من جهتهم يقوّى ساعد العدو لاسيما

---

(١) يقرر أبو الفدا أن جيش الملك الصليبى كله كان مؤلفا من ٥٩٠٠٠ مقاتل .

(٢) كانت دعوته إياهم على ظهر سفينته Montjoie الحربية .

وأنه لا توجد ميناء قبل دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيها رجاله، وعلى ذلك فإن أية ريح قوية تهب قد تدفع السفن [الفرنسية] إلى بلاد أخرى، كما حدث يوم عيد العنصرة .

• • •

التأهب للرسو بمصر

١٥٠ — اتفق الرأى على أن يطأ الملك أرض البلاد يوم الجمعة السابق لعيد الثالوث ، وأن يحارب المسلمين إذا قاوموه ، وأصدر الملك أمره إلى جون لورد بيمونت أن يخصص سفينة صغيرة لى ولإيفرار دى بريين لنزولنا نحن ومن معنا من الفرسان ، لعدم استطاعة السفن الكبيرة مصاقبة الساحل .

١٥١ — وشاء الله أن أجد — حينما عدت إلى سفينتى — مركباً صغيراً قد تنازلت لى عنه سيدتى ليدى بيروت ابنة عمى وابنة عم لورد مونتبليارد، فوضعت بهذا المركب ثمانية من جيادى .

ولما جاء يوم الجمعة ذهبت أنا ولورد إيفرار فى كامل سلاحنا إلى الملك ، وسألناه عن السفينة الصغيرة حيث أن جون بيمونت أنبأنا أنه لا يجوز لنا استعمالها .

١٥٢ — فلما رأى رجالنا أنهم لا يستطيعون النزول فى المركب تركوا السفينة الكبيرة إلى الزورق الموجود بها، وتكاثروا فيه كثرة شرع إزاءها الزورق فى الغرق، فلما رأى الملاحون القارب على وشك الغرق غادروه إلى السفينة الكبيرة وتركوا فرساننا بالقارب ، فسألت الملاح عن عدد الرجال الزائدين الذين كانوا فيه ،

فأجابنى بأنهم عشرون من المسلحين ، فسألته عما إذا كان يستطيع أخذ رجالنا إلى الساحل إذا أنقصت هـذا العدد فردّ على بالإيجاب ، ومن ثم أخذت فى إنقاصهم ، وجعلتهم على ثلاث دفعات حملهم إلى السفينة الـكبيرة التى عليها جيادى .

١٥٣ — وبينما كنت أشرف على ترحيل هؤلاء الرجال إذا بفارس من فرسان إيفرار لورد بريين واسمه بلونـكيه ، ظن أن الخير له فى مغادرة السفينة الـكبيرة إلى الزورق ، ولـكن الزورق كان قد ابتعد وسقط بلونـكيه فى الماء وابتلعه اليم .

١٥٤ — ولما رجعت إلى سفينتى وضعت فى زورقى الصغير خادما نصبْتُه فارسا اسمه هيج فوكولير واثنين أعز بين شجاعين ، أحدهما فيلليني دى فِرْسى والآخر وليم دامارتان ، وكان كل منهما يضمر أشد الـكراهية للآخر ، ولم يكن أحد قادرا على إقرار الصلح بينهما ، لأن كلا منهما أمسك الآخر من شعره فى المورة ، فاستطعت أن أحمل كلا منهما على مسامحة زميله ونسيان كراهيته له ، وتعانقا إذْ أقسمت لهما على الآثار المقدسة ألا نرسو على الأرض وهما متخاصمان .

١٥٥ — حينذاك رسونا على الشاطىء وحاذينا الصندل الموجود بجانب سفينة الملك الـكبرى حيث كان الملك ذاته موجوداً بها ، وشرع رجاله فى الصياح بنا لأننا كنا مسرعين أكثر منهم ، رغبة منى فى أن أرسو تحت راية القديس دنيس التى كانت محمولة فى مركب آخر أمام الملك ، بيد أننى لم أكترث لصياحهم ، وحملت رجالى على الرسوّ أمام كتيبة كبيرة من الترك حيث كان منهم ستة آلاف رجل على متون خيولهم .

١٥٦ — لم يكد هؤلاء القوم يروننا حتى شرعوا فى التقدم نحونا وهم يهمزون جيادهم همزاً عنيفاً ، فلما رأيناهم مقدمين علينا ثبتنا أسنة دروعنا فى الرمال وكذلك مقابض رماحنا ، وأشرعنا ذبابها نحوهم ، فلما صاروا جد قريبين منا ورأوا الرماح توشك أن تخترق بطونهم ولّوا مدبرين .

. . . .

رسو الصليبيين أمام المسلمين

١٥٧ — بعث إلىّ بلدوين دى ريمز — وهو الرجل المستقيم الطيب حين أرسى بحامل رمحه — يسألنى أن أنتظر قدومه ، فأجبته أننى فى انتظاره عن طيب خاطر ، إذ لا مشاحة فى أن الواجب كان يقتضينى أن أنتظر رجلاً مستقيما طيبا مثله ، لاسيما وأنه كان يحبونى على الدوام بعطفه .

وقدم علينا بلدوين دى ريمز فى ألف من الفرسان ، وعليك ياقارئى أن تثق بأننى أرسيت وليس عندى حامل ترس أو فارس أو خادم أحضرته معى من مقاطعتى ، ومع ذلك فإن الرب لم ينسنى من مثل هؤلاء .

١٥٨ — وأرسى على يسارنا كونت[١] يافا ابن عم كونت مونت بليارد وهو من أسرة جوانفيل ، وقد أرسى فى أفخم أبهة ، لأن سفينته كانت بديعة التكوين من الداخل والخارج ، وعليها رنكه الذهبى المحلى بصليب محفور . وكان بسفينته ما لا يقل عن ثلاثمائة مجذف ، لكل منهم درقة عليها أسلحة الكونت وريشة مصبوبة من الذهب .

---

(١) هو جان ايبلين صاحب بيروت وكونت يافا ، ويتصل نسبه بأسرة جوانفيل من ناحية الأم .

١٥٩ — وكان يخيّل للناظر — والكونت قادم — أن سفينته تطير ، وذلك لشدة دفع الجذّفين لها بمجاذيفهم ، كما كان يخيل للرائى أن أضواء علوية تنسكب فى السماء كلما طرق سمعه صوت خفق البيارق ودقات الكوسات والطبول والأبواق الإسلامية الموجودة فى سفينته .

وما كادت سفينته تصل إلى أقرب نقطة مستطاعة من الرمل حتى قفز هو وفرسانه إلى الساحل ، وقد لبسوا خير الدروع ، وأحسنوا التسلحّ ، ورتّبوا صفوفهم إلى جوارنا .

١٦٠ — ولقد نسيت أن أقص عليك أن كونت يافا أمر — حالما أرسى — بنصب خيامه ودهاليزه ، التى ما كاد المسلمون يطالعونها حتى أقبلوا جميعاً وتجمعوا أمامنا ، ثم عادوا يهمزون جيادهم كما لو كانوا يتأهبون للكرّ علينا ، فلما رأوا ثباتنا فى موقفنا ولّونا ظهورهم وعادوا ثانية من حيث جاءوا .

١٦١ — كانت السفينة التى تحمل شعار القديس دنيس راسية على يميننا مسافة رمية سهم ، وكان هناك رجل مسلم حاول — وقت رسوّها — أن يخترق صفوف الفرنسيين ، إما لأنه عجز عن كبح شكيمة جواده ، أو لأنه ظن أن بقية المسلمين سيندفعون فى إثره ، بيد أنه مُزِّق شرَّ ممزّق .

• • •

لويس يحتل دمياط

١٦٢ — حينما سمع الملك أن راية القديس دنيس على الشاطئ سار مسرعاً بسفينته ، ولم يصغ سمعاً إلى القس الذى كان معه ، بل قفز إلى الماء الذى بلغ إبطيه ، ومضى على هذا النحو معلقاً درعه فى رقبته وخوذته على رأسه ،

ورمحه فى يده حتى وصل إلى رجاله الواقفين على الشـــاطىء ، فلما بلغ الساحل ورأى المسلمين سأل عمن يكونون فقيل له « جماعة المسلمين » ، فما كاد يسمع ذلك حتى وضع رمحه على كتفه وحمل درعه أمامه ، وهمّ بالـكرّ عليهم لو لم يبادر رجاله إلى منعه من ذلك .

١٦٣ — استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك، لـكنهم لم يتلقوا جواباً ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه ، فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط ، فأنفذ الملك فارساً من لدنه ليتحقق من مغادرتهم إياها ، فعاد الفارس إلى الملك مؤكداً له خلوّها من أهلها ، وقال إنه جاس خلال بيوتها .

حينذاك بعث الملك إلى المندوب البابوى وإلى جميع من بالجيش من الأساقفة ، ورتلوا جميعاً فى صوت مرتفع الأنشودة القائلة : لك المجد أيها الرب Te Deum laudamus ، وبعد برهة امتطى الملك جواده ، وحذونا كلنا حذوه ، وذهبنا فعسكرنا أمام مدينة دمياط .

١٦٤ — وقد ارتكب الترك أكبر الخطأ بمغادرتهم دمياط، فقطعوا جسراً من القوارب كان هناك مما كان أكبر عائق لنا ، وكبّدونا خسارة جمة بإشعالهم النار فى سوق المدينة الذى كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وكانت الخســـارة التى نجمت عن هذا العمل كبيرة ، لا تعادلها — لا قدّر الله — سوى أن يقوم أحدهم بإشعال النار فى الجسر الصغير بباريس .

١٦٥ — والآن لنعلن حمدنا لله القوىّ الذى كان عطوفاً علينا أشدّ العطف

إذ حفظنا من الموت ونجانا من الخطر المحيق بنا حين رسونا ، فقد وصلنا الشاطىء مترجلين وقاومنا عدونا وهم على خيولهم ، كذلك تعطف الله علينا حين مكننا من الاستيلاء على دمياط ، وإلا ما كان لنا أن نستولى عليها إلا بالمجاعة ، إذ عن طريقها وحدها تمكن الملك يوحنا [1] من أخذها زمن آبائنا .

غلطة لويس وفوضى الصليبيين

١٦٦ — يستطيع الرب أن يقول عنا ما قاله عن أبناء اسرائيل : «نسوا الله مخلصهم . . . ورذلوا الأرض الشهية ولم يؤمنوا بكلمته» ، فما الذى يقوله عنا أكثر من هذا القول ؟ يقول إنهم نسوا الرب ، وكذلك نحن نسيناه كما سأقص ذلك عليك حالا .

١٦٧ — لكننى سأبدأ بأن أذكر لك أن الملك دعا إليه باروناته وكتابه العلمانيين ، وسألهم أن يعينوه فى كيفية توزيع الغنيمة التى استولوا عليها من المدينة ، فكان البطرك أول المتكلمين فقال «مولاى أحسب الخير فى أن تحتفظ بالحنطة والشعير والأرز وكل مايقتات به وذلك لتستطيع تموين المدينة ، وأن تبعث من ينادى فى الجيش بأن يحمل ماسوى ذلك من البضائع إلى المستودعات ، وإلا حق عليهم حرمان الكنيسة » ، فصادق جميع البارونات على قول البطرك ، فلما تم ذلك كانت قيمة جميع البضائع التى أودعت فى المخازن لا تتجاوز ستة آلاف دينار .

---

(١) يقصد بذلك جان دى برين ملك بيت المقدس الذى اشترك فى الحملة الصليبية الخامسة الزاحفة على دمياط عام ١٢١٩ ، لكنه كان قد تخلى عن الحملة لشدة النزاع بينه وبين بيلاجيوس المندوب البابوى والمنظمات الحربية والإيطالية المساهمة فى هذه الحملة راجع فى تفصيل ذلك : Paderborn : Capture of Damietta .

١٦٨ — ولما تم ذلك استدعى الملك والبارونات جون صاحب Valery التقى وقال له « يالورد فاليرى ، لقد اتفقنا على أن يسلمك القاصد الرسولى مبلغ الستة آلاف دينار ، لتقوم بتوزيعها كما يتراءى لك أنه أحسن الطرق» ، فأجابه الرجل التقى « ياسيدى إنك تشرفنى كل التشريف ، وإنى لشاكر لك كل الشكر ، ولكنى أتوسل اليك يا سيدى إعفائى من هذا الشرف لعجزى عن تنفيذ رغبتك ، لأننى بذلك ألغى عادات الأرض المقدسة الطيبة ، حيث اتفق على أن يكون من نصيب الملك ثلث الغنائم التى يستولى عليها من مدن العدو التى تقع فى يده ، وأن يأخذ الحجاج الثلثين الباقيين» .

١٦٩ — «وقد راعى الملك يوحنا هذه القاعدة حين استولى على دمياط، ويخبرنا السلف أن هذه القاعدة روعيت أيضا من قِبل ملوك بيت المقدس الذين كانوا قَبل الملك يوحنا ، فإن رضيت بأن تسلمنى ثلثى القمح والشعير والأرز وبقية الذخائر أخذت على عاتقى — راضياً — مهمة توزيعها على الحجاج » .

فلم يقبل الملك الرضوخ لهذه المشورة ، ومن ثم ظلت الأمور على ما هى عليه، واستاء الكثيرون من أن الملك قد خلّى جانباً التقاليد الكريمة القديمة .

١٧٠ — أما جماعة الملك الذين يقال إن يدهم أطلقت فيما لديهم فقد استبقوا التجار عندهم ، وأرغموهم على شرائها بأغلى ثمن مستطاع ليبيعوها فى حوانيتهم، وسرت هذه الإشاعة فى كل مكان وتجاوزتها إلى البلدان الأجنبية، فكف أكثر التجار عن القدوم إلى الجيش وتزويده بالمئونة .

أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بمالهم للتصرف فيه فى الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة ، وأفرطوا إفراطا جماً فى تقديم اللحوم .

١٧١ — أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات ، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر — أن عزل الملك الكثيرين من رجاله، فلما سألته عن الدافع الذى حمله على ذلك أنبأنى أنه وجد — بالتأكيد — أن الذين عزلهم قد أقاموا أماكن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطه، وأن ذلك العمل منهم كان فى الوقت الذى كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم .

مهاجمة المصريين للمعسكر وموت ولتر أوتريخ

١٧٢ — والآن لنرجع إلى ما كنا فيه ، ونقص كيف قام جميع فرسان السلطان بعد قليل من استيلائنا على دمياط بالمجىء إلى المعسكر ومهاجمته من ناحية البحـــر .

سلح الملك وكافة الفرسان أنفسهم ، وذهبت للحديث مع الملك وأنا فى كامل عدتى وسلاحى ، ووجدته هو الآخر فى كامل سلاحه ، جالساً على كرسيه ومن حوله خواص فرسانه الكرام فى عدتهم ، وسألته عما إذا كان يرغب فى أن أخـرج أنا ورجالى من المعسكر حتى لا يهاجم المسلمون خيامنا ، فلما سمع يوحنا لورد بيمونت سؤالى هذا صاح بى فى صوت عال جداً ، وأمرنى — باسم الملك — ألا أبرح مخيمى حتى يأمر الملك بذلك .

١٧٣ — ولقد أخبرتك بالأمراء الكرام الذين كانوا يؤلفون خاصة الملك ، وفيهم ثمانية من أبرع الفرسان قد فازوا بالجوائز لبسالتهم فى الحرب فى البلاد البحرية الأخرى ، وجرت العادة على تسمية أمثال هؤلاء بالفرسان الطيبين ، وها هى ذى أسماء الفرسان الذين كانوا حول الملك : جوفرى لورد سارجنس ، ماتيو لورد مارلى ، فيليب لورد نانتك ، أمـــبرت لورد بيجو ، كونستابل

دى فرانس ؛ يبد أن الأخير لم يكن حاضراً حينذاك بل كان خارج المعسكر هو ورئيس فرقة الرماة بالسهام قائمين بحـراسة المعسكر حتى لايقوم الترك بعمل ما يضرنا .

١٧٤ — وحدث أن سلح ولتر لورد أوتريخ نفسه فى معسكره من كل النواحى،وإذ كان ممتطياًصهوةجواده ودرعه فى رقبته وخوذته على رأسه فقدأمر برفع رايات فسطاطه ، وهمز جواده ليكرعلى الترك،فلما غادر المعسكر وحيداً صاح جميع رجاله بصوت عال « Chasteillon » ، وحدث أنه حينما دنا من الترك سقط وسقط فوقه جواده الذى ما لبث أن انطلق فى سبيله ، حاملا أسلحة مولاه ووصل إلى أعدائنا ، وذلك لأن أغلب المسلمين كانوا يمتطون إناث الخيل مما دفع الحصان لأن يذهب إلى معسكر المسلمين .

١٧٦ — وذكر لنا — من شاهدوا الحادث — أن أربعة من الترك جاءوا إلى حيث كان لورد ولتر مسجى على الأرض وأخذوا يضربونه بدبابيسهم[١] ، فهب كونستابل دى فرانس وجماعة من جنود الملك لتخليصه ، وأحضروه إلى معسكره وهو فاقد النطق ، ومضى إليه فى فسطاطه جماعة من جراحى الجيش ومطببيه ، ولما ظهر لهم أن ليس من خطر عليه أخذوا فى فصد ذراعيه .

١٧٦ — وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة اقترح علينا أوبرت لورد نارس أن نمضى ونراه لأننا لم نكن قد زرناه حتى ذلك الوقت ، وكان رجلا ذائع الصيت مقداماً، فلما جئنا فسطاطه تلقانا حاجبه وطلب إلينا أن نسير فى هدوء حتى لا نوقظ مولاه ، ففعلنا وأبصرناه مسجى على الفراء ، وذهبنا إليه فى هدوء شديد

---

(١) الدبوس عصا طويلة فى طرفها كرة من حديد .

فوجدناه ميتاً ، فلما علم الملك بذلك النبأ قال إنه لا يرغب فى أن يكون فى الجيش أمثال هذا الرجل ممن يعملون عكس أوامره .

معاودة الهجوم على المسلمين

الملك يقرر انتظار مجىء كونت بواتييه

١٧٧ — كان المسلمون يدخلون معسكرنا — كل ليلة — مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من رجالنا[١] ، وقد حدث أن قتلوا حارس لورد كورتنى وتركوه على إحدى المناضد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم ، وقد حملهم على ذلك العمل أن السلطان كان يعطى ديناراً من الذهب لكل من يأتيه برأس نصرانى .

١٧٨ — بينما كنا نعانى هذه الشدة إذ وكلنا حراسة المعسكر كل ليلة إلى طائفة من الجند تقوم بذلك على ظهور الجياد ، فكان المسلمون إذا أرادوا دخول المعسكر انتظروا حتى يهدأ صوت الجياد ويسكت صوت الجند ، ثم ينسللون إلى المعسكر فيصيبون ما يصيبون ثم يغادرونه قبل انبلاج غرة الصباح ، لذلك أمر الملك أن تترجل الفرقة الموكل إليها الحراسة ليكون كل ما بالمعسكر فى أمان ، لأن الحراس من رجالنا يكون بعضهم إلى جوار البعض الآخر .

١٧٩ — بعد أن تم ذلك أجمع الملك العزم على عدم مغادرة دمياط حتى يحضر أخوه كونت بواتييه بمن تبقى معه من القوات الفرنسية ، ولكى يحول الملك بين المسلمين وبين دخول المعسكر على خيولهم فقد أمر بإغلاق جميع منافذ المعسكر ، ووكل إلى رماة النشاب حماية هذه الاستحكامات كل ليلة ، كما وكلها إلى جماعة من عسكره ، ووضع مثل هؤلاء عند مدخل المعسكر .

(١) أنظر زيادة . حملة لويس التاسع على مصر ، ص١٢٢ .

١٨٠ — ولما انتهى عيد القديس Remigius ولم ترد لنا قط أية أخبار من ناحية كونت پواتييه : الأمر الذى انزعج له خاطر الملك وخواطر جميع الجند خوفا من أن يكون قد نالهم سوء ، أقول لما انتهى عيد القديس ريميجيوس ، وانقطعت عنا أخبار الكونت مضيت إلى القاصد الرسولى ، وذكَّرته بما فعله مطران موروتبت ونحن على سطح البحر من أنه قام بالقداس ثلاثة سبوت متتاليَّات ، وكيف أنه لم يأت السبت الثالث حتى كنا وصلنا قبرص ، فآمن القاصد الرسولى بما قلت ، وعقد ثلاثة قداسات فى ثلاثة سبوت بين صفوف الجيش .

١٨١ - بدأ القداس الأول من معسكر القاصد الرسولى ، حيث ذهب جميع من فيه إلى كنيسة سيدتنا فى المدينة ، وهى الكنيسة التى كانت مسجداً للمسلمين ، غير أن القاصد الرسولى كرسها لأم الله ، وقام بالقداس سبتين حضرهما الملك وكبار رجال الجيش الذين نالوا التوبة من القاصد الرسولى .

١٨٢ — وقبل أن يطلع السبت الثالث كان الكونت بواتييه قد حضر ، وكان خيراً له أنه لم يحضر قبل ذلك ، إذ كانت هناك زوبعة بحرية عاصفة أمام دمياط ، حطمت ما لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كبيرة وصغيرة وغرق جميع من فيها ، فلو أن الكونت پواتييه حضر قبل ذلك لهلك هو وجميع من معه عن آخرهم .

١٨٣ — حينما وصل كونت بواتييه استدعى الملك جميع بارونات جيشه ليقرروا أى سبيل يسلكون : أيمضون إلى الإسكندرية؟ أم الى القاهرة؟ فاتفق رأى بطرس كونت بريتانى الطيب والفريق الأكبر من بارونات الجيش على

النهوض لمحاصرة مدينة الإسكندرية ، نظراً لوجود ميناء صالح أمامها مما يمكّن السفن من جلب المئونة للجيش ، فعارض هذا الرأى كونت دارتوا ، وقال إنه لا يوافق مطلقاً على أن يمضوا إلى مكان ما سوى القاهرة لأنها عاصمة مملكة مصر ، وقال اذا أردتم قتل الحيـة فابدأوا برأسها ، فخلّا الملك جانباً مشورة بارو ناته وأخذ بوجهة نظر أخيه .

الجيش يشرع فى زحفه

١٨٤ — شرع الملك يزحف بجيشه عند بدء القيام صوب القاهرة نزولا على مشورة كونت دارتوا ، ووجدنا بالقرب من دمياط مجرى من الماء يخرج من فرع دمياط ، فاتفق الرأى على أن يبقى الجيش هناك مدة يوم ليسد هذا المجرى حتى نتمكن من الزحف ، وكانت المسألة هينة إذ استطعنا أن نسوّى المجرى الفرعى بطريقة جعلت المياه تندفع فى يسر خلال الفرع الرئيسى ، وحين مرورنا بهذا الفرع أرسل السلطان خمسمائة من أحسن فرسانه الذين وجدهم بالجيش ، والذين يتقنون ركوب الخيل لمضايقة جيش الملك وتعويق زحفنا .

١٨٥ — فلما كان يوم عيد ميلاد القديس نيقولا أصدر الملك إلينا أمره بالاستعداد للزحف ، ومنع أى شخص من أن يدفعه التهور لمهاجمة المسلمين .

ولما أخـذ الجيش يتقدم فى زحفه ، ورأى المسـلمون أن رجالنا لا يقومون بأى هجوم عليهم ـ وقد علموا بأن الملك كف رجاله عن ذلك ـ اشتد عزمهم وكروا على الفرسان الداوية الذين يؤلفون مروحة الجيش ، وتقدم أحد الأتراك فحمل فارساً من فرسان المعبد وطرحه أرضاً أمام حوافر جواد الأخ رينو فيشى Vichie رئيس فرسان المعبد .

١٨٦ — فلما رأى المارشال ذلك العمل صاح بإخوانه فرسان المعبد « كروا عليهم باسم الرب، فإننى لاأستطيع أن أتحمل هذا» ، ثم أعمل مهمازه فى خاصرتى جواده واقتدى به بقية الجيش ، وكانت جياد رجالنا قوية قد نالت قسطها من الراحة ، على حين كانت خيول الترك منهوكة القوى ، وقد سمعت أنه لم ينج منهم أحد بل لاقوا جميعاً حتفهم ، ووثب الكثيرون منهم إلى النهر فماتوا غرقاً .

النيـــــل

١٨٧ — والآن أرى من الملائم أن أقص عليك شيئاً عن النهر الذى يخترق مصر وعن هذه الجنة الأرضية ، وإننى لمخبرك بهذه الأشياء كى تدرك أموراً معينة سأتناولها .

يختلف هذا النهر عن بقية الأنهار كافة التى تجرى إلى الجنوب وتنصب فيه نهيرات عدة ، ثم تتجمع كلها فى مجرى واحد يسير خلال أرض مصر ، ثم يتفرع إلى سبعة فروع تمتد عبر البلاد .

١٨٨ — وبعد انتهاء يوم القديس Remigius تفيض الأنهار السبعة فى البلاد وتغطى السهول، فإذا ما انسحبت هذه المياه خرج الفلاحون لحرث الحقول بمحاريث ليس لها عجل ، فيبذر الواحد منهم فى باطن التربة القمح والشعير والكمون والأرز ، فتخرج هذه نبتاً طيباً ليس بعده ماهو أطيب منه ، ولا يعرف أحد كيف يأتى الفيضان إلا أنه بمشيئة الرب ، فاذا لم يأت الفيضان لم يتم شىء ، لأن حرارة الشمس القوية تذبله لاسيما وأن السماء لاتمطر أبداً فى مصر .

ومياه الأنهار عكرة على الدوام ، لذلك إذا أراد الأهالى الشرب عمدوا إلى أخذ المياه ليلا وألقوا فيها أربع لوزات أوأربع حبات فول ، فلا يأتى عليها الصباح حتى تكون صالحة للشرب خالية من كل شائبة .

١٨٩ — وقبل أن يدخل النهر مصر يعمد الأهالى — جريا على عادتهم — إلى رمى الشباك فيه مساء ، فإذا تنفس الصباح وجدوا فيها بضائع ثمينة كالزنجبيل والراوند وخشب الصبار والدارصينى ، ويقال إن هذه الأشياء كلها تأتى من الجنة الأرضية ، لأن الرياح تهب فتدفع الأشجار أمامها إلى الجنة كما تدفع الخشب الجاف إلى غابات بلادنا ، ويبيع التجار لنا خشب شجر الجنة الجاف .

ولمياه النيل خاصية معينة ، فكنا إذا وضعناه فى أوانى فخارية بيضاء من صنع البلد وعلقناها بحبال إلى فساطيطنا أصبحت — رغم حرارة النهار — باردة كأنها خارجة من نبع بارد .

١٩٠ — ولقد قيل فى مصر إن سلطان البلاد كثيراً ما حاول الوقوف على مصدر مياه النهر ، وأنه أرسل لهذا الغرض جماعة تحمل معها نوعاً من الخبز يعرف « بالبقسماط » لأنه يخبز مرتين ، ويعيشون على هذا الخبز حتى يعودوا ثانية إلى بلد السلطان .

وقد ذكرت هذه الجماعة أنها اكتشفت منابع النهر ، وأنها وصلت فى سيرها إلى كتلة ضخمة من الأحجار حادة رأسية لا يستطيع أحد مجاوزتها ، وينبع النهر من هذه الصخور ، وخيل إليهم أن هناك وفرة هائلة من الأشجار فى ذلك الجبل العالى ، وقالوا أيضا إنهم وجدوا أنواعا شتى عجيبة من الحيوان المفترس كالآساد والحيات والفيلة جاءت تنظر إليهم من شواطىء النهر وهم يصيدون فيه .

١٩١ — والآن لنرجع إلى موضوعنا الأول فنقول إن النهر حينما يسير فى مصر تتفرع منه عدة فروع كما ذكرت آنفا ، يذهب أحدها إلى دمياط والآخر إلى الإسكندرية والثالث إلى تنيس والرابع إلى رشيد ، وقد جاء ملك فرنسا بجميع

جيشه فى هذا الفرع الذى يمضى إلى تنيس ، ونصب خيامه هناك ، على حين أن جميـــع قوات السلطان كانت معسكرة على الجانب الآخر ضد قواتنا ، للدفاع عن الممر الذى كان من اليسير عليهم حمايته ، نظرا لأنهم رأوا أن ليس ثمة أحد يستطيع عبور هـذا الفرع للزحف عليهم إلا إذا كان ذلك سباحة .

بناء جسر على النهر

١٩٢ — قرر الملك بناء جسر عبر النهر ليمر عليه الجند فى زحفه على الشرقيين ، ورأى الملك أن حماية القائمين بالعمل فى البناء تقضى تشيد برجين يعرفان « بالقطبين » ، وكان هناك أمام القطبين بنيان لوقاية الواقفين على الأرض من رميات آلات المسلمين التى نصبوا منها ست عشرة آلة .

١٩٣ — ولما وصلنا إلى هناك أمر الملك ببناء ثمانى عشرة آلة ، وجعل جوسلين أمير Cornaut مشرفا على الآلات ، وأخذت آلاتهم وآلاتنا تتبادل الرمى ، لـكننى لم أعلم أبدا أن آلاتنا أدت إلى خسارة كبيرة فى صفوف العدو .

وقام بالحراسة النهارية أخو الملك ، أما الحراسة الليلية للطرق المقفلة فقد قمنا بها نحن الفرسان الآخرين ، فظل الحال على هذا المنوال حتى قبيل عيد الميلاد بأسبوع واحد .

١٩٤ — ما كاد رجالنا يفرغون من بناء الطرق المقفلة حتى شرعوا فى إقامة الجسر ، لأن الملك كره أن تصيب سهام المسلمين — الذين يهدفون اجتياز فرع النيل — أحدا من رجالنا القائمين بنقل التراب ، وقد أخطأ الملك وجميع

بارو ناته في أثناء بنائهم هذا الجسر لأنهم كانوا قد ردموا - كما ذكرت من قبـل - أحد فرعي المجرى من الناحية التي يخرج عندها من المجرى الرئيسي ، وكذلك فـكروا في ردم فرع للنيل على بعد مسافة نصف فرسخ من النقطة التي يخرج عندها من المجرى الرئيسي[1] .

١٩٥ ــ ورأى الشرقيون إفساد الجسر الذي أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا في يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع في عمله ، وذلك أنه كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التي يحدثونها .

١٩٦ ــ اجتمع المصريون في الحجرة التي مات فيها السلطان متأثرا بالمرض الذي ألمّ به وهو أمام مدينة حمص ، واتفقوا فيما بينهم على أن يولوا مكانه عليهم مسلما آخر يعرف بابن الشيخ الذي أمر فريقا من رجاله بالنهوض إلى معسكرنا أمام دمياط ومهاجمته فامتثلوا لأمره ، وجاء إلى بلدة تعرف بأشموم طناح على فرع النيل .

وفي يوم عيد الميلاد كنت أتناول طعام الغذاء أنا وفرساني على مائدة بطرس لورد Avallon ، وبينما نحن على الطعام إذا بالمسلمين يقدمون مسرعين إلى مخيمنا وفتكوا بجماعة من التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين ، فغادرنا المخيم لنتسلح .

---

(١) أنظر نقد خطط لويس الحربية في مهاجمته هذه في كتاب
Oman : Hist. of the Art of war in the middle Ages.

١٩٧ — وعلى الرغم من إسراعنا الشديد فإننا — حين عدنا — لم نجد مضيفنا لورد بطرس لأنه كان خارج المعسكر وقد ذهب لصد المسلمين، فأعملنا مهمازنا فى خواصر جيادنا وأنقذناه من أيدى المسلمين الذين طرحوه أرضا وعدنا به إلى المعسكر هو وأخوه لورد ڤال . أما فرسان الداوية الذين خرجوا على صوت استغاثتنا فقد حمونا فى عودتنا بشدة وبسالة ، وتقدم الأتراك وهم يضايقوننا من الناحية اليمنى ، فأمر الملك بتحصين المعسكر بحفر الخنادق على الجانب المطل على دمياط ، وأن تمتد هذه الخنادق من فرع دمياط .

صد هجوم المسلمين

١٩٨ — أما ابن الشيخ زعيم الترك الذى ذكرت لك اسمه حالا فقد كان من أعظم المسلمين مكانة ، وكان يحمل على رايته رنك الإمبراطور الذى جعله فارساً .

١٩٩ — كان اسمه ابن الشيخ أو كما يسمونه « الشيخ بن الشيخ » وكان هذا اللقب نعتاً بالغ التشريف عند المسلمين، لأنهم الشعب الذى يجل — أكثر من أى شعوب العالم الأخرى — مكانة الكبير ويوقره إذا حفظه الله من سوء السمعة والكبائر .

وحمل هو أسس الملك إليه أن سدين — هذا التركى البطل — قد يتناول طعامه فى فسطاط الملك يوم عيد ميلاد القديس سباستيان .

٢٠٠ — فلما علم الملك بذلك رتب أموره بأن يقوم أخوه كونت دارتوا بحراسة الطرق المقفلة وآلالات الحرب، وأن يقوم الملك وأخوه الآخر الكونت دانجو الذى صار فيما بعد ملك صقلية بحراسة المعسكر من الناحية المؤدية إلى القاهرة ، وأن

نقوم نحن أهل شمبانيا مع كونت بواتييه بحراسة المعسكر الموجود ناحية دمياط، وحدث أن أمير الترك المشار إليه حمل رجاله على العبور إلى الجزيرة الواقعة بين فرعى دمياط حيث يعسكر جيشنا ، وأمرهم بالوقوف صفوفا تصل بين الفرعين .

٢٠١ ــ فقام ملك صقلية بمهاجمتهم ودحرهم ، وغرق الكثيرون منهم فى فرعى المياه ، ومع ذلك فقد بقى فريق كبير منهم أحجم رجالنا عن مهاجمته خوفا من الحجارة المتساقطة من آلات حرب المسلمين التى كانت تقذفها بين الفرعين .

وحدث فى الهجوم الذى شنه ملك صقلية على الترك أن اخترق جى كونت فريز بجواده صفوف الترك وهاجم — على رأس فريق من فرسانه — كتيبة من المشاة المسلمين فطرحوه أرضاً ودقت ساقه ، فعاد به اثنان من فرسانه محمولا على أذرعتهما ، ونجا ملك صقلية من الهلاك بأعجوبة ، وكسب شرفاً عظيما فى ذلك اليوم .

٢٠٢ ــ أما المماليك فقد هاجمونا نحن وكونت بواتييه ، فحملنا عليهم حملة صدق دفعتهم إلى الخلف مسافة كبيرة ولقى البعض منهم حتفه . أما نحن فقد عدنا دون أن نتكبد أية خسارة .

• • •

النار الإغريقية تقذف الأبراج التى تحمى الطرق المقفلة

٢٠٣ ــ حدث فى ذات ليلة من ليالى حراستنا الأبراج المشرفة على الطرق المقفلة أن جلب المسلمون آلة تعرف « بالمقلاع » لم تكن لديهم قبل ذلك الحين

ووضعوا النار الإغريقية فى حمالة لآلة ؛ فلما طالع الحال لورد وولتر الفارس الطيب الذى كان معى قال :

٢٠٤ ـ «أيها اللوردات : إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن ؛ ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا وبقينا حيث نحن فلابد أننا هالكون بالحريق، وإذا غادرنا أماكن دفاعنا هذه التى وكلت حراستها إلينا فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا الخطر سوى الله وحده ، لذلك فإن النصيحة والرأى عندى أن ننطرح على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران، وندعو مخلصنا أن يقينا شر هذا الخطر » .

٢٠٥ ـ فلما أخذوا فى إطلاق النار انطرحنا أرضاً على معاصمنا وركبنا كما علّمنا، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقفلة ، واستقرت أمامنا فى الحفرة التى كان الجيش يعمل على إطفاء النار بها ، وكان المسلمون لا يستطيعون إصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحى الجيش اللذين أمر بهما الملك ، فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافىء .

٢٠٦ ـ وكانت النار الأغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ، ذات ذنب يقارب الرمح طولا، وكان يصحبها صوت هائل كدوّى الرعد ، وكأنها طائر فى الجو ؛ تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شىء كأنه فى وضح النهار ، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة .

٢٠٧ — وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكياً أيها «الرب السيد الحنان، احفظ لى شعبى» . وإننى لمعتقد حقاً أن صلواته قد أسعفتنا فى شدتنا، وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل إلينا أحد حجابه يسألنا كيف أصبحنا؛ وعما إذا كانت النار أصابتنا بضر ما .

٢٠٨ — وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على مقربة من المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطىء ، فنظرت فإذا بفارس يدعى Avligoiy قادم نحوى وقال لى «يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق عن بكرة أبينا ، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيراً من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يستهدف برجنا» ، فقمنا معه وذهبنا إلى حيث أشار ، ووجدنا ماقاله حقا، فأخمدنا النيران، بعد أن أخذ المسلمون يرموننا بالنبال التى يرمونها عبر المجرى .

البرج يحترق بالنار الإغريقية

٢٠٩ — استمر إخوة الملك قائمين بحراسة البرجين نهارا ، وكانوا يذهبون إلى أعلا البرجين ، فيلقون القذائف من السهام على الشرقيين وهم فى معسكرهم، وذلك لأن الملك أمر أن يستمر ملك صقلية مضطلعا بحراسة البرجين نهارا ، بينما نقوم نحن بحراستهما ليلا ، وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيمهم للأبراج، وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لايجرءون من قبل على استعمالها إلا ليلا ، وأخذوا يرموننا بالنار الإغريقية .

٢١٠ — واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب من الجسر الذى يعمل الجيش

فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب الى البرجين من جراء ماتقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى الى احتراق البرجين ، واشتد حزن ملك صقلية حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقى بنفسه الى حيث النار تشتعل عسى أن يطفئها ، وبينما كان فى شدة الغيظ كنت أنا ورجالى نمجد الرب ، إذ لو استمرّوا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة .

٢١١ـ حين سمع الملك بما حدث أرسل فى طلب البارونات ، وسألهم أن يقوم كل منهم بجلب ما لديه فى السفن من خشب لتشييد برج يساعد على ردم القناة ، وأراهم بوضوح أنه لا يوجد ثم خشب يمكن استعماله فى أداء هذا الغرض سوى خشب السفن التى تجلب مؤونتنا إلى النهر ، فقام كل منهم وأحضر حسب ما استطاع ، فلما تمت إقامة البرج قدر ثمن ما استعمل فيه من الخشب بعشرة آلاف دينار أو تزيد .

٢١٢ ـ كذلك صمم الملك على ألا يدفع البرج إلى الأمام إلى حيث الجسر إلا نهاراً حين تكون دورة ملك صقلية فى الحراسة ، وذلك لكى يستعيد خسارة البرجين اللذين احترقا أثناء قيامه بالنوبة ، فتم مارآه الملك ، وما كاد ملك صقلية يتسلم دورته فى الحراسة حتى دفع البرج إلى الجسر ، وجعله حيث كان البرجان المحترقان يشرفان على الطريق المقفول .

٢١٣ ـ فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم ، وصفّوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأو إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله ، وكان عطف

الرب عظيما عليّ وعلى من معى من الفرسان فى هذه المرة ، إذ لو كنا قائمين بحراسته تلك الليلة لتعرضنا للخطر كما حدث فى المرة السابقة التى ذكرت لك عنها شيئا .

خوض النهر ومقتل كونت دارتوا

٢١٤ ـ لما رأى الملك ماجرى استدعى باروناته للمشاورة ، فأجمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه للزحف على المسلمين نظراً لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدراً يكافئ ما يستطيع الشرقيون حفره من ناحيتهم .

٢١٥ ـ ثم تقدم لورد أمبرت إلى الملك معلنا إليه أن أحد البدو جاءه مخبراً إياه بأن فى استطاعته أن يدلنا على مخاضة صالحة ، وأشار علينا بأن ننقده خمسمائة بيزانت ، فوافق الملك على نقده ما طلب ، على أن يبرهن من جانبه على صدق عهده ؛ وحينذاك تقدّم الكونستابل إلى البدوى الذى رفض أن يدلنا على المخاضة ما لم يتسلم النقود أولا ، ومن ثم اتفق على إعطائه المبلغ وتناوله .

٢١٦ ـ صمم الملك على أن يقوم بحراسة المعسكر دوق برجنديا والرجال البارزون الذين جاءوا مع الجيش من وراء البحار ، وبذلك لا يصيبه خطر ما . واتفقوا على أن يعبر الملك وإخوته الثلاثة المخاضة فى المكان الذى يدلهم البدوى عليه ؛ وأعدت التجهيزات لعبورها يوم الثلاثاء الثامن من فبراير ١٢٥٠ ، يوم ثلاثاء الزّفر الذى ما كاد فجره يتنفس حتى جمعنا رجالنا من شتى النواحى ، فلما أخذنا للأمر أهبته ذهبنا إلى المجرى ممتطين جيادنا وبدأنا فى السباحة ، حتى

إذا توسطناه ألفينا أرضاً استطاعت خيولنا أن تسير عليها ؛ وكان على الشاطئ الآخر للمجرى ثلاثمائة مسلم ، كلهم فوق جيادهم .

٢١٧ ـ حينذاك قلت لمن معي : « أيها السادة ؛ انظروا إلى يمينكم وانسحبوا إلى هناك ؛ إن الشاطئ لين ناعم ، والجياد تسقط على راكبيها وتغرقهم » ؛ وكان واضحاً أن هناك جماعة غرقت أثناء العبور ، وكان من بين الغرقى جون لورد أورليان الذي كان يحمل راية الجيش ؛ ومن ثم أخذنا نتحرك حتى عبرنا المجرى ، ووجدنا بعدئذ طريقاً جافاً عبرناه ؛ فالشكر لله على أن لم يسقط أحد منا ، وما كاد الترك يرون أننا قد عبرنا النهر حتى لاذوا بأذيال الفرار .

٢١٨ ـ وقد صدر أمر الملك بأن تتألف طليعة الجيش من فرسان المعبد ، وتليهم الفرقة الثانية بقيادة كونت دارتوا الذي ما كاد يعبر المجرى حتى اندفع بمن معه على المماليك الذين فرّوا من أمامه ؛ فذكر له فرسان الداوية أنه أغاظهم بذلك العمل أشد الغيظ ، لأن مكانه وراءهم ، وطلبوا إليه الرجوع إلى مكانه كما رتب الملك الأمر من قبل ، فلم يجبهم كونت دارتوا إلى سؤالهم ، لأن « كان » لورد مرل كان ممسكا بلجام جواده ؛ وكان فو كان مرل فارساً بارعاً جيداً ولكنه لم يسمع شيئاً مما قاله الداوية للكونت لصمم كان به وصاح « كروا عليهم ؛ كروا عليهم ! »

٢١٩ ـ فلما رأى الداويّة ذلك أخجلهم أن يكون للكونت التقدم عليهم ، فأعملوا مهاميزهم في خواصر جيادهم واختلط الحابل بالنابل ، وأخذوا في مطاردة المماليك الذين فروا من أمامهم متجهين يميناً تجاه مدينة « المنصورة » ، ثم إلى ما وراءها من المزارع المؤدية الى القاهرة .

ولما فكر رجالنا فى العودة أخذ المماليك يرمونهم بالقسى والسهام فى شوارع المدينة الضيقة ؛ وهناك قتل كونت دارتوا ولورد سوسى المعروف برادول وكثيرون غيرهما من الفرسان الذين بلغ عددهم قرابة ثلاثمائة قتيل ؛ أخبرنى رئيسهم أن خسارة من الفرسان المسلمين الراكبى الجياد بلغت .

. . .

المسلمون يجرحون جوانفيل
وينقذه كونت دانجو

٢٢٠ — صممت أنا وفرسانى على وجوب مهاجمة جماعة من المماليك كانوا يضمون أمتعتهم فى معسكرهم القائم إلى يسارنا فباغتناهم ، وبينما كنا فى آثارهم عبر معسكرهم لمحت مسلماً ممتطياً جواده وقد أمسك اللجام له أحد فرسانه .

٢٢١ — وبينما كان يضع يديه على السرج لامتطاء حصانه شككته برمحى تحت إبطه فخر قتيلا ، فلما رأى فارسه ما حدث لسيده تركه جانباً هو وجواده ، وطعننى — وأنا أمر — برمحه بين كتفىّ وأمسكنى بشدّة وجذبنى إلى أسفل ، فلم أستطع أن أجر حسامى من منطقتى ، ومن ثم جذبت السيف المعلق إلى جوادى ، فلما رآه مشهوراً فى يدي سحب رمحه وتركنى .

٢٢٢ — ولما خرجت أنا وفرسانى من المعسكر وجدنا مايقرب من ستة آلاف من المماليك قد تركوا خيمهم وارتدوا إلى الحقول ، فلما أبصرونا اندفعوا نحونا وفتكوا بهيبج لورد Trichatél ولورد كونفلانس الذى كان معى يحمل العلم ، فأعملنا المهاميز فى جيادنا وذهبنا لتخليص راءول لورد Wavou الذى كان معى والذى ضربوه ضربة طرحته أرضاً .

٢٢٣ـ وبينما كنت آيباً هاجمني المماليك برماحهم ، فجفل حصاني تحت الضغط ووقعت على أذنيه ، وما كدت أهم بالوقوف حتى نهضت ودرعي في عنقي وسيفي في يدي ، وحينذاك جاءني أحد رجالي وهو ايفرارد لورد Siverey — يرحمه الله — وقال إنه ينبغي علينا أن نبتعد ونلتجيء إلى بيت متهدم نترقب فيه قدوم الملك ، وبينما كنا متخذين طريقنا إلى هذا البيت ما بين راجل راكب أقبل فريق كبير من المماليك واندفعوا نحونا وطرحوني أرضا ، ومروا عليّ فانخلع درعي من رقبتي .

٢٢٤ـ فلما عاد إليّ ايفرارد لور سيفري وسحبني ذهبنا إلى جدران البيت المتهدم ، وهناك عاد إلينا هيج لورد Ecot وفردريك لورد مينو ، ورينو لورد Menoncourt ، فعاد المماليك وهاجمونا من كل النواحي ، ودخل بعضهم البيت المتهدم وأخذوا يرموننا برماحهم من أعلى ، فطلب إليّ فرساني أن أمسك بلجم جيادهم خشية فرارها ففعلت ماطلبوه مني ، وأخذوا في الدفاع عن أنفسهم دفاعا مجيدا ، فأثنى عليهم جمع رجال الجيش الأمجاد ، سواء أولئك الذين شاهدوا صنيعهم بأعينهم أم أولئك الذين سمعوا بجلدهم .

٢٢٥ـ وجُرح هيج لورد إكوت ثلاثة جروح في وجهه وكذلك لورد رادول ، كما أصيب لورد فردريك برمح جرحه فيما بين كتفيه ، وكان جرحاً عميقا حتى لقد كان الدم يتدفق منه كما لو كان يتدفق من فتحة برميل ، أما جرح ايفرار لورد سفري فكان من طعنة سيف أصابته في وسط وجهه سقط من جرائه أنفه على شفتيه ، فخطر ببالي حينذاك أن أستنجد بقديسي وسيدي سنت جيمس ، فهتفت قائلا « أيها القديس الحنون ، ياسيدي جيمس ، أعنِّي وأغثنا في هذه الشدة ! » .

٢٢٦ ـ ما كدت أفرغ من صلاتي هذه حتى قال لي لورد سفري «ياسيدي إذا كنت ترى أن لا غضاضة تنالني وتنال خلفائي من بعدي فأذن لي أن أذهب وأطلب لك العون من كونت انجو الذي آراه وسط ذلك الحقل»، فقلت له « يالورد إيفرارد يخيل إليّ أنك تريد أن تكسب لنفسك الشرف العظيم بذهابك لطلب المعونة لتخليصنا ، فإن حياتك أنت أيضا لفي خطر عظيم داهم » وكأنني كنت أدرى الغيب ، لأنه مات متأثرا من هذا الجرح الذي أصابه ، وقد حاول استشارة جميع الفرسان الموجودين هناك حينئذ فنصحوه بما نصحته به ، فلما سمع ذلك سألني أن أخلي سبيل جواده الذي كنت أمسك بلجامه كما كنت أمسك بلجم الجياد الأخرى ، ففعلت ما سألني .

٢٢٧ـ فذهب إلى كونت أنجو، وتوسل إليه أن يهب لنجدتي ونجدة فرساني، فحاول أحد الرجال البارزين ممن كانوا مع الكونت انجو أن يصرف مولاه عن هذا الأمر ، بيد أنه أجابه أنه فاعل ما سأله الفارس إياه ، فثنى عنان فرسه ليقوم لنجدتنا ، وأعمل جماعة كثيرة من الفرسان مهاميزهم في جيادهم ، فلما رآهم المسلمون قادمين عليهم تركونا حيث نحن .

وكان أمام السرجندية بطرس لورد Auberive راكبا جواده ، وسيفه في قبضة يده ، فلما رأى أن المسلمين قد تركونا كرَّ على من أمسكوا منهم رادول لورد Wanon فخلصه من بين أيديهم بعد أن جرح جرحا بليغا .

فريق الملك يهاجم المسلمين

٢٢٨ ـ بينما كنت هناك مترجلا مع فرسانى ونحن على مانحن عليه من الجراح أقبل الملك برجاله مصحوبا بصوت عال من الصياح والطبول والصنوج ،

ثم وقف على جسر منصوب هناك ، ولم أر قط فارسا عظيما مثله ، إذ كان يبدو برأسه وكتفيه أشبه بالبرج بين رجاله ، وكان على رأسه خوذة ذهبية وفى يده سيف من سيوف الألمان .

٢٢٩ـ وحينما وقف الملك هناك هب الفرسان الكرام الذين كانوا فى فرقته والذين سميتهم لك واندفعوا على المماليك ، وشاركهم فى هذا الهجوم غيرهم من خواص فرسانه الأشداء . ويجب أن تعلم أن هذا الحادث كان اختبارا طيبا للأسلحة ، إذ لم يستعمل أحد فى هذه المعركة قوسا أو سهما ، بل كانت معركة صولجان وسيف بين المماليك وبين رجالنا ، واشتبك الجميع بعضهم ضد بعض .

وكان واحد من خدمى يحمل رايتى وقد هرب بها ، ثم جاءنى وأعطانى أحد جيادى الهولندية فامتطيته ، وانضممت إلى صف الملك ، ووقفت معه جنبا إلى جنب .

٢٣٠ـ وبينما كنا واقفين هكذا جاء إلى الملك جون لورد فاليرى وهو الرجل الطيب وقال له إنه يشير عليه بأن ينتقل إلى الضفة اليمنى للنهر ليضمن مساعدة دوق برجنديا وبقية القائمين بحراسة المعسكر ، ولكى يجد رجاله شيئاً يشربونه ، نظراً لأن اليوم إذ ذاك كان شديد الحرارة .

٢٣١ ـ فأمر الملك رجاله بأن ينطلقوا باحثين عن فرسان مجلس مشورته الكرام وسماهم بأسمائهم ، فذهب السرجندية إليهم واستدعوهم وهم فى وطيس القتال ، حيث كانت المعركة على أشدها بينهم وبين المماليك ، فأقبلوا على الملك وسألهم أن يلقوا إليه برأيهم ، فقالوا إن الخير كل الخير فى اتباع ما أشار به جون لورد فاليرى ؛ وحينذاك أمر الملك بتحويل راية سنت دينس وأمر

حامل علمه بالتحرك يميناً شطر النهر ، وعند تحرك جيش الملك سمع مرة ثانية صوت الطبول والصنوج والأبواق يدوّى عالياً .

٢٣٢ـ لم يكد الملك يشرع فى التحرك حتى تسلم عدة رسائل من أخيه كونت بواتييه ومن كونت فلاندر ومن غيرهم من ذوى المكانة البارزة المرموقة ممن معهم قواتهم ، وكلهم يتوسلون إليه فيها أن يقصر عن الحركة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم ، فاستدعى الملك مرة أخرى جميع فرسان مجلس مشورته المبجلين ، فأجمعوا الرأى على وجوب الانتظار ، وما لبث أن عاد چون لورد فاليرى ولام الملك ومجلس مشورته على البقاء حيث هم ؛ وحينذاك نصحه جميع مشاوريه بوجوب التقدم صوب النهر كما بيّن لورد فاليرى .

٢٣٣ـ وفى هذه اللحظة جاءه الكونستابل امبرت لورد بيجو وأنبأه بأن أخاه الكونت دارتو يدافع عن نفسه فى بيت من بيوت المنصورة، وأنه يتحتم على الملك أن ينهض لنجدته ومساعدته، فقال له الملك : « أيها الكونستابل اسبقنى وسأمضى فى آثارك » ، فقلت للكونستابل إننى أريد أن أكون فارسه فشكرنى شكراً جزيلا ، ومن ثم تهيأنا للزحف على المنصورة .

٢٣٤ ـ ثم جاء للكونستابل سرجندى كان يحمل صولجانا ويرتجف خوفاً ، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه فى خطر عظيم ،فرجعنا فأبصرنا بيننا وبينه مالا يقل عن ألف مملوك ، ولم نكن نحن أكثر من ستة أشخاص ، فقلت للكونستابل : « أيها اللورد : لما كان من المستحيل علينا أن نصل إلى الملك متخطين كل هؤلاء فالأجدر بنا أن ندور حولهم ، واجعل هذا الخندق — الذى

تراه هنا — بيننا وبينهم ، وبذلك نستطيع الاتصال بالملك » فأخذ الكونستابل بنصيحتى، ولك أن تعرف أن لو علم العدو خطتنا لكنا بلاشك من الهالكين ، لكن المسلمين لم يكن يعنيهم أحد ما سوى الملك وكبار رجاله ، ومن ثم فقد ظنوا أننا من فريقهم .

جوانفيل يدافع عن الجسر
وارتداد كونت بريتانى عن المنصورة

٢٣٥ — بينما كنا راجعين إلى الشاطىء بين المجرى الفرعى والنهر أبصرنا الملك قريباً من النهر ، والمماليك يدفعون للوراء قواته ويضربون بالسيوف والصولجانات كما أرغموا القوات الأخرى على التقهقر ، وكان اندحار رجالنا شديداً حتى لقد فكر الكثيرون من رجالنا فى المضى إلى دوق برجنديا سباحة ، ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك أيضاً نظراً لشدة تعب جيادهم واشتداد حرارة النهار ، ومن ثم رأينا — ونحن مقدمون عليهم — المجرى مغطى بالرماح والدروع وبالجياد الغارقة والرجال الهالكين .

٢٣٦ — وجئنا إلى جسر صغير قائم على المجرى الفرعى فقلت للكونستابل: «دعنا نمكث هنا ونقوم بحراسة هذا الجسر الصغير إذ لو تركناه لهاجم المماليك الملك من هذه الناحية ، وإذا ما هوجم رجالنا من الجانبين تأزمت الأمور عليهم» فتم ما أشرت به ؛ ولقد علمت بعدئذ أننا كدنا أن نقتل جميعاً ذلك اليوم لولا الملك .

ولقد أخبرنى لورد كورتنى وجون لورد Saillenay أن ستة من المماليك جاءوا إلى الملك وأمسكوا بلجام فرسه ، وساروا به أسيراً ، ولم يخلصه

أحد سوى نفسه ، حيث أعمل الضرب فيهم بشدة بحسامه ، فلما شاهد رجاله كيفية دفاع الملك عن نفسه جمعوا شجاعتهم ، وتخلى الكثيرون منهم عن فكرة الهروب من الجيش عبر النهر ، ووقفوا إلى جانب الملك يساعدونه .

٢٣٧ — جاءنا — نحن القائمين بحراسة الجسر الصغير — بطرس كونت بريتانى راكباً من المنصورة وقد جرح بالسيف فى وجهه جرحاً أسال الدم فجرى منه فى فمه ، وكان ممتطياً جواداً جميلا رائع القوائم ؛ وقد ألقى الكونت بلجامه على قربوس سرجه ، وأمسكه بكلتا يديه حتى لا يدفعه رجاله الذين من خلفه والذين يضغطون عليه بشدة عن الطريق إلى الجسر الصغير ، وقد ظهر عظيم تأثيره عليهم ، إذ بينما كان ينفث الدم من فمه قال بصوت جهورى ممتلىء « بحق رأس الرب ، هل رأيتم مثل هؤلاء الأوغاد ! » وجاء خلف رجاله كونت سواسون وبطرس لورد نيفيل المسمى Caier وقد أصيبا بضربات عدة طوال يومهم هذا .

٢٣٨ — فلما عبروا الجسر وشاهد المماليك أننا نقوم بحراسته وأننا نستقبلهم بوجوهنا كفوا عن مطاردة كونت بطرس وجنوده ، فجئت إلى كونت سواسون ابن عم زوجتى وقلت له « أيها اللورد ، أظنك تفعل خيراً لو بقيت هنا تحرس هذا الجسر الصغير ، إذ لو تركناه لاندفع المماليك الذين تراهم أمامك وعبروه ، وإذ ذاك يحدقون بالملك من الأمام ومن الخلف » فسأل عما إذا كنت أبقى معه إذا قام بحراسته فأجبته « نعم ، وبكل سرور » ، فلما سمع الكونستابل ذلك القول طلب إلى ألا أغادر مكانى هذا حتى يعود ، إذ أنه ماض فى طلب النجدة لنا .

٢٣٩ـ بقيت حيث أنا على جوادى الرائع وبقى كونت سواسون إلى يمينى وبطرس لورد نيوفيل إلى يسارى ، ثم أبصرنا مملوكا قادماً علينا من ناحية قوات الملك التى كانت خلفنا ، وقد حمل صولجانا فوضعه على رقبة الجواد وضربه بشدة ، فاندفع الجواد بعنف عابراً الجسر ووصل به إلى جماعته .

فلما رأى المماليك أننا لا نغادر الجسر الصغير عبروا المجرى الصغير وجعلوا أنفسهم بينه وبين النهر كما فعلنا نحن من قبل ، فأقبلنا نحوهم لنكون على أهبة الكر عليهم سواء أكانوا يريدون الذهاب ناحية الملك أو عبور الجسر الصغير .

٢٤٠ — كان أمامنا اثنان من سرجندية الملك، يدعى أحدهما وليم دى بون والآخر جون دى جاما ، كما أحضر المماليك الذين وقفوا بين المجرى الفرعى والنهر عدداً كبيراً من الفلاحين سيراً على الأقدام راحوا يرجمونهم بالحجارة والتراب لكنهم لم يستطيعوا حملهم أبداً على مهاجمتنا ، وأخيراً جاءوا بمملوك مترجل ألقى النار الإغريقية ثلاث مرات ، وحدث أن استقبل وليم البونى وعاء النار الإغريقية فى درقته ، إذ لو أمسكت النار بأى جزء من ملابسه لاحترق .

٢٤١ — وكانت تنصب علينا نحن أيضاً رميات بالمزاريق التى لم تصب السرجندية ، وحدث أن وجدت قميص مسلم مخططاً فقلبته رأساً على عقب ، واتخذته درعا لى نفعنى كل النفع ، لأن مزاريقهم جرحتنى فى خمسة أماكن ، وأصابت جوادى فى خمسة عشر مكاناً ، وحدث مرة أخرى أن واحداً من نواب

مقاطعة جوانفيل أحضر لى خنجراً طويلا وكذلك رأس رمح ، وكنا نهاجم المماليك فى كل مرة نراهم يشددون الضغط فيها على السر جندية ، فيفرون سراعاً .

٢٤٢ — وفى هذا الوضع الخطر أقبل كونت سواسون الطيب يمزح معى وقال لى « أيها المولى ، دع هؤلاء الأوغاد يولون بحق رأس الرب» إذ كان ذلك يمينه المحبب إلى نفسه ، ثم تابع كلامه قائلا : « سنتحدث أنا وأنت عن هذا اليوم فى حجرات عقائلنا » .

هزيمة المسلمين وسرقة البدو لمعسكرهم

٢٤٣ — وفى المساء بينما الشمس موشكة على المغيب قدم علينا الكونستابل همبرت دى بيجو ، ومعه رماة سهام الملك المترجلون ، ووقفوا صفاً أمامنا ، فلما شاهدهم المسلمون وقد وقفوا إلى جانب ركاب سرج أقواسهم فروا وتركونا حيث نحن ، وحين ذاك قال الكونستابل لى «أيها السيد: حسناً مافعلوا ، والآن امض إلى ملكك ، ولا تتركه أبداً حتى يدخل فسطاطه » وسرعان ما قدمت على الملك ، ومالبث لورد جون فاليرى أن قدم على آثارى إليه وقال له : «مولاى إن سيدى لورد شانيون يسألك أن توليه قيادة مؤخرة الجيش » ، فقبل الملك ذلك الطلب عن طيب خاطر وتقدم إلى الأمام ، وبينما نحن سائرون طلبت إليه خلع خوذته وأعرته قبعتى عسى أن يتخلل الهواء رأسه .

٢٤٤ — ولما اجتاز النهر جاءه الأخ هنرى Ronnay رئيس الاسبتارية ، فسأله الملك عما إذا كانت لديه أخبار عن أخيه كونت دارتوا ، فأجابه الرئيس بأنه لايستطيع أن ينكر أن عنده أخباراً عن الكونت ، وهو واثق

تمام الثقة من أن أخاه الآن فى الجنان ، ثم قال كبير الاسبتارية « أواه يامولاى ، لتكن مرتاح الضمير ، إذ لم يتهيأ قط لملك من ملوك فرنسا أن نال من الشرف مانلته أنت اليوم ، ذلك أنك اجتزت النهر سباحة لتحارب أعداءك ، واستطعت دحرهم وطردهم من ميدان القتال ، واستوليت على معداتهم وخيمهم التى ستنام فيها الليلة » ، فأجاب الملك « دعنا نصلى لله الذى منحنا كل ذلك » وتساقطت الدموع غزيرة من عينيه .

٢٤٥ — وحينما بلغنا المعسكر وجدنا جماعة من المسلمين واقفين يجذبون حبال خيمة يفكونها ، بينما كان فريق من رجالنا — دونهم عدداً وقوة — يجذبون الحبال من الناحية الأخرى ، فاندفعت أنا ورئيس فرسان المعبد بين صفوف أولئك المسلمين الذين فرّوا على وجوههم ، وبقيت الخيمة فى أيدى رجالنا .

٢٤٦ — وفى هذه الوقعة أقبل كثير من الرجال ذوى المظهر العظيم يجللهم الخجل ، وانطلقوا فوق الجسر الصغير الذي حدثتك عنه ، وقد هربوا منخلعة أفئدتهم فزعاً ورعباً ، ولم يكن فى قدرتنا حمل أحد منهم على الوقوف حيث كنا ، وأستطيع أن أذكر لك أسماء بعضهم ، ولكننى أضرب عن ذلك صفحاً فقد ماتوا جميعاً .

٢٤٧ — ولن أتجنب الكلام عن سيدى لورد جى مو فوا زان إذ رجع من المنصورة مجللا بالشرف ، وقد اتبع نفس الطريق الذى اتبعته أنا والكونستابل عبر النهر ، وكذلك كانت الحال إزاء موقف المماليك الذين اشتد ضغطهم على كونت بريتانى ورجاله ، وعلى لوردجى موفوازان وأتباعه ، وإن حصل الأخيرون على الشرف العظيم ، وليس من العجيب مافعله هو ورجاله فى ذلك اليوم ،

إذ قيل لى ـ ممن وقفوا على فعاله ـ أن جميع رفاقه ـ إلا الأقلون ـ كانوا فرسانا من أسرته أو فرساناً من مواليه .

٢٤٨ — ولما دحرْنا المماليك وطردناهم من مخيماتهم ولم يبق أحد من رجالنا فى المعسكر اندفع البدو فى معسكر المماليك الذين كانوا من ذوى الثراء الفاحش، فلم يتركوا فى معسكرات المسلمين شيئاً ، وحملوا معهم كل ماخلفه المسلمون ، ولم أسمع قط أن البدو — وإن كانوا من أتباع المسلمين — قد أساء المماليك معاملتهم لأنهم سرقوا جميع الأشياء وحملوها معهم ، ومن المعروف جيداً أن من عادة البدو الإغارة على الجانب الضعيف .

البـــــدو

٢٤٩ — أما فيما يتعلق بموضوعى ، فإننى مفض إليك هنا بطبيعة هؤلاء البدو.

لا يعتقد[1] البدو بمحمد ولكنهم يعملون بشريعة علىّ عمه وبهذا أيضاً يؤمن شيخ الجبل زعيم طائفة الحشاشين ، وعقيدتهم أن الشخص إذمات فى سبيل سيده أو لأى سبب كريم آخر حلت روحه فى جسد شخص آخر وهى أكثر راحة واطمئناناً ، وهذا هو السبب الذى من أجله لا يعبأ الحشاشون بموتهم إذا لاقوا مصرعهم حين ينفذون أوامر شيخ الجبل الذى لن نتكلم عنه الآن شيئاً ، وإنما نقصر الحديث على البدو وحدهم .

٢٥٠ — لا يعيش البدو فى القرى أو المدن أو القصور بل يسكنون العراء على الدوام ويحافظون على أهل بيتهم ونسائهم وأطفالهم فى الليل

(١) معلومات جوانفيل فى هذه الناحية لا تتفق والواقع فى معظمها ، ثم أنه يخلط بين البدو والحشاشين .

وفى النهار وحين يسوء الجوّ يعيشون فى أطواق البراميل المشدودة إلى الأعمدة وهى أشبه ما تكون بهوادج النساء ، ويطرحون على هذه الأطواق جلود الماشية المسماة بالأقمشة الدمشقية مملحة بحجر الشبّ ، ويرتدى البدو جلابيب طويلة تغطى جميع جسومهم وأرجلهم وأقدامهم .

٢٥١ — فإذا أمطرت السماء مساء أو أنذر الجو بالزوابع ليلا تدثروا بعباءاتهم ، وأخرجوا اللجم من أفواه جيادهم ، وتركوها ترعى على مقربة منهم، فإذا أقبل الصباح نشروا عباءاتهم للشمس ، وفركوها ورتبوها فتبدو كأنها لم تبل، وهم يؤمنون أن ليس من أحد يموت إلا فى اليوم المقدّر له ولذلك لا يحملون السلاح، وإذا أرادوا شتم أبنائهم صاحوا بهم « لتكن ملعوناً كالإفرنجى الذى يتدرع حذر الموت » . أما فى القتال فلا يحملون من السلاح سوى السيف والرمح .

٢٥٢ — وجلهم تقريباً يلبسون عباءات كالقسس ، ويلفون حول رءوسهم قماشاً يخفى أذقانهم، ولهم سحن كريهة ترعب الناظرين، وشعر رأسهم وأذقانهم أسود اللون ، ويقتاتون بألبان مواشيهم، ويشترون فى السهول التى يمتلكها الأغنياء المراعى التى تعيش عليها قطعانهم ، ولا يعرف أحد ما عددهم. ذلك لأنهم يعيشون فى مملكة مصر ومملكة بيت المقدس وفى بقية بلدان المسلمين ، ويدفعون لهم ضرائب سنوية ضخمة .

٢٥٣ — ولقد رأيت فى هذا القطر — منذ رجوعى من وراء البحار — جماعة من النصارى غير مؤمنين ، يؤمنون إيمان البدو ويقولون إنه مامن أحد يموت إلا فى اليوم المقدّر له ، وإيمانهم ضعيف إلى درجة أنهم يقولون أن ليس لله القدرة على مساعدتنا ، ومعنى ذلك أن الذين يخدمون الرب أغبياء

إذ لم نعتقد أن له القدرة على إطالة حياتنا وحفظنا من الشر والهلاك .
ويجب علينا أن نؤمن به ، وأن نعتقد أن له القدرة على جميع الأشياء .

• • •

مهاجمة المعسكر ليلا ومطاردة بعض المسلمين

٢٥٤ — والآن أعود فأروى لك أننا رجعنا مساء من تلك الوقعة الخطيرة التي أشرت إليها ، وحططنا رحالنا في المكان الذى أخرجنا منه عدونا ، وجاءنى رجالى — الذين بقوا في المعسكرات منذ خروجنا — بخيمة أعطانى إياها فرسان الداوية ، ونصبوها أمام الآلات التى استولينا عليها من المسلمين، ووكل الملك حراسة الآلات إلى جماعة من السرجندية .

٢٥٥ — رقدت في فراشي التماساً للراحة التى كنت فى مسيس الحاجة إليها ولم أذق لها طعماً من جراء ما نالنى من جراح في اليوم السابق ، ولم يكن الصباح قد تنفس بعد حين دوت صرخة تردد صداها فى جميع أنحاء المعسكر « إلى السلاح ، إلى السلاح ! » ، فأيقظت حاجبى الراقد عند قدمىّ وأمرته بأن يذهب ويقتص الخبر ، فعاد إلىّ فزعاً وقال « قم ياسيدى اللورد قم ، فقد جاء المسلمون مشاة وفرساناً ، وتغلبوا على سرجندية الملك القائمين بحراسة الآلات وجروهم بالحبال من فسطاطنا » .

٢٥٦ — غادرت فراشى ووضعت جعبتى على ظهرى وخوذة من الصلب على رأسى وصحت بسرجنديتنا « بحق القديس نيقولا ، لن ندعهم يقيمون هنا! » فهطع إلىّ فرسانى وهم بجراحهم ، وطردْنا عسكر المسلمين من عند الآلات ورددناهم إلى كتيبة كبيرة من المماليك الراكبين جيادهم كانوا

واقفين قبالة الآلات التي استرددناها ، وبعثت إلى الملك طالبا منه النجدة ، إذ لم يكن في استطاعتي ولا في استطاعة فرساني لبس الدروع من جراحنا ، فأرسل إلينا الملك جوشيه لورد شاتيون الذي وقف أمامنا بيننا وبين المماليك .

٢٥٧ — وحينما دفع لورد شاتيون مشاة المماليك ارتدوا إلى كتيبة كبيرة من المماليك الفرسان الذين جاءوا أمام معسكرنا ليحولوا بيننا وبين مهاجمة جيش المسلمين المرابط خلفهم ، فترجل ثمانية من أولئك المسلمين وهم مسلحون أحسن تسليح ، وأقاموا متاريس من الحجارة المصقولة كيلا تتمكن رماة سهامنا من إصابتهم ، وأخذ هؤلاء المماليك الثمانية يطلقون النيران بعضها في إثر بعض على معسكرنا ، وجرحوا كثيرين من رجالنا وجيادنا .

٢٥٨ — فتشاورت مع فرساني واتفقنا على أن نغتنم فرصة الليل حين يرخي سدوله ، فنرفع الأحجار التي اتخذوها متاريس يحتمون خلفها ، وكان من بين مجلس المشورة قسيس جون لورد Voisey ولكنه لم يتأخر عن العمل ، فقد غادر معسكرنا وحيداً وتقدم شطر المسلمين متدثراً بالدرع ، وقد لبس على رأسه خوذته المصنوعة من الصلب ، وسحب رمحه من تحت ذراعه ، جاعلا ذبابها إلى الأرض حتى لا يلحظها المسلمون .

٢٥٩ — فلما اقترب منهم لم يعبأوا به لأنه كان وحيداً ، وسرعان ما امتشق رمحه من تحت ذراعه واندفع نحوهم ، فلم يفكر واحد من هؤلاء المماليك في الدفاع عن نفسه بل لاذوا بأذيال الفرار ، فلما رأى فرسانهم أن أسيادهم فارون إليهم أسرعوا لنجدتهم ، كما هب من معسكرنا قرابة خمسين سرجنديا ، فجاء المسلمون على جيادهم لكنهم لم يجرءوا على مهاجمة مشاتنا ، بل داروا حولهم مرتين أو ثلاث مرات .

٢٦٠ — فأمسك أحد سرجنديتنا برمحه من الوسط وسدّده نحو واحد من أولئك المسلمين الممتطين جيادهم ، وشكه بالرمح الأصم شكة استقرت بين ضلوعه فانطلق بها ، فلما شاهد المسلمون هذا المنظر لم يعودوا يجرءون على التقدم ، وارتدوا على أعقابهم من أمامنا ، وشرع محاربونا فى رفع أحجار المتاريس ، ومنذ ذلك الوقت ذاع خبر هذا القسيس بين صفوف جيشنا ،وكان كل واحد يشير إليه ويقول « انظر ها هو ذا قسيس سيدى لورد جوانفيل الذى دحر ثمانيةً من المسلمين » .

. . .

تأهب المسلمين لهجوم شامل على المعسكر

٢٦١ — جرت هذه الأحداث فى أول أيام الصوم الكبير، وفى هذا اليوم ذاته نصب المسلمون شيخاً مكان ابن الشيخ الذى قتل فى وقعة ثلاثاء المنصرة ، وتقدم يومئذ ذلك الشيخ الجديد وكان بالغ الشجاعة فأخذ حلة سلاح الكونت دارتوا وأطلع جميع المسلمين عليها زاعماً لهم أنها حلة الملك .

٢٦٢ —وقال لهم « إننى أريكم هذه الأشياء لأن جسما بلا رأس لايخيف، وكذلك الحال إزاء شعب بلا ملك ، وإننى لأمحضكم النصح — وقد وثقتم بى — أن نضاعف هجماتنا عليهم شدة وعنفاً ، وأن يكون هجومنا عليهم يوم الجمعة القادم ، ولن نعجز عن التغلب عليهم جميعاً بعد أن فقدوا قائدهم » .

فاستجابوا له مرحبين بقوله ، وانعقد إجماعهم على مهاجمتنا يوم الجمعة .

٢٦٣ —أما جواسيس الملك الذين كانوا مندسين فى صفوف العسكر الإسلامى

فقد جاءوا إليه وأفضوا له بما رتبه المصريون ، وحينذاك أنفذ الملك أوامره إلى جميع قواد الفرق بدعوة رجالهم لأن يكونوا فى كامل عدتهم وسلاحهم عند منتصف الليل ، والوقوف بهم أمام خيمهم لكن داخل السياج الذى كان مصنوعا من عصى طويلة كى لا يتمكن المسلمون من التسلل إلى المعسكر ، وقد ثبتت هذه العصى فى الأرض بطريقة لا يستطيع المرء أن يمر من بينها إلا مترجلا .

وقد نفذ أمر الملك .

٢٦٤ — وما كادت شمس الجمعة تشرق حتى قام ذلك المسلم الذى أشرنا إليه والذى نصبه المسلمون قائداً عليهم وطلع علينا بقوة لا تقل عن أربعة آلاف فارس تركى[1] ، وهم فى كامل عدتهم وأمرهم بالوقوف تجاه جيشنا الذى كان يمتد على جانبى النهر فى اتجاه القاهرة .

٢٦٥ — فلما تم له ذلك جاء بحشد كثيف من المحاربين المسلمين المشاة ، فأحدقوا هم وفرسانهم بمعسكرنا من كافة نواحيه ، واستقدم إلى جانب هاتين الجماعتين اللتين أشرت إليهما ، وعلى مقربة منهما عسكر سلطان مصر ليكونوا نجدة وعونا إن دعا إلى ذلك داع .

ولما فعلوا ذلك جاء قائدهم وحده ممتطيا جواداً صغيرا بغية استطلاع تنظيم جيشنا ومعرفة أين تكثر قواتنا وأين تقل ، فلما وقف على ذلك كله كرّ راجعاً للبحث عن رجاله وهيأهم لقتالنا ، ثم أنفذ أوامره إلى من عنده من البدو

---

(١) فى م « فارس وراجل » دون كلمة تركى .

الذين كانوا لا يقلون عن ثلاثة آلاف بدوى بالتقدم أمام رجاله والزحف على معسكر دوق برجنديا الواقع بين فرعى النهر ، وقد حمله على ذلك ظنه أن الملك لا بد مرسل بعض رجالاته لمعاونة الدوق فى دفع أولئك البدو ، وبذلك يضعف جيش الملك .

• • •

معركة أسبوع الصوم الكبير

٢٦٦ — فرغ القائد من تنظيم هذه الأمور ظهر اليوم التالى ، وحينذاك أمر بضرب الطبول المسماة بالنقارات ضربا عاليا ، جريا على مألوف عادة الترك التى تُدهش من لا عهد له بها كل الدهشة ، ثم هاجمونا مشاة وفرسانا ، وسأخبرك أولا عن ملك صقلية وكان لا يزال إذ ذاك كونت أنجو ، لأنه كان على رأس الفريق المتجه إلى القاهرة ، فقد تقدم العدو نحوه كما لو كان يلعب الشطرنج لأنهم تركوا أمر الهجوم عليه أولا إلى مشاتهم الذين أخذوا يرمونه بالنار الإغريقية التى كانوا يصبونها عليه من آلات صنعت لهذا خصيصا .

ثم أخذ المشاة والفرسان معاً فى التضييق على رجالنا فى عنف وسرعة ، حتى تمكنوا من هزيمة كتيبة كونت أنجو الذى وقف بين فرسانه وقد اشتد به الضيق .

٢٦٧ — فلما طرق سمع الملك نبأ الخطر الفادح المحدق بأخيه لم يستطع كبح جماح اندفاعه ، ولم يتمكن من انتظار أحد ما ، بل امتطى فى الحال صهوة

جواده وانطلق به بين رجال أخيه ، وسيفه فى قبضته يقتل به من الترك من يصيبه .

وأصابته ضربات كثيرة قوية منهم ، ورموا حصانه بنارهم الإغريقية فأحرقوا سرجه وذيله ، ولا شك أن الرب كان فى قلبه وفكره ساعتئذ ، وأن سيدنا أغاث الملك فى هذه المحنة وأيّده حتى تمكن من إنقاذ أخيه كونت دانجو[1] واستطاع رد الترك على أعقابهم عن المعسكر .

٢٦٨ــ وتلى قوات كونت دانجو قوات سير جى دى جوفلانز وأخيه بلدوين، ثم جاءت من بعدهم كتيبة وولتردى شاتيون القوى الشجاع ، وكان بصحبته كثير من الفرسان الأشاوس ، وقد أظهرت هاتان الكتيبتان من البسالة ضد الترك ما جعلهما بمنأى عن الاندحار أو الهزيمة .

٢٦٩ — ثم جاء بعد ذلك الأخ وليم دى سونّاك رئيس الداوية مع ثلة قليلة من الإخوان الذين نجوا معه بعد وقعة ثلاثاء الزفر التى استحر فيها القتل ، فأمر رئيس الداوية — وليس معه غير القليل من الرجال — بإقامة متاريس من الآلات — التى كنا قد غنمناها من المسلمين — أمام معسكره للدفاع عنه ، غير أنها لم تكن ذات جدوى ، إذ رماها المسلمون بالنار الإغريقية التى علقت بمواضعه الداوية فيها من الكثير من ألواح خشب الصنوبر .

ويجب أن تعرف أن الترك لم ينتظروا حتى تخمد النيران بل أغراهم ما عليه الداوية من قلة العدد ، فانثالوا عليهم من خلال اللهيب وما لبثوا أن هزموهم .

---

(١) فى الأصل ملك صقلية ، ولم يكن حين ذلك قد تولى ملكها .

٢٧٠ — وفى هذه المعركة فقد الأخ وليم رئيس الداوية إحدى عينيه ، وكان قد فقد الأخرى من قبل يوم ثلاثـــاء الزفر ، وما لبث أن مات . عليه الرحمة .

ويجب أن تعرف أنه كان يوجد خلف المـكان الذى كان الداوية واقفين فيه بقعة تقرب من ميل قد غطّتهامزاريقالمسلمين ورماحهم وقسيهم وسهامهم ، حتى استحال على العين أن ترى الثرى .

٢٧١ — جاءت بعد فريق الداوية قوات جى دى موفوازان التى لم يستطع الترك التغلب عليها أبداً ، وكان موفوازان خواض غمرات قد أثخنته الجراح ، فلما رأى الترك بسالته وصموده دأبوا على رميه بالنار الإغريقية التى وجد رجاله صعوبة كبرى فى التغلب عليها وقت إصابته بها . ومع ذلك فقد صمد صمود الأبطال وعجز الترك عن أن تـكون لهم الغلبة عليه .

نفس المعركة

٢٧٢ — كانت العوائق التى تدافع عن المعسكر تمتد من ناحية قوات موفوازان مسافة رمية حجر نحو النهر ، ثم تمر أمام فريق وليم كونت فلاندرز الذى تمتد قواته إلى ذلك الفرع من النهر الذى يصبّ فى البحر .

وكانت كتيبتنا مواجهة للعائق الذى يمتد من جانب معسكر موفوازان ، ولما رأى المسلمون أن قوات كونت فلاندر فى مواجهتهم لم يجرءوا على التقدم لمهاجمتنا : الأمر الذى حمدت الله من أجله إذ لم يـكن فى استطاعتى أنا وفرسانى أن ندّرع بشىء من جراء الجراح التى أصابتنا يوم وقعة ثلاثاء الزفر ، مما استحال معه علينا أن نلبس ما يقينا .

وأبدى كونت فلاندرز ورجاله كل عجيبة ، إذ شدّوا على المشـــاة والخيالة الأتراك فى بسالة وضراوة .

٢٧٣ — هاجم الترك — راجلهم وفارسهم — كونت فلاندرز بقوة وبسالة عظيمتين ، فلما رأيت ذلك أمرت رماة سهامنا أن يسددوها إلى فرسان الترك الذين ما كادوا يجدون أن سهامنا قد جرحتهم هم وجيادهم حتى ركنوا إلى الفرار وتركوا مشاتهم ، فلما شاهدهم الكونت ورجاله تخطى معهم الحواجز ، وكروا على رجالة المسلمين وأعملوا القتل فى الكثيرين منهم .

وممن برز فى هذه الوقعة ببسالة جوتيه دى لا هورن حامل راية كونت اسبرمونت .

٢٧٤ — جاءت بعد قوات كونت فلاندرز كتيبة كونت بواتييه أخى الملك المؤلفة من المشاة ، ولم يكن فيها من راكب جواداً سوى الكونت نفسه : الأمر الذى كان فيه ضرره ، إذ سرعان ما هاجمه الترك ووقع أسيراً فى قبضتهم ، وكان لابد لهم من الرحيل به لولا صيحات الفزع التى انطلقت من أفواه القصابين والعمال والعاملات فى تموين المعسكر حين سمعوا بأن المسلمين راحلون بالكونت دى بواتييه ، فاندفعوا على المسلمين فى غضب وأنقذوه من بين أيديهم ، وردوهم على أعقابهم بمعونة الرب .

٢٧٥ — ثم جاء بعد هذه القوات أضعف كتيبة فى الجيش بأجمعه وأعنى بها جماعة جوسيّراند دى برانسيون الذى قدم بصحبة الكونت إلى مصر ، وهو من أحسن الفرسان الذين ضمهم المعسكر ، فرتب رجاله بأن جعل كل

الفرسان مشاة وامتطى هو من بينهم جميعاً[1] جواداً ، وكذلك إبنه لورد هنرى وابن سيراند دى نانتون لأنهما كانا طفلين .

ولقد هاجم الترك رجاله عدة مرات ، فكان كلما رأى هجومهم عليهم أعمل مهمازه فى خاصرتى جواده وكر على مؤخرة الترك ، وكثيراً ما حدث إذ ذاك أن انصرف الترك عن مقاتلة رجاله إلى الهجوم عليه هو ذاته .

٢٧٦ ــ إلا أن هذا ما كان ليحول دون أن يتمكن الترك من قتلهم جميعا فى ميدان القتال لولا هنرى دى كون وكان من كتيبة دوق برجنديا ، وهو فارس عاقل طلعة ثاقب الرأى عارف بضعف كتيبة برانسون ، فكان يأمر رماة نشاب الملك بتسديد سهامهم إلى المسلمين وهم عبر النهر كلما رآهم يهاجمون دى برانسون، الذى استطاع بهذه الوسيلة أن ينجو من الخطر المحدق به ذلك اليوم ، وإن فقد من فرسانه العشرين : إثنى عشر شخصا ، دون الإشارة إلى غيرهم من الجند ، بل إنه هو ذاته قد أصيب إصابة بالغة لم يستطع بعدها أبداً أن يقف على قدميه ، ومات بجراحه فى سبيل الرب .

٢٧٧ ــ والآن سأحدثك بعض الشيء عن برانسيون[2] ، فقد اشترك حتى يوم موته فى ست وثلاثين معركة ومبارزة ومناوشة خرج منها جميعها

---

(١) جاءت رواية م على الصورة التالية : كانت هذه الكتيبة مؤلفة هى الأخرى من فرسان ومشاة ، ولم يكن بينهم من راكب سوى جى دى سيرانت وابنه سير هنرى ، وقد هاجم الترك هذه الكتيبة من جميع النواحى فكر سير جى دسيرانت وولده على مؤخرة الترك وقتلاهم بسيوفهما .

(٢) هناك اختلاف كبير بين ترجمة م وبقية النسخ حول هذا الاسم ، فنى الأصل الذى ترجمنا عنه والذى ترجم عنه « ويلى » جاء قوله Dou signour de Brancion vous dirai أما نسخة جوانزفيشم منها أنه يتكلم عن هنرى دى كون .

منصوراً ، وقد رأيته ذات مرة فى جيش كونت دى شالون ابن عمه وجاء إلى وإلى أخى ؛ وكان اليوم يوم جمعة الآلام وقال لنا : « تعالا إلىّ يا ابنَىْ أخى أنتما ورجالكما وانضموا إلينا فى مهاجمة هؤلاء الألمان الذين يُعملون يد التخريب فى الكنيسة » .

فذهبنا معه وكررنا عليهم مشرعين سيوفنا ، وبعد اشتباك مرير وجهد عنيف تمكنا من طردهم من ساحة الكنيسة .

٢٧٨ ـ فلما تم ذلك ركع هذا الرجل المستقيم الطيب أمام المذبح وهتف بمخلصنا بصوت عالٍ قائلا : « ياسيد ، أتوسل إليك أن تحوطنى برحمتك ، وأن تخرجنى من تلك الحروب التى يقتتل فيها المسيحيون وقد عشت فيها ردحاً طويلا ، وهبْنى ميتة أموتها فى سبيلك لأحظى بملكوت نعيمك » .

ولقد أخبرتك بهذه الأمور لتعرف أن الرب ـ كما أعتقد ـ قد استجاب لدعائه كما رأيت مما ذكرته آنفاً .

٢٧٩ ـ بعد الفراغ من هذه الوقعة التى جرت فى أول يوم جمعة من عيد الفصح استدعى الملك إليه جميع باروناته [١] وقال لهم : « يجب علينا أن نشكر مخاصنا لأنه أسبغ علينا فضله مرتين خلال هذا الأسبوع ، أولاهما يوم الثلاثاء حينما أخرجنا العدو من معسكره الذى نقيم فيه الآن ، والأخرى يوم الجمعة التالى له وذلك حين دفعناهم عنا وقد كنا مشاة بينما كانوا هم على صهوات جيادهم » ، وقال لهم الملك كثيراً غير هذا من الأقوال المرضية المشجعة .

• • •

---

(١) ف م « وفرسانه وكبار رجالاته » .

جنـــد الحلقة [1]

٢٨٠ — ربما كان من الملائم ونحن نتابع سرد قصتنا أن نتريث قليلا هنا بغية إظهار كيفية احتفاظ السلاطين بجيوشهم فى صورة منظمة، ويتألف الجانب الأكبر من خيالة السلطان من الأجانب الذين جلبهم التجار للبيع من أراض غريبة، والذين يُقبل السلاطين على شرائهم مرحبين غير مقصرين [2] فى الثمن .

ويجلب التجار هؤلاء الناس إلى مصر من بلاد الشرق ، إذ يحدث عند ما يهزم أحد الملوك الشرقيين ملكا آخر أن يستولى الغالب على البؤساء الذين هزمهم ويبيعهم للتجار الذين يأتون بهم إلى مصر .

٢٨١ — أما فيما يتعلق بالأطفال فيربيهم السلطان فى بيته حتى تأخذ لحاهم فى النمو [3] ، وعليه أن يرى أن فى أيديهم أقواساً تلائم قواهم ، حتى إذا اشتد ساعدهم أخذوا بعضهم إلى دار صناعة السلطان وجهزهم كبير صانع الأقواس بأقوى ما لديه من أقواس يستطيعون الرمى بها .

٢٨٢ — كانت أسلحة السلطان من الذهب ، وكان هؤلاء الشبان الصغار يحملون نفس أسلحة السلطان ، وهم يسمون بالبحرية، ولا تكاد لحاهم تظهر حتى يعمد السلطان إلى تنصيبهم فرساناً ، ويتخذون رنوكاً تشبه رنوك

---

(١) فيما يتعلق بجند الحلقة ، راجع ما كتبه

Ayalon : Structure of the Mamluk Army (B.S.O.A.S), pp. 448-451.

(٢) فى م « والجانب الأكبر من خيالته من الأجانب الذين يشتريهم صغاراً جماعة التجار المسافرين بحرا ، ثم يشتريهم المصريون بأمر من السلطان » .

(٣) فى م جاءت هذه العبارة على النحو التالى : « أما الأطفال الذين يستولدون من هؤلاء الأسرى فيقوم السلطان بتربيتهم وتعليمهم ، فإذا نبت شعر عارضهم علموهم الرمى عن القوس للهو » .

السلطان من الذهب الخالص إلا فارقاً واحدا يميزهم عنه ، ذلك أنهم يضيفون إليها قضباناً قرمزية اللون حليت بالزهور أو الطيور أو ما يروقه .

٢٨٣ — وهؤلاء الناس الذين أحدثك عنهم الآن يسمون بجند الحلقة ؛ وهم رماة السهام فى جيشه ، ذلك لأن البحرية كانوا ينامون فى خيمة السلطان، فإذا كان السلطان فى معسكره أقام الحلقة فى الحجرات المجاورة له محافظة على حياته .

وللسلطان — عدا جنـد الحلقة — حراس آخرون يقيمون عند مدخل قصره فى خيمة صغيرة ، منهم خدمه وعسكره الذين يدقون الكوسات والطبول وينفخون فى الأبواق ، ويحدثون بهذه الآلات جلبة عظيمة عند مطلع النهار وعند مقـــدم الليل [1] حتى يستحيل على القريبين منهم أن يسمعوا ما يقوله أحدهم ، ولكن ضرباتها تتردد بجلاء فى كافة أرجاء المعسكر .

٢٨٤ــ ولا يستطيع نافخو الأبواق الضرب بآلاتهم أثناء النهار إلا إذا أمرهم بذلك رئيس الحلقة ، فإذا أراد السلطان شيئاً ما ، أو رغب فى إصدار أوامره إلى عسكره ، أفضى بهذا الأمر الى مقدم الحلقة الذى يأمر بدوره رجاله بالنفخ فى أبواقهم ودق طبولهم وكوساتهم ، وإذ ذاك يجتمع أمام دهليز السلطان جميع مقدمى الجيش فيفضى إليهم مقـــدم الحلقة بمشيئة السلطان فيطيعونهـا طاعة عميـاء .

٢٨٥ــ وإذا ذهب السلطان بنفسه الى الحرب اختار من بين فرسان الحلقة أشجعهم وأحسنهم إدارة ، وجعله مقدماً عليهم جميعاً .

---

(١) فى جونز جاءت هذه العبارة على الصورة التالية « من مطلع النهار حتى يستيقظ السلطان » .

٢٨٦ — أما طريقة معاملة السلطان لكبار فرسان الحلقة فتتلخص فى أنه إذا برز أحدهم بقوته أو فروسيته فلا تعود ثمت حاجة إليه ، ويستطيع أن يعيش مستقلا ، ويتسرب الخوف إذ ذاك إلى نفس السلطان من أن يخلعه أو يقتله ، وإذ ذاك يلقى القبض عليه ويزج به فى السجن حيث يقتل سراً ، وينزل السلطان الحوطة على كل ما يكون القتيل قد خلفه لزوجه وأولاده ؛ وقد حدث مثل هذا من السلطان إزاء من أسروا كونت دى مونتفورت وكونت دى بار ، وكما فعل البندقدارى بمن هزموا ملك أرمينيا الذين ذهب بهم الظن الى أن السلطان لابد مكافئهم على ما فعلوا ، فترجلوا وذهبو لتحيته أثناء صيده الوحوش البرية ولكنه قال لهم : لا أرد عليكم السلام ، فقد أفسدتم علىّ لذة الصيد » ، وأمر بقتلهم[1] .

المؤامرة على السلطان الجديد

٢٨٧ — لنعد الآن إلى الموضوع الذى كنا فيه ونقص من خبر السلطان الذى كان قد مات أنه خلّف ولداً[2] فى الخامسة والعشرين من عمره وكان شاباً عاقلا لبقا داهية ، وإذ كان السلطان يخشى أن يخلعه ابنه فقد أبعده عنه وولاّه إمرة مملكة كانت له فى الشرق .

---

(١) فى نسخة جونز جاء هذا الخبر على الصورة التالية : « وقد فعل مثل هذا بالبندقدارية من رعاياه إذ جاءوا إليه بعد هزيمتهم ملك أرمينيا مفضين إليه بهذا النبأ فوجدوه يتصيد الوحوش ، فترجلوا إظهاراً لطاعتهم إياه ، وذهب بهم الظن إلى أنه لابد مكافئهم على حسن عملهم ، فنظر إليهم شزراً وتلقاهم متجهما وقال إنه لن يرد سلامهم لأنهم أضاعو عليه لذة صيده وأمر بإطاحة رءوسهم » .

(٢) يعنى بذلك توران شاه .

بيد أن أمراء مصر ما لبثوا — وقد مات السلطان — أن بعثوا فى استقدام الابن وولوه سلطاناً عليهم ، ولكنه ما كاد يأخذ مقاليد الأمور فى يديه حتى عمد إلى استرجاع ما بيد أمراء أبيه وأتباعه من صولجانات ذهبية، وخلعهم من وظائفهم وأنعم بها على من صحبوه من الشرق .

٢٨٨ — فلما رأى أتباع أبيه ما فعله ابن مولاهم بهم اشتد غضبهم عليه وكَرِهَ فعاله مستشارو أبيه وأحسُّوا بالعار الشديد يلطخهم ، وأيقنوا أنه لا بد مصادرٌ أموالهم وموقع الحوطة عليها ، وسوف يسلك مسلك أبيه من قبل إزاء من أمسكوا كونت بار وكونت مونتفورت — كما علمت — ، فانعقد الإجماع منهم إذ ذاك على التخلص منه بقتلهم إياه ، واتصلوا بجند الحلقة الذين كانت مهمتهم حراسة شخص السلطان ،فوافقوهم على ملتمسهم بقتل السلطان .

المرض والمجاعة

٢٨٩ — بعد الفراغ من المعركتين المشار إليهما ، أخذ الجيش يقاسى الأمَّرين،فما انقضت تسعة أيام حتى أخذت جثث قتلانا الذين فتك بهم المسلمون تطفو على سطح الماء ، ويقال، إن ذلك يحدث دائما من انفجار الصفراء وتعفن الجثث التى اندفعت مع التيار حتى بلغت الجسر الواقع بين معسكرينا، فعجز التيار عن دفعها من جراء ملامسة الجسر لسطح الماء ، وبلغت الجثث من الكثرة حداً امتلأ معه النهر بها طولا وعرضاً حتى لم تعد العين قادرة على رؤية الماء على بعد رمية حجر من الشاطىء .

٢٩٠ — إستأجر الملك مائة من الزعر ظلوا يعملون ثمانية أيام سوياً لتنظيف النهر ، فكانوا يقذفون بجيف المسلمين الذين يعرفونهم من ختانهم على الجانب الآخر من الجسر ليجرفها التيار معه ، أما المسيحيون فيوضعون

فى خنادق كبيرة واحداً فوق الآخر[1]، وقد رأيت كبير مقدمى[2] كونت دارتوا وكثيرين غيره يفتشون بين الموتى عن أصدقائهم، غير أنى لم أسمع قط أن أحداً منهم تعرّف على من يريد .

٢٩١ — إمتنعنا طيلة أيام الصوم الكبيرعن السمك، ولم نأكل قط سوى ثعابين الماء التى تأكل الموتى لأنها من أنواع السمك الشره، وكان من جراء هذا الأمر وما صحبه من فساد هواء المنطقة حيث ينعدم المطر انعداماً تاماً أن اعترى الجيش بأجمعه مرض مروِّع كان يجف معه لحم أرجلنا حتى يبلغ العظم، ثم يسودّ الجلد حتى يصبح فى لون التراب أو الحذاء القديم وتكثر به البقع، وكان الذين يصابون بهذا المرض المريب يشكون علة أخرى فى فمهم من جراء أكل هذا السمك فتتعفن اللثة، وتغدو رائحة الفم أشد ماتكون كراهة . وندُرَت نجاة من ألمّ به هذا المرض الذى كان الدليل على أنه يحمل الموت : أن يدمى الأنف .

٢٩٢ — وحدث بعد أسبوعين من هذا الحادث أن حاول الترك إماتتنا جوعاً بعد أن عرفوا حالنا، وسحبوا بضعة سفن من سفنهم إلى اليابسة، ثم أنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرنا، فاستحالت عودة من كان قد ذهب من رجالنا إلى دمياط لجلب المئونة : الأمر الذى أدهشنا جميعاً،

---

(١) جاء فى م هذا الخبر على الصورة التالية : « ويعلم الله مبلغ الزهومة التى كانت تزكم الأنوف والألم الذى يستشعره المرء وهو يشاهد جثث هؤلاء النبلاء والسادة الأفاضل وهى نهب العيون » .

(٢) فى م « وأبصرت كبير مقدمى كونت دارتوا يبحث عن جثة مولاه . . . غير أنى لم أسمع قط أن أحدا من أولئك الذين التمسوا أصدقاءهم وسط هذه الروائح الخانقة قد استرد صحته أو تعرف على من يريد » .

إذ لم نعرف سبب عدم عودتهم ، حتى شاعت الظروف أن يفلت من هذه السفن مركب صغير من مراكب كونت فلاندرز ، فأنبأنا رجاله كيف سحب السلطان جميع سفنه إلى اليابسة ووضعها شمال معسكرنا ، مما مكن المسلمين من مراقبة جميع المراكب الذاهبة إلى دمياط ، وأنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفننا كانت قادمة من دمياط وقتلوا بحارتها جميعاً .

٢٩٣ — أدت هذه الأمور جميعها إلى أن عمّ الغلاء المعسكر ، فما وافى عيد الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيهاً ، ورأس الغنم بثلاثين والخنزير بثلاثين ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة اثنتى عشرة دنية ، وبيع كأس الخمر بعشرة جنيهات .

معاودة عبور النهر

٢٩٤ — فلما رأى الملك والبارونات ألاّ سبيل إلى معالجة هذا الأمر ، اتفق رأيهم على أنه يتحتم على الملك نقل مخيمه من موقعه المؤدى إلى القاهرة إلى البقعة التى يعسكر فيها دوق برجنديا على فرع دمياط .

ولكى يضمن الملك سلامة ارتداد جميع رجاله أصدر أمره بتشييد برج أمام الجسر الواقع بين معسكرينا ، فكان فى قدرة المرء أن يدخل من جانب البرج على ظهر جواده .

٢٩٥ — لم يكد البرج يقام حتى كان جميع عسكر الملك فى كامل سلاحهم ، وهاجم التركُ فى قوة دهليز الملك الذى لم يتحرك هو أو رجاله رغم شدة الهجوم حتى تم نقل جميع المتاع . وإذ ذاك مرّ الملك ومن ورائه جميع جنده ، ومن خلفهم بقية جميع البارونات ماعدا وولتر دى شاتيون الذى كان على المؤخرة .

وبينما كانوا يدخلون البرج أنقذ إيفيرارد دى فاليرى أخاه جون الذى كان الترك قد أسروه .

٢٩٦ـ ولما مرّ جميع الجيش أصبح الذين بقوا فى البرج فى خطر شديد ، ذلك أن البرج لم يكن مرتفعاً ،فاستطاع خيالة الترك أن يصيبوا رجالنا بسهامهم ، كما استطاع رجالتهم أن يحصبوهم بالتراب فى وجوههم ، وكاد الجميع أن يدرجوا فى عداد الفاقدين، لولا أن هب لنجدتهم كونت دانجو الذى صار فيما بعد ملك صقلية وعاد بهم سالمين .

وفى هذا اليوم نال جوفرى موزامبورج استحسان جميع من كانوا فى البرج .

٢٩٧ — وفى مساء ثلاثاء الزفر شاهدت معجزة سأقص عليك خبرها الآن : إذ دفن فى هـذا اليوم هيج دى لاندرى كورث وهو حامل رايتى ، وبينما كان مسجىّ على نعشه فى كنيستى كان ستة فرسان من فرسانى متكئين على غرارات ، ملآى بالشعير وقد علت أصواتهم فوق صوت القسيس، فذهبت إليهم سائلاً إياهم الركون إلى الصمت ، وأنبأتهم أن ارتفاع أصواتهم أثناء ترتيل القداس أمر يزرى بهم كفرسان وكسادة محترمين .

٢٩٨ ـ وحينذاك شرعوا يقهقهون،وأخبرونى أنهم يحتفلون بعرس أرملة المتوفى،فنهرتهم فى عنف وأنبأتهم أن هذه كلمات لاتليق بهم ولا يحسن سماعها، لأنهم سرعان مانسوا رفيقهم .

وقد انتقم الرب منهم ، ففى غداة وقعة ثلاثاء الزفر راح الستة ما بين قتيل هالك ، وجريح لا يرتجى شفاؤه .

• • •

مرض جوانفيل وموت قسيسه

٢٩٩ — كان من أثر الجراح التي أصابتني يوم ثلاثاء الزفر أن ابتليت بمرض الجيش في فمي وساقي ، كما اعترتني حمّى ثلاثية ، فألم بي برد شديد في رأسي ، فكان الرشح ينطلق من رأسي إلى أنفي ، وكان من جراء هذه الأمراض أن لزمت فراشي في منتصف أسبوع الصيام الكبير ، فكان قسيسي يأتي إليّ مرتلا القداس أمام سريري وفي مخيّمي ، ثم ما لبث هذا القسيس أن نزلت به نفس الوعكة التي نزلت بي .

٣٠٠ — وحدث في أثناء ترتيله أن اعترته غيبوبة أوشك معها على السقوط ، فوثبت من فراشي حافي القدمين وليس عليّ سوى قميص ، وأخذته بين ذراعيّ وطلبت إليه أن لا يرتّل إلا وقت راحته ، وأن يتابعه بهدوء ، وأنبأته أنني لن أتركه حتى يفرغ من الترتيل ، فعاد إلى وعيه، وفرغ من إنشاده ورتّل القداس .

ولكن لم يحدث قط أن ردّده مرة أخرى .

. . . .

شروط المصريين المهينة

٣٠١ — بعد أن مرّت هذه الأحداث اتفق مستشار الملك ومندوب السلطان على يوم يعقدون فيه الاتفاق بين الطرفين ، وكانت الشروط المقترحة هي أن نردّ دمياط للسلطان على أن يرد السلطان للملك بيت المقدس ، وأن يتعهّد السلطان بالمحافظة على المرضى الموجودين في دمياط ، وكذلك اللحوم المملّحة لأن قومه لا يأكلون لحم الخنزير ، وأن يتعهد بالعناية بآلات الحرب الخاصة بالملك حتى يتمكن الملك من إرسال من يسترد هذه الأشياء جميعها .

٣٠٢ — وقد سأل المصريون مستشار الملك عما يعطيه الصليبيون من ضمان لإعادة دمياط للسلطان ، فتقدم مستشارو الملك وعرضوا تسليم أحد إخوة الملك: كونت دانجو أو كونت دى بواتييه حتى يتم تسليم مدينة دمياط للسلطان .

لكن المسلمين قالوا إنهم لن يرضوا برهينة بديلا عن الملك ، وإذ ذاك قال لهم جو فرى دى سارجين الفارس الطيب : «لأنْ يقتل المسلمون جميع رجال الجيش أو يأخذوهم أسرى أهون على نفسه من أن يترك الملك رهينة لديهم ».

٣٠٣ — وأخذ المرض ينتشر فى صفوف الجيش ، كما أخذ اللحم الميت فى النمو على لثتنا مما حمل الحلاقين على قص هذا اللحم ، حتى يتمكن الناس من مضغ طعامهم وابتلاعه .

وكان مما يقطع نياط القلب سماع الصراخ يدوى فى معسكر الجماعات الذين تنتزع لحومهم الميتة ، لأنهم كانوا يصرخون صرخات نسوة يعانين آلام الوضع .

إرتداد الجيش براً وبحراً

٣٠٤ — حين رأى الملك أن بقاءه هناك لا يعنى سوى الموت له هو ورجاله أمر بتقويض المعسكر فى مساء يوم الثلاثاء(١) بعد ثامن أيام عيد الفصح استعداداً للعودة إلى دمياط ، كما أمر بإخبار التجار الذين لديهم سفن أن يحضروا المرضى إلى دمياط .

كذلك وجه جوسلين دى كورفوت وإخوته وسواهم من المهندسين إلى قطع الحبال التى تشد الجسر القائم بيننا وبين المسلمين ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك .

---

(١) هو الخامس من أبريل ١٢٥٠

٣٠٥ — فلما كان عصر الثلاثاء أبحرتُ بعد تناول الغذاء أنا وفارسان هما كل من تبقى لدى ممن كان معى من فرسانى وخدمى . وحينما أخذ الليل يرخى سدوله أخبرت من معى من الملاحين برفع المرساة والإقلاع ، ولكنهم قالوا إنهم لا يجرءون على ذلك لأن مراكب السلطان التى كانت بيننا وبين دمياط لابد وأن توردنا موارد الهلاك .

وأشعل الملاحون نيرانا كثيرة لجمع المرضى فى سفنهم ، وأخذ المرضى يجرون أنفسهم جرا إلى شاطئ النهر ، وبينما كنت أحض البحارة على الإقلاع بنا دخل المسلمون المعسكر ، ورأيتهم — على ضوء النيران — يذبحون المرضى على الشاطىء .

٣٠٦ — بينما كان ملاحيَّ يرفعون المرساة كان الملاحون المخصَّصون لأخذ المرضى يقطعون حبال سفنهم ، ثم جاءوا فى محاذاة سفينتنا الصغيرة وأحاطوا بنا من كل جانب حتى لا يدعوا لنا سبيلا إلى الفرار ، فلما قيضت لنا النجاة من هذا الخطر نزلنا مع التيار .

وكان فى قدرة الملك الذى أصيب بمرض الجيش وبالدوسنطاريا الخبيثة أن ينجو من الخطر بركوبه هذه السفن ، ولكنه قال إنه لن يتخلى عن رجاله مرضاة لله . وقد أغمى عليه فى تلك الليلة عدة مرات بسبب الدوسنطاريا الحادة التى ألمت به ، فقد كان من الضرورى قطع الجزء الأسفل من سراويله لكثرة تغوّطه .

٣٠٧ — أما الذين كانوا سابحين فى الماء فقد صاحوا بنا بوجوب انتظار الملك ، فلما لم ننتظره أخذوا يرموننا بسهامهم ، مما أرغمنا على التوقف حتى أذنوا لنا بالتقدم .

• • •

٣٠٨ — والآن سأدع جانباً الكلام عن هذا الأمر ، وأخبرك كيف كان أخذ المسلمين للملك كما رواه هو لى شخصياً . فقد أنبأنى كيف أنه ترك فريقه ووضع نفسه هو وجوفرى دى سارجين فى الفريق الذى كان تحت إمرة جوشيه دى شاتيون الذى كان يقود مؤخرة الجيش .

٣٠٩ — وقصّ على الملك أنه كان ممتطيا المهر الصغير وعليه برذعة حريرية ، وقال إنه لم يبق معه من جميع فرسانه وسرجنديته سوى جوفرى دى سارجين الذى أحضر الملك إلى قرية صغيرة حيث أخذ الملك أسيراً .

وروى لى الملك أيضاً أن جوفرى دافع عنه ضد المسلمين دفاعاً مجيداً كما يدفع الخادم الأمين الذباب عن كأس شراب مولاه ، فكلما اقترب المسلمون منه استلّ رمحه ورفعه إلى ذراعه واندفع عليهم وأبعدهم عن الملك .

٣١٠ — وبذلك أحضر الملك إلى القرية الصغيرة فوضعوه فى منزل وسجوه كأنه ميت ، بعد أن وضعوه فى حجر امرأة من باريس ، وظنوا أنه لن يبقى حيا حتى الليل .

وهناك جاء سيدى فيليب دى مونتفورت وقال للملك إنه رأى الأمير الذى عقد معه الهدنة ، وأنه[1] مستعد للذهاب إليه — إذا وافق الملك — لتجديد البحث فى شأن الهدنة على الصورة التى يريدها المسلمون ؛ فتوسل إليه الملك بأن يمضى إليه وقال إنه راغب فى ذلك كل الرغبة .

ومن ثم فقد مضى فيليب إلى الأمير المسلم الذى خلع عمامته من على رأسه واستل خاتمه من أصبعه رمزاً إلى أنه سينفذ الهدنه فى أمانة .

(١) أى فيليب دى مونتفورت .

٣١١ — غير أنه حدث فى هذا الوقت بالذات شر عظيم لرجالنا ، إذ قام سر جندى خائن منا اسمه مارسيل وأخذ فى الصياح على رجالنا قائلا : « سلموا أنفسكم أيها السادة الفرسان ، فهذا أمرُ الملك إليكم ولا تكونوا سبباً فى قتله » . فظن الجميع أن هذه إرادة أصدرها الملك إليهم ، فاستجابوا له وسلموا إلى المسلمين سيوفهم .

فلما رأى الأمير جماعتنا فى أسر المسلمين قال لفيليب إنه ليس من الملائم أن يمنح رجالنا هدنة بعد أن رآهم رأى العين فى أسره .

٣١٢ — وهكذا تأتّى لفيليب أن يشاهد أخْذَ المسلمين لجميع رجالنا فى الأسر ، ولم ينج منهم سواه لأنه كان إذ ذاك رسولا رغم ما كان فى البلاد من عادة شريرة هى أنه إذا بعث الملك رسلاً من قبله إلى السلطان أو أنفذ السلطان رسلا من لدنه إلى الملك ، ثم حدث أن مات السلطان أو الملك قبل عودة الرسل ، أخذوا الرسل — مسلمين كانوا أم مسيحيين — فى الأسر واسترقوهم[١] .

***

بقاء جوانفيل فى النهر

٣١٣ ـ فى الوقت الذى حاق فيه الخطب برجالنا ـ وأعنى به أخذهم أسرى وهم على اليابسة — وقعنا نحن أسرى كذلك .

لم نكن نحن الذين ركبنا السفن قادمين إلى دمياط أحسن حظاً ممن

(١) راجع رقم ٣٦٤

كانوا على اليابسة فقد وقعنا جميعاً فى قبضة الأسر ، إذْ هبت ريح عاصفة من ناحية دمياط ضد التيار ، فهرب الفرسان الذين كان الملك قد رتبهم فى القوارب الخفيفة للدفاع عن المرضى ، ولم يستطع ملاّحونا التحكم فى التيار ، فانطلقوا إلى أحد الخلجان واضطرونا إلى الارتداد إلى الوراء ناحية المسلمين .

٣١٤ — وقبيل انبثاق الفجر جئنا — نحن الذين كنا فى السفن — إلى مجازٍ تقف فيه سفن السلطان لمنع وصول المئونة إلينا من دمياط ، فلما رآنا من بها من المسلمين أحدثوا جلبة كبرى ، وأخذوا فى رمينا ورمى فرساننا الواقفين على الشاطىء بنشابهم وبالنار الإغريقية ، حتى لقد كان يخيل لرائيها أن نجوم السماء تنقضّ من علٍ .

٣١٥ — ولما خرج بنا بحارتنا من الخليج الذى كانوا قد أخذونا إليه وجدنا قوارب الملك الخفيفة التى كان الملك قد أعدّها للدفاع عن مرضانا تسابق الريح فى الرحيل إلى دمياط .

ثم هبت من ناحية دمياط ريح قوية حالت بيننا وبين التقدم .

٣١٦ — كان على جانبى النهر مجموعة كبيرة من قوارب رجالنا الذين لم تسعفهم الفرصة بركوب النهر فوقعوا فى أسر المسلمين الذين احتفظوا بالقوارب وفتكوا برجالنا وألقوا بهم فى اليم ، وأخذوا فى جرّ الصناديق والأمتعة من من القوارب التى استولوا عليها .

أما الخيالة المسلمون الواقفون على الشاطىء فقد أخذوا يرموننا بالنشاب لأننا لم نذهب إليهم ، وألبسنى رجالى درقتى الواقية حتى لا تجرحنى النشاب المتساقطة فى قاربنا .

٣١٧ — وفى هذه اللحظة صاح بى رجالى الذين كانوا فى مؤخرة القارب : « مولانا ، مولانا ، إن بحارتك يعتزمون أخذك إلى الشاطىء لأن المسلمين يهددونهم » ، فرفعت نفسى معتمداً على ذارعى لشدة ما بى من الضعف ، وجردت عليهم سيفى وقلت لهم إننى لا مناص من أقتلهم إن أخذونى إلى الشاطىء ، فخيّرونى بين واحد من اثنين : إما أخذى إلى الشاطىء أو الإرساء فى وسط النهر حتى تهدأ الريح ، فقلت لهم إننى أوثر أن يرسوا بى فى وسط النهر على أن يأخذونى إلى الشاطىء ، حيث لا مفر لى إذ ذاك من الموت المحقق .

فاستجابوا لأمرى .

٣١٨ — لم نلبث قليلا حتى رأينا أربعة من سفن السلطان قادمة نحونا وعليها ألف رجل ، فناديت فرسانى وجماعتى وسألتهم أى سبيل يسلكون : أيستسلمون لسفن السلطان أم يستسلمون لمن على البر ؟ . فانعقد الرأى منا جميعاً على أن الخير لنا فى الاستسلام لسفن السلطان لأننا نكون إذ ذاك جميعاً معاً ، أما إذا استسلمنا لمن على الساحل فسوف يوزعوننا ويبيعوننا للبدو .

٣١٩ — حين ذاك قال أحد أتباعى وهو من مواليد أوليفانت ، «سيدى اللورد ، لست أتفق معكم فى هذا القرار » ، فسألته : « ومارأيه » ، فأجابنى « أن نصيحتى هى أن نُقتل جميعاً لأننا إذ ذاك سنتبوأ مقعدنا من الجنة » ، غير أننا لم نكترث بما قاله .

استسلام جوانفيل للأسر وتهديد حياته

٣٢٠ — حينما رأيت أننا لابد مأسورون تناولت صندوق مجوهراتى وقذفت به وبما فيه فى النهر ، وأتبعته بما لدىّ من الآثار المقدسة . وحينذاك قال

لى أخذ بحارتى «سيدى اللورد ، إذا لم تأذن لى بأن أقول لهم إنك ابن عم الملك فإنهم لا بد قاتلوكم جميعاً ونحن معكم أيضاً » ، فأذنت له أن يقول ما يشاء .

وحينما قدم نحونا من كانوا على السفينة الأولى وسمعوا ذلك الزعم ألقوا مراسيهم على مقربة من قاربنا .

٣٢١ — وحينذاك بعث لى الرب نجـــــدة تمثلت فى مسلم من بلاد الإمبراطور[١] يرتدى سراويل من التيل الخـام ، فعبر النهر سباحة وجاء إلى قاربى واحتضننى من ركبتى وقال : « أيهـا اللورد ، لا بد أنك مقتول إن لم تستمع لمـا أقول ، وعليك أن تقفز إلى النهر من قاربك ، ولن يراك أحـــد أو يلقى بالا إليك ، لأن الجميع سيكونون مشغولين بالغنيمة التى سيجدونها فى مركبك » .

ورمى لى أحدهم حبلا من القارب فتسلقته إلى المقدمة كما شاء الله . ويجب أن تعرف أننى كنت شديد الضعف ولو لم يقفز المسلم ورائى ويمسك بى لـكنت من الغارقين .

٣٢٢ — وضعونى فى المركب حيث كان به مائتان وثمـانون من رجالهم غير الذين كانوا على سفينتى ، وكان المسلم يمسكنى دائماً بين ذراعيه ، ثم ألقوا بى على الأرض ووثبوا على لقطع رقبتى لأن كلاً منهم كان يرى قتـلى بيده شرفاً له ، لـكن المسلم أمسك بى بشدة وصرخ فيهم « ابن عم الملك »

---

(١) يقصد بذلك الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمـانيا وكانت له أملاك فى الشرق راجع رقم ٣٣٦

وإذ ذاك ألقوا بى على الأرض مرتين ، وألقوا بى على ركبتى مرة أخرى ، ثم شعرت بالسكين على رقبتى ، ولقد أنقذنى الرب فى هذه الشدة بمعونة قدّمها إلىّ ذلك المسلم ذاته ، إذْ أخذنى إلى برج السفينة حيث كان فرســان المسلمين مجتمعين .

٣٢٣ — فلمـا صرت بينهم خلعوا عنى رنكى ، ودفعتهم رحمتهم بى لأن يلقوا على لحافاً قرمزيا مخططا كانت سيدتى الأم قد أعطتنى إياه ، وأحضر لى أحدهم حزاماً أبيض فتمنطقت به فوق اللحـــاف ، وعملت فى اللحـــاف فتحة مستعملا إياها مثل جلبـــاب ، وأحضر لى آخر قلنسوة وضعتها على رأسى ، وما لبثت أن سرت فى جســدى قشعريرة قوية مبعثهـا الخوف الذى كنت فيـه والمرض الذى كنت أعانيه ، واصطـكت أسنانى ، ثم سألتهم شيئا أشربه فجاءونى بقليل من الماء فى جرة ما كدت أرفعها وأنهل منها جرعة حتى لفظته قويا من أنفى ، والله يعلم سوء حالى ، فقد كنت أتطلع الى الموت أكثر من تطلعى للحياة من جراء دمل فى بلعومى .

٣٢٣ — فلمـــا رأيت ذلك بعثت فى طلب رجالى وأخبرتهم أنى هالك لا محالة ، وقد رأيت الدمل فى حلقى فسـألونى وكيف عرفته فأريتهم إياه ، وما كادوا يرون الماء يرتد من حلقى ويندفع من فتحتى أنفى حتى علا نحيبهم ، فلما رآهم الفرسان المسلمون الموجودون يبكون أقبلوا يتساءلون عن علة بكائنـا من المسلم الذى أنجانا ، فأجابهم بأنه فهم أنى أصبت بخرّاج فى الحلق، وألا أمل لى فى

الشفاء منه ، وحينذاك أخبره أحد الفرسان المسلمين أن يأمرنا بالاطمئنان[1] ، لأنه سيعطيني شيئاً أشربه فيشفيني مما بي في مدى يومين ، وفعل ما قال . وسرعان ما برئت من علتي بفضل رحمة الله ، وبفضل الشراب الذي أعطانيه الفارس المسلم .

٣٢٥ — أما سيدي راءول ورد ڤانو أحد أتباعي فكان قد عوقب في الوقعة الكبرى التي جرت يوم ثلاثاء الزفر وأصبح عاجزا عن الوقوف على قدميه . ويجب أن تعرف أن فارساً مسلما عجوزا ممن كانوا في المركب كان يرفعه من عنقه إذا ما أراد قضاء حاجته .

جوانڤيل أسير في المنصورة

٣٢٦ — بعث أمير السفن الكبير في طلبي وسألني عما إذا كنت ابن عم الملك فأجبته نفيا ، وأخبرته كيف ولماذا قال البحار إنني ابن عم الملك ، فاستصوب الأمير فعلي وذكر أنني سلكت عين الصواب وإلا كنت ورجالي بين القتلى ، ثم سألني عما إذا كانت هناك قرابة ما تربطني بفردريك إمبراطور ألمانيا الذي كان حيا إذ ذاك ، فأجبته بأنني أظن أن سيدتي الوالدة تربطها به رابطة القرابة ، فقال إنه ازداد حباً لي من أجل هذا الأمر .

---

(١) رواية م على الصورة التالية : « سأل المسلم الذي أنقذني رجالي عن علة بكائهم ، فأفهموه أنني على وشك الموت من دمل في حلقي يؤذيني ، وحينذاك ذهب هذا المسلم الطيب الذي كان عطوفا علي ليفضي بهذا الخبر إلى واحد من الفرسان المسلمين الذي طلب إليه أن يطمئن » .

٣٢٧ — وبينما كنا نتناول الطعام إذا بالفارس يبعث فى استقدام أحد أبناء باريس الذى قال لى حين حضر : « سيدى اللورد ، ماذا تفعل ؟ » فسألته : « وما ذا أنا فاعل؟ » فقال لى « تعالى الله ، أتأكل لحما يوم الجمعة ؟ » ، فلما سمعت ذلك وضعت وعاء طعامى خلفى ، فعاج الأمير على صاحبى المسلم سائلاً إياه « لم فعلت ما فعلت ؟ » ، فأخبره بجلية الأمر ، فقال الأمير : «إن الرب لن يعتبر على هـــذا خطيئة ما دمت قد فعلته عن غير قصد » .

٣٢٨ — ويجب أن تعرف أن نفس هذا الجواب قاله لى المندوب البابوى بعد أن غادرنا السجن ، وعلى الرغم من ذلك فإننى لم أكف عن الصوم إلا على الخبز والماء كل يوم جمعة من أيام الصــــوم الكبير ، بينما كان المندوب البابوى شديد الغضب منى إذ رآنى الشخص الوحيد الهام الذى بقى مع الملك [١] .

٣٢٩ — وفى يوم الأحد التالى[٢] لوقوعنا فى الأسر أصدر الأمير أمره بإنزالى أنا وبقية من أُسِرُوا بحرا إلى البر ، وبينما كان القوم ينقلون سيدى جون — قسيسى الطيب — من قاع المركب إذا به يقع مغشيا عليه ، فقتله المسلمون

---

(١) جاءت رواية جونز على الصورة التالية : « ويجب أن تعلم أن المندوب البابوى الذى كان يصحب الملك طالما أنبنى لأننى أصوم وأنا مريض ، وحيث لا يوجد من سياسى مع الملك سواى ، لأننى أوذى نفسى بهذا الصيام » .

(٢) فى م عنوان قبل هذا هو : تكملة الكتاب الثانى من مذكرات جون لورد جوانفيل»

وألقوا به فى اليم ، فأغمى أيضا على كاهنه من أثر المرض الذى اعترى الجيش ، فضربه القوم بدبّوس على رأسه ضربة أماتته ، ودفعوا به هو الآخر إلى النهر أيضا .

٣٣٠ — وبينما كان القوم مشغولين بإنزال من كان بسفن الأسرى من المرضى ، كان هناك جماعة من المسلمين واقفين مشرعين سيوفهم يقتلون بها من يقفون أمامهم ويقذفون بهم فى النهر ، فطلبت إلى رفيقى المسلم أن ينبئهم أن فعلهم هذا عمل غير كريم لمنافاته لتعاليم صلاح الدين الذى قال إنه لا يجوز لك مطلقا أن تقتل رجلا قاسمك خبزك وشاطرك ملحك ، فأجاب الأمير إن المقتولين ليسوا من ذوى الأهمية لا سيما وأنه لا أمل لهم فى الحياة من جراء المرض الملم بهم .

٣٣١ — وأمر بإحضار بحارتى أمامى ، وأخبرنى أنهم كفروا بدينهم على بكرة أبيهم ، فنصحته ألاّ يثق بهم أبداً لأنهم ـ وقد تخلوا عنــا فى سهولة ـ لا بد وأن يتخلوا عن سادتهم الجدد فى مثل هذا اليسر متى حان الوقت ولاحت الفرصة .

فقال الأمير إنه يتفق معى فى هذا الرأى لأن صلاح الدين كان يقول إنه من المستحيل على المسيحى اللئيم أن يصير مسلما ، ولا المسلم اللئيم أن يصبــح نصرانياً .

٣٣٢ — ثم أمر بعد ذلك أن أمتطى حصانا وأركب إلى جانبه ، ومررنا فوق جسر من القوارب وذهبنا إلى المنصورة ، حيث كان الملك ورجاله أسرى

وجئنا إلى مدخل فسطاط كبير اجتمع فيه كتاب[1] السلطان فدوّنوا اسمى ، ثم قال لى رفيقى المسلم « أيها السيد ، هنـا تنتهى رحلتى معك ومرافقتى إياك ، لـكننى أتوسل إليك يا سيدى أن تظل ممسكا على الدوام بيد الطفل الذى معك وإلا أخذه المسلمون منك ، واسم هذا الطفل بارتلميو[2] ، وهو ابن أم ولد للورد دمونت فوكون .

٣٣٣ — فلما دوّن الـكتبة اسمى سار بى الأمير إلى داخل الفسطاط حيث كان البارونات مجتمعين ومعهم أكثر من عشرة آلاف شخص ، فلما دخلتُ عليهم سرت الفرحة بين البارونات حتى لم يعد أحد يسمع ما يقوله الآخر ، وشكروا مخلصنا ، وقالوا إنهم حسبونى مفقودا .

تهديد الأسرى وخبر اتفاقية الملك

٣٣٤ — لم يطل المقام بنا هناك حتى طلبوا من أحد كبار رجالات المسلمين الموجودين أن يأخذنا إلى فسطاطه ففعل [حيث صادفنا منظرا تعسا[3]] فوضع المسلمون كثيرا من الفرسان فى ساحة مسوّرة بجدران من الطين ، وأمروا أن يأخذوهم واحداً بعد آخر من هذا المكان المسوّر ، وراحوا يسألون كلا على حدة « أتنبذ دينك ؟ » فمن أبى نبذه نحُّوه جانبا وقطعوا رأسـه ، أما الذين أنـكروا دينهم فمضوا بهم إلى ناحية أخرى .

٣٣٥ — وفى هذه اللحظة بعث السلطان أعضاء مجلسه إلينا يسألوننا عن

(١) فى م « ووجدنا عند مدخل فسطاط كبير كاتباً يدون بأمر السلطان أسماء الأسرى ، فأجبرونى على ذكر اسمى الذى لم أكن راغبا فى إخفائه » .

(٢) فى جونز أنه ابن مونت فوكون ، لـكن راجع فيما بعد رقم ٤٠٧ .

(٣) الإضافة من جونز ، ص ٤٤٣

يسلمونه رسالة السلطان، فدللناهم على الكونت الطيب بطرس دى بريتانى ، وكانت هناك جماعة معينة يعرف أفرادها اللسانين العربى والفرنسى ويسمونهم بالترجمانات، فأخذوا يترجمون لكونت بيتر الكلام العربى إلى الفرنسية وقالوا له « أيها اللورد ، لقد بعثنا السلطان إليك ليعرف عما إذا كنتم تريدون الخلاص من الأسر » فأجابهم الكونت « أجل» .

٣٣٦— وحينذاك سألوه « وما ذا أنتم معطون للسلطان لقاء خلاصكم ؟ » فقال لهم الكونت « إننا معطوه ما فى قدرتنا إن كان معقولا » .

فسألوه «وهل أنتم مستعدون للتنازل – لقاء خلاصكم من الأسر—عن شىء من الحصون التى بيد البارونات فيما وراء الحدود؟»، فأجاب الكونت أنه لا يملك التصرف فى هذه القلاع لأنها ممنوحة من إمبراطور ألمانيا الذى كان لا يزال حيا[1] إذ ذاك [والذى لن يرضى بحال من الأحوال أن يسمح للسلطان أن يمتلك أى أرض تابعة له[2]] .

ثم سألوا عما إذا كنا نتنازل — لقاء خلاصنا — عن أى حصن من الحصون التى بيد الداوية أو الاسبتارية، فأجابهم الكونت إن هذا أمر ليس فى الإمكان، إذ جرت السُّنَّة على أن يقسم القائمون بأن هذه القلاع حين تسلمهم إياها ألا يسلموا أبداً إحداها لفك أسر أحد ما، وهم يؤكدون قسمهم هذا بالآثار المقدسة .

---

(١) راجع رقم ٣٢١ ، والمقصود بذلك الأمبراطور فردريك الثانى الذى كان قد توج فى بيت المقدس .

(٢) الإضافة من جونز ، ص ٤٤٣ .

وحينذاك أجاب رجال السلطان إنه يخيل إليهم أنه ليست لدنيا نية فى الخلاص من الأسر، وأنهم راحلون عنا وباعثون إلينا من يتخذون منا ملهاة لسيوفهم كما فعلوا بالآخرين ، ثم مضوا إلى حال سبيلهم .

٣٣٧ ـ ما كاد رجال السلطان يرحلون حتى اندفع حشد كثيف من شباب المسلمين إلى فسطاطنا وسيوفهم مشرعة بأيديهم ، وعلى رأسهم شيخ قد ردّ إلى أرذل العمر كثيف الشعر ، فطلب أن يسألونا عما إذا كنا نؤمن بإله واحد تعذّب من أجلنا وجرح ومات فى سبيلنا ، ثم قام من بين الموتى بعد ثلاثة أيام ، فأجبناهم « أجل [١] » .

وحينذاك قال لنا ذلك الشيخ إنه لا ينبغى علينا أن نشكو إذا ما تحملنا كل هذا العذاب من أجل هذا الإله ، وقال « إنكم لم تموتوا بعد من أجله كما مات هو من أجلكم ، وما دام قد استطاع بعث نفسه ثانية فثقوا تمام الثقة أنه مخلّصكم إذا ما أحبّ » .

٣٣٨ ـ ثم انصرف الشيخ عنا وفى إثره جميع الشبان الذين قدموا معه ، فاشتدّت بى الفرحة لأنه جال بخاطرى فى إيمان أنهم قدموا لإطاحة رءوسنا [٢] ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجال السلطان وأخبرونا أن الملك قد نجح فى مفاوضاته لإطلاق سراحنا .

---

(١) وردت هذه العبارة على الصورة التالية فى جونز ، ص ٤٤٤ « سألونا بواسطة مترجم يتقن لغتنا عما إذا كان صدقا مايقال من أننا نؤمن بأله واحد ولد ليخلصنا ثم صلب حتى مات ، ثم قام بعد ثلاثة أيام لتخليصنا ، فأجبناهم أن ما سمعناه منهم هو عين الصدق » .

(٢) وردت هذه العبارة فى جونز ص ٤٤٤ على الصورة الآتيـة « انصرف الشيخ بجميع الشبان دون أن يفعلوا بنا شيئاً أكثر من ذلك ، الأمر الذى فرحت له فرحا شديدا» .

٣٣٩ — بعد رحيل الشيخ المسنّ ، ذلك الرحيل الذى أنزل السكينة على قلوبنا ، عاد إلينا رجال السلطان وأخبرونا أن الملك قد نجح فى الحصول على إطلاق سراحنا ، وأنه يلزمنا أن نبعث أربعة من رجالنا ليسمعوا مافعله الملك ، فأرسلنا الرجل الطيب سيدى جون لورد دى ڤاليرى ومعه سيدى فيليب دى مونتفورت وبلدومين دى إبلين سنكال قبرص ، وجى دى أتين كونستابل قبرص وهو من أبرز الفرسان العظام الذين تسنّت لى رؤيتهم وهو واحد ممن أحبّ أهل هذا البلد حبا عظيما .

وقد عاد إلينا هؤلاء الأربعة وأخبرونا عن الطريقة التى سلكها الملك للحصول على خلاصنا .

تهديد الملك ومفاوضة المسلمين

٣٤٠ — سلك رجال السلطان مع الملك نفس الطريقة التى سلكوها معنا عساهم يستطيعون حمله على تسليمهم شيئا من قلاع الداوية أو الاسبتارية ، [أو شيئا من القلاع[١] التى فى أيدى بارونات تلك البلاد ، وشاء الرب أن لا يجيبهم الملك بغير الإجابة التى أجبناهم بها ، فهدّدوه وأخبروه أنهم مضطرون للأمر بوضعه فى الفلقة[٢] طالما أنه لن يقبل ما أراده منه] .

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى نسختى ويلى وجونز فقط .

(٢) آثرت ترجمة كلمة Bermicles الفرنسية بكلمة « الفلقة » المصرية فقد جاء أنها آلة للتعذيب يستعملها المسلمون لعصر الأرجل ، Lexique de l'Ancien Français, Paris, 1901 ، وجاء فى وصفها فى جونز ص ٤٤٤ حاشية رقم ١ « يظهر أن آلة التعذيب هذه كانت تصنع من قطع من الخشب ذات ثقوب توضع فيها =

٣٤١ — أما الفلقة فهى أفظع صور التعذيب التى لا يمكن لأحـد ما مكابدتها ، وتتألف من عارضتين خشبيتين ملتويتين تتشابك أطرافها بأسنان تدخل الواحدة منها فى الأخرى ، وتتصلان من النهاية بسير من جلد الثور المدبوغ ، وحينما يريدون وضع أحد فيها فإنهم يطرحونه على جنبه ويضعون رجليه بين الأسنان ، ثم يجلسون رجلا آخر فوق قطعتى الخشب ، وحينذاك يحدث ألاّ يبقى سوى نصفٍ غير مهروس ، ولكى يزيدوا عذاب الشخص بقدر ما يستطيعون فإنهم فى نهاية الأيام الثلاثة — وقد انتفخت الأرجل — يعيدون وضع الأرجل المنتفخة فى الفلقة ويهرسونها مرة أخرى .

٣٤٢ — فكان ردّ الملك على هذه التهديدات أنه أسيرهم، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا به ما يريدون ، ولما رأوا أن تهديداتهم الملك الصالح لم تجدهم نفعاً فى التغلب عليه رجعوا إليه مرة أخرى وسألوه كم يستطيع أن يحمل إلى السلطان من المال إلى جانب تسليمه إياه دمياط ، فأجابهم الملك بأن السلطان إذا سأله مبلغاً معقولا فإنه سيطاب إلى الملكة دفعه لإطلاق سراحه هو ورجاله ، فسألوه : « كيف لا تستطيع أن تخبرنا أنت نهائيا أن هذه الأشياء ستنفـذ » .

فأجابهم الملك أنه لا يعرف عما إذا كانت الملكة ستقبل الأمر أم لا ، فهى وإن تكن زوجته إلا أنها حرة فى تصرفاتها . ثم عاد رجال السلطان إلى مولاهم وقصوا عليه ما وقع ، ثم انكفأوا مرة أخرى إلى الملك وأنبأوه أن السلطان

= أرجل المذنبين وتكون كل منها على مسافة من الأخرى ، وتشد الأرجل شداً عنيفاً مما يؤدى إلى ألم شديد فلا يستطيع المجرمون أن يسحبو أرجلهم منها ، وكانت الثقوب التى فى هـذه الأخشاب على مسافات مختلفة » .

سيطلق سراحه من عقاله إن قبلت الملكة أن تدفع ألف ألف بيزنتة ذهبية ، وهى تعادل خمسمائة ألف جنيه .

٣٤٣ — فاستحلفهم الملك بدينهم هل سيطلق السلطان سراحهم إذا استجابت الملكة طلبه ، فمضوا إلى السلطان مرة ثانية وصدقوه بالأمر ، فردهم إليه مقسمين له أن السلطان سيفك قيده على هذه الشروط .

فلما أقسموا اليمين تحدث الملك إلى الأمراء ووعدهم أنه سيدفع الخمسمائة ألف دينار عن طيب خاطر لتخليص رجاله ، أما دمياط فسيردها لقاء إطلاق سراحه هو ذاته، لأنه يرى أنه ليس من اللياقة أن يقايض عن نفسه بالمال ، فلما سمع السلطان ذلك قال «وحق دينى إن هذا الرجل الفرنسى لكبير القلب لأنه لم يساوم فى مبلغ كبير مثل هذا المبلغ، وعليكم الآن بالتوجه إليه وإخباره أننى معطيه مائة ألف دينار من أصل فديته » .

أخذ الأسرى الى الدهليز السلطانى

٣٤٤ — بعد ذلك أمر السلطان بوضع كبار الشخصيات فى أربع سفن تبحر بهم إلى دمياط ، وكان معى فى نفس المركب الكونت الطيب بطرس دى بريتانى ووليم كونت فلاندرز والكونت الصالح جون دى سواسون وهمبرتى دى بيجو كونستابل فرنسا ، والفارس الطيب سيدى بلدوين دى إبلين وأخوه لورد جى .

٣٤٥ — أما الذين وكل إليهم حراستنا فى المركب فقد أحضرونا إلى الشاطىء فى مواجهة معسكر أقامه السلطان عند النهر، وكان على صورة سنقسم وصفها الآن حالا .

كان أمام المعسكر برج مصنوع من أعمدة خشب الشربين ومحاط بقماش من التيل المخطط حيث المدخل إلى الدهليز السلطانى ، وأقيم عند مدخل الدهليز قاعة يترك فيها الأمراء سيوفهم وسلاحهم حين دخولهم لمحادثة السلطان .

وكان وراء هذا الدهليز باب آخر مثل الأول إذا عبرته أدى بك إلى فسطاط كبير هو القاعة التى يجلس فيها السلطان .

وخلف هذا الدهليز يوجد برج آخر شبيه بالأول يؤدى بالداخل منه إلى قاعة السلطان الخاصة به .

٣٤٦ — ويوجد خلف قاعة السلطان ساحة يتوسطها برج أعلى من بقية الأبراج الأخرى يمضى إليه السلطان إذا رغب أن يشرف على الناحية كلها والعسكر ، ويخرج من هذه الساحة ممر ينتهى إلى النهر حيث أمر السلطان بإقامة فسطاط فى وسط الماء للاستحمام ، وكان جميع المعسكر محاطا بتكعيبات خشبية غطيت سطوحها الخارجية بقماش أزرق حتى لا يتمكن من فى الخارج من رؤية من بالداخل ، كما أن الأبراج الأربعة جميعها كانت مغطاة بالقماش .

٣٤٧ — فلما كان يوم الثلاثاء السابق يوم الصعود[١] وصلنا إلى المكان الذى نصبت فيه هذه المعسكرات ، كما أرست أمام خيمة السلطان المراكب الأربع التى كنا جميعا مأسورين فيها ، فسار أحدهم بالملك إلى خيمة قريبة كل القرب من خيمة السلطان الذى أمر بتنظيم الأمور جميعها ، فرتب أن

(١) هو يوم ٢٨ أبريل ١٢٥٠

يتسلم مدينة دمياط يوم السبت السابق لعيد الصعود ، وحينذاك يطلق سراح الملك[١] .

اغتيال السلطان

٣٤٨ — أما الأمراء الذين فصلهم السلطان ليحل مكانهم من خاصّته مَن جاء بهم من بلاد أجنبية فقد أخذوا فى التشاور فيما بينهم، وقام مسلم داهية فتكلم على الصورة التالية «أيها الإخوان ، لقد رأيتم ما جلّلنا به السلطان من عار ومذلة وكيف أخرجنا مما كنا فيه أيام أبيه ، لهذا يجب أن تعلموا علم اليقين أنه لن يكاد يجد نفسه فى قلعة دمياط حتى يصدر أمره بالقبض علينا وقتلنا فى السجن كما فعل جدّه مع الأمراء الذين ألقوا القبض على كونت دى بار وكونت دى مونتفورت ، ومن ثم فإنه يخيّل إلىّ أنه أجدى علينا أن نعجّل بقتله قبل أن يفلت من أيدينا » .

٣٤٩ — ومن ثم فقد ذهبوا لهذا الغرض إلى رجال الحلقة ، وكلفوهم بقتل السلطان حينما يجلسون إلى السماط معه وقت دعوته إياهم لذلك ، ومن ثم فقد حدث بعد تناولهم الطعام أن استأذن السلطان الأمراء فى الانصراف ، وبينما هو ماض إلى حجرته وثب عليه أحد فرسان الحلقة من حاملى سيفه وضربه فى منتصف يده ضربة بين الأصابع الأربعة وذراعه .

٣٥٠ — حينذاك التفت السلطان إلى الأمراء الذين كانوا قد أمروا باغتياله وقال « أيها السادة ، إننى أشكو إليكم رجال الحلقة هؤلاء الذين أرادوا قتلى كما ترون » .

---

(١) يستفاد من رواية نسخة جونز ، ص ٤٤٦ أن الملك رتب هذا الأمر مع السلطان فى مفاوضة جرت بينهما .

فأجابه فرسان الحلقة فى صوت واحـــد « مادمت تقول إننا نرغب فى اغتيالك فالأجدى أن نبادر بقتلك قبل أن تفاجئنا[1] » .

٣٥١ — ثم أمروا بضرب الـكوسات فجاء الجيش بأجمعه ليتبين إرادة السلطان ، فذكروا استيلاءهم على دمياط وأن السلطان ماض إليها وأنه يطلب إليهم الذهاب فى أثره ، ومن ثم لبس الجميع سلاحهم وانطلقوا نحو دمياط . فلما رأيناهم ماضين انقبضت منا القلوب أشدّ انقباض ، فقد تبادر إلى ذهننا أنها ضاعت منا .

غير أن السلطان ـ وكان شابا فتياً ـ هرب إلى البرج القائم خلف حجرته مع ثلاثة من رفقائه الذين كانوا جالسين يؤاكلونه .

٣٥٢ — أما رجال الحلقة الذين كان عددهم خمسمائة فارس فقد هدموا فسطاط السلطان واحتشدوا حول البرج لحصار السلطان والشيوخ الثلاثة الذين كانوا يؤاكلونه ، وصاحوا به طالبين إليه النزول ، فأجابهم بأنه مستعد لذلك إن وعدوه الأمان ، فقالوا له إنهم قادرون على إنزاله بالعنف لأنه ليس بدمياط ، ثم قذفوه بالنـار الإغريقية التى أمسكت بالبرج المصنوع من خشب الشربين والقطن ، وسرعان ما احترق البرج ، ولم أرقطّ فى حياتى لهباً أجمل مرآى وأقوى شدة من هذا اللهب ، فلما رأى السلطان ذلك أسقط فى يده وبادر إلى النزول وانطلق الى النهر مجتازاً الطريق الذى حدّثتك عنه عنه من قبل .

---

(١) الوارد فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة مصر) ج ٦ ص ٣٧١ نقلا عن يوسف قزأوغلى ان بعض مماليك أبيه البحرية ضربه بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض أصابعه ، وقام من وقته ودخل البرج وصاح « من قتلنى » قالوا « الحشيشية » ، فقال « لا والله إلا البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية » .

٣٥٣ — أما فرسان الحلقة فقد سدّوا بسيوفهم جميع المسالك أمام السلطان ، وبينما كان مغذًّا الهرب إلى النهر رماه أحدهم بسهم فى أضلعه فانطلق به إلى النهر وهو يجرجر الرمح ، فمضوا فى أثره سابحين . وجاءوه وقتلوه وهو فى الماء غير بعيد عن المركب الذى كنا فيه .

وكان الذى ضربه بسيفه ضربة قاطعة فارس إسمه أقطاى[1] ، وانتزع قلبه من صدره ، ثم جاء إلى الملك وما زالت الدماء تلوث يده وتقطر منها وقال له « ترى ماذا تعطينى إذْ قتلت عدوّك الذى لو عاش لقتلك ؟ » ، فلم يجبه الملك قط بأية كلمة .

إتفاقية الأمراء

٣٥٤ — جاء إلى مركبنا ثلاثون شخصاً من المسلمين وقد جردوا سيوفهم فى أيديهم وعلقوا فى أعناقهم الفئوس الدانيمركية ، فسألت بلدوين إيرل إبلين الذى كان يتقن لسانهم إتقاناً تاماً عما يبربرون به ، فأجاب بأنهم يقولون إنهم جاءوا لإطاحة رءوسنا ، وحينذاك أخذ حشد كثيف جداً من رجال جيشنا فى الاعتراف لأخ من إخوان الثالوث اسمه جون كان قد جاء مع كونت دى فلاندر .

أما فيما يتعلق بى فلم أذكر لنفسى خطيئة ارتكبتها ، وتذكرت أنه كلما ألححت فى الدفاع عن نفسى ومحاولة الهرب كلما ازداد خوفى .

٣٥٥ — فرسمت الصليب على وجهى وركعت عند قدمى أحدهم وكان

---

(١) هو فارس الدين أقطاى بن عبد الله الجدار الصالحى النجمى ، وكان توران شاه وعده أن يؤمره ولم يف بوعده ، راجع النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٧١ ، هذا وقد سماه جوانفيل فى الأصل باسم Faraquataye وورد اسمه فى نسخة جونز ص ٤٤٨ Faracataic.

يحمل فأساً دانيمركية كما يفعل النجارون وقلت له « هكذا كانت ميتة القديس أجنس Agnes » وركع إلى جانبي جى دى إبلين كونستابل قبرص وشرع يعترف لى فقلت له: إنى أغفر لك بكل القوة التى أمدنى بها الرب » .
لكننى حينما نهضت من هذا المكان نسيت كل شيء قاله .

٣٥٦ — أخذنا المسلمون من حيث كنا وألقوا بنا فى سجن بقاع المركب، وظن كثير من رجالنا أنهم فعلوا ذلك لرغبتهم فى ألا يقتلونا جميعاً معاً دفعة واحدة بل واحدا بعد آخر [1] ، فقضينا تلك الليلة فى كرب شديد ولم يغمض لنا جفن إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، والتصق كل منا بالآخر حتى إن قدمىّ كانتا فى وجه كونت بيتر دى بريتانى ، وقدماه فى وجهى .

٣٥٧ — فلما تبلج الصباح أمر الأمراء بإخراجنا من الحبس الذى كنا فيه ، وذكر لنا رسلهم أننا ماضون لمحادثتهم بغية تجديد العهد الذى كان السلطان قد أبرمه معنا [وقالوا [2] لنا أيضاً إنه فى استطاعتنا أن نكون واثقين أن لو كان السلطان لا يزال حياً لأمر بقطع عنق الملك وكذلك أعناقنا جميعاً] .

فسار إليهم القادرون على السير وبقيت حيث أنا وكذلك كونت بريتانى وكونستابل قبرص من جراء مرضنا الخطير، على حين ذهب إليهم كونت فلاندر وكونت جون دى سواسون والأخوان إبلين وغيرهم ممن كان فى استطاعتهم الذهاب .

---

(١) جاءت هذه العبارة كالآتى فى نسخة جونز ص ٤٤٩ « وضعونا فى مخزن السفينة وقد جعلوا رءوسنا وأقدامنا معاً ، وظننا أنهم أمروا بذلك لخوفهم من أن نهاجمهم ونحن جميعاً معاً » .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى نسخة ويللى فقط .

٣٥٨ — اتفق هؤلاء المبعوثون مع الأمراء على أنه لا يكاد يتم تسليم دمياط حتى يفكوا قيود الملك وكبار رجالاته من ذل الأسر .

ثم أمر السلطان بأخذ من دونهم مرتبة إلى القاهرة إلا من أمر بقتلهم، فقتلوا رغم العهد الذى أبرمه السلطان مع الملك، ولهذا السبب كان يخيل إلينا أنه لا بد آمر بقتلنا جميعاً حين استرداده دمياط .

٣٥٩ — وكان على الملك أن يقسم اليمين بعد ذلك على دفع مائتى ألف جنيه للمسلمين قبل تركه النهر ، وأن يدفع أيضاً مائتى ألف أخرى فى عكا ؛ وكان الاتفاق الذى عقده المسلمون مع الملك يلزمهم برعاية مرضانا فى دمياط وبالمحافظة على السلاح والأقواس واللحوم المملحة وآلات الحـــرب، حتى يبعث الملك فى أخذها .

يمين الأمراء

٣٦٠ — أما الأيمان التى كان على الأمراء أن يحلفوها للملك[2] فقد اتفق عليها كتابة، حيث نصت على أنهم إذا لم يراعوا عهدهم هـــذا مع الملك فإنهم يفقدون شرفهم ويصبحون أشبه بالرجل الذى تحمله خطيئته إلى أن يحج إلى مكة عارى الرأس ويلطخون شرفهم كرجل طلق زوجته ثم أعادها إلى عصمته ثانية ، إذ جرت شريعتهم محمد على أنه إذا طلق الرجل زوجه لم تعد تحل له حتى يتزوجها رجل آخر .

٣٦١ — أما اليمين الثالث فكان ينص على أنهم إذا أخلوا بعهدهم هـــذا

(١) فى جونز ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ « دونت اليمين التى كان على الملك والأمراء قطعها على أنفسهم فى هذا المجال »

(٢) معلومات جوانفيل عن هذه الناحية مضطربة ولا يستقيم مع الواقع .

مع الملك فإنهم يلطخون شرفهم شأنهم في ذلك شأن المسلم إن دنّس نفسه بتناول لحم الخنزير .

وقد رضى الملك بهذه الأقسام السابقة التى قطعها له الأمراء، لأن السيد نيقولا العكاوى ـ الذى يعرف اللسان العربى [٢] ـ قال إنه ليس فى استطاعة المسلمين تبعاً لشريعتهم ـ أن يقطعوا يميناً أشد إلزاماً لهم من هذه الأيمان .

٣٦٢ ـــ حين قطع الأمراء هذه الأيمان على أنفسهم دوّنوا اليمين التى أرادوا من الملك أن يقطعها على نفسه والتى وضعت صورتها على النمط الذى اقترحه القسس الذين أنكروا ملتهم واعتنقوا الإسلام، وكان نصها أنه اذا لم يلتزم الملك عهوده مع الأمراء فإنه يلطخ شرفه كمسيحى أنكر الرب وأمه ، وخسر صداقة حوارى سيدنا الإثنى عشر وجميع القديسين والقديسات .

وقد قبل الملك هذه اليمين عن طيب خاطر .

أما المادة الأخيرة من القسم فكانت تنص على أنه إذا لم يف الملك بعهوده فإنه يكون قد دنّس شرفه كمسيحى قد أنكر الربّ وشريعته وازدراه ، وبصق على الصليب ، ووطأه بقدمه .

٣٦٣ ـــ فلما وقف الملك على هذا الشرط قال إنه لن يقسم تلك اليمين ، فبعث الأمراء إلى الملك بالسيد نقولا الملمّ باللسان العربى وقال له « مولاى ، إن الأمراء جدّ محنقين لأنهم أقسموا لك كل ماطلبته منهم على حين أنك تأبى أن تقسم لهم على ماأرادوه منك ، وكن واثقاً أنك إن رفضت أن تقسم لهم هـــذا اليمين فإنهم سيأمرون بإطاحة رأسك ورقاب جميع رجالاتك » .

---

(١) فى الأصل « الإسلامى » .

فأجاب الملك إنهم فى وضع يمكنهم من أن يفعلوا به كل مايريدون ، ولكنه يؤثر أن يموت مسيحياً صادق الإيمان على أن يبوء بغضب الرب وأمه وسخطهما عليه .

٣٦٤ — واستطاع بطريرك بيت المقدس ـ وكان شيخاً موقراً فى الثمانين من عمره ـ أن يتفق مع المسلمين على صيغة قسم يحفظ على الملك احترامه ، وجاء لمساعدة الملك فى مفاوضاته لإطلاق سراحه .

كان العرف قد جرى عند المسلمين والمسيحيين على أسر واسترقاق الرسل الذين يكونون فى بلاد مسيحية أو إسلامية أو كافرة إذا مات الملك أو السلطان ، ولما كان السلطان [توارن شاه] الذى أعطى عهد الأمان للبطرك قد مات فقد جرى على البطرك ما جرى علينا من الأسر .

ولما بعث الملك بجوابه قال أحد الأمراء إن رد الملك هذا كان بإيحاء البطرك وإشارته ، ثم قال لجماعته «إذا وثقتم بى فإننى سأحمل الملك على أن يقسم لكم القسم الذى تريدونه ، لأننى سآمر بإطاحة رأس البطرك فى حجر الملك» .

٣٦٥ — فلم يستمعوا لمقالته بل أخذوا البطرك من جانب الملك وأوقفوه أمامه وشدوه إلى قائم إحدى الخيام ، كما شدوا يديه خلف عنقه وأحكموا وثاقهما إحكاما انتفختا منه حتى صارتا فى حجم رأسه ، وانبجس الدم من بين أظافره ، فصاح البطرك بالملك « بحق الرب ألا أقسمت لهم غير خائف ، وإننى لمحتمل ما قد يكون فى قسمك من خطيئة » .

ولست أعرف الطريقة التى اتبعت لإقرار القسم ، ولكن الأمراء قنعوا فى النهاية باليمين التى أقسمها الملك وغيره من كبار الرجال الذين كانوا بصحبته إذ ذاك .

٣٦٦ــ لم يكد السلطان يُقتل حتى أمروا بإحضار آلاته أمام خيمة الملك وجاء إليه من أفضى له بأن الأمراء راغبون بمحض إرادتهم فى تنصيبه سلطاناً على مصر ، فسألنى الملك عما إذا كنت أنصحه بقبول عرش مملكة مصر إذا عرضوه عليه ، فأخبرته أن قبوله هذا العرض هو الحمق كل الحمق بعد ما رآه من قتل الأمراء لولىّ نعمتهم . إلا أنه أنبأنى أنه لن يرفض طلبهم هذا [1].

٣٦٧ــ ويجب أن تعلم أن هذه المسألة وقفت عند ذلك الحد دون أن يتقدموا فيها خطوة أكثر ، لأنهم قالوا إن الملك أقوى نصرانى رأوه تمسكا بمسيحيته ، وأقاموا الدليل على ذلك بأنه حينما غادر خيمته أحضر صليبه ووضعه على الأرض ثم استلقى عليه بكل جسده ، وقالوا إنهم ما كانوا يبقون على إيمانهم بمحمّد (صلعم) لو ألمّ بهم مثل ما ألمّ بالملك فى هذه المحنة ، وزادوا على ذلك قولهم إن الملك ــ لو ولى أمر المسلمين ــ لابد أن يحملهم جميعاً على اعتناق المسيحية وإلا قتلهم عن بكرة أبيهم .

بعد أن اتفق الملك والأمراء على صيغة اليمين وأقسموا عليها قرّ قرارهم على إطلاق سراحنا غداة يوم الصعود ، كما اتفقوا على المبادرة إلى فك قيود الملك ومن معه من وجوه رجالاته حال تسلمهم دمياط .

فلما كان مساء الخميس [2] قام الذين وكل إليهم الإشراف علينا فى سفننا

---

(١) ليس فى المراجع العربية والأجنبية أدنى إشارة لهذا العرض من جانب المماليك ، وأحسب أن هذا من خيال أحدهم ، ولكنه يصور فى الوقت ذاته طمع لويس فى مصر .

(٢) يعنى يوم ٥ مايو ١٢٥٠

الأربع بالرسو في وسط النهر تجاه جسر دمياط وأمروا بإقامة فسطاط أمامه لنزول الملك .

٣٦٩ــفلما أشرقت شمس ذلك اليوم ذهب إلى المدينة جودفرى لورد سارجين وسلمها إلى الأمراء ، وخفقت أعلام السلطان على جميع أبراجها ، ودخل فرسان المسلمين المدينة وأخذوا فى تناول الشراب، ومالبثوا أن سكروا جميعاً سكرة كبرى جاء بعدها أحدهم الى مركبنا وسحب سيفه والدم يقطر منه وقال إنه قتل ستة من رجالنا .

٣٧٠ــوقبل أن يحاط بدمياط أنزلوا الملكة هى وجميع رجالاتنا الذين كانوا بالمدينة فى السفن التى كنا بها ، ولم يستثنوا سوى المرضى الذين تعهد المسلمون برعايتهم والمحافظة عليهم، لكنهم قتلوهم على بكرة أبيهم، كما حطموا آلات حرب الملك التى كانوا ملزمين برعايتها هى الأخرى ، ولم يبقوا لنا على اللحم المقدد وهو لحم الخنزير الذى تعهدوا لنا بحفظه لعدم تناولهم إياه ، وأقاموا كومة من الآلات وأخرى من لحم الخنزير وثالثة من قتلانا وأشعلوا النيران فى هذه الأكوام جميعها ، وكانت النيران شديدة حتى لقد استمرت أيام الجمعة والسبت والأحد .

قتل الأسرى

٣٧١ــ كان المقرر أن يطلق المسلمون سراح الملك وسراحنا نحن أيضاً عند شروق الشمس ، غير أنهم استبقونا حتى الغروب دون أن يقدموا لنا شيئاً مانأ كله نحن ولا الأمراء الذين ظلوا فى عراك مستمر طيلة يومهم حتى تكلم أحدهم أخيراً إلى جماعته فقال : « أيها السادة : اذا أنصتم إلىّ وإلى جميع رجالى فاعمدوا إلى قتل الملك وكبار رجالاته الذين هنا ، وبذلك ننعم بالطمأنينة مدة

أربعين سنة لأن أولادهم سيكونون صغاراً، ولأن دمياط ستكون فى أيدينا ، ونستطيع أن نفعل ذلك فى طمأنينة أكبر » .

٣٧٢ — وحينذاك قام مسلم آخر واسمه صبر الدين[1] وكان من أهل المغرب فحكى عكس ما حكاه سابقه إذ قال : « إذا قتلنا الملك بعد اغتيالنا السلطان فسيقال إن المصريين أشرّ أهل الأرض قاطبة وأبعدهم عن الوفاء » . فلما سمع قوله الراغبون فى هلا كنا ردّوا عليه قائلين : « حقاً ماقيل من أننا كنا جد مخطئين حين وثبنا على سلطاننا بالأمس فصرعناه ، إذ خرجنا بذلك على تعاليم رسولنا الذى أمرنا بالمحافظة على حكامنا محافظتنا على جوهر عيننا ، ودونكم مافى هذا الكتاب من تعاليم مكتوبة ، ولكن استمعوا إلى الوصية الأخرى من وصايا الرسول التى تجىء بعد هذا » .

٣٧٣ — ثم قلب صفحة من كتاب كان فى يده وأراهم وصية أخرى جاء فيها « اقتلوا عدو الدين من أجل سلامة الدين » ، ثم قال لهم : « والآن وقد عصينا تعاليم محمد (صلعم) إذ قتلنا مولانا السلطان فإننا سنكون أشد عصياناً إذا لم نقتل الملك مهما كانت العهود التى قطعت له لأنه أقوى رجال الملة المعادية » .

٣٧٤ — كاد إجماع القوم أن ينعقد على وجوب التخلص منا بقتلنا جميعاً حينما جاء إلى النهر أحد الأمراء — وكان من خصومنا — وقد ظن أننا مقتولون ، وأخذ يهتف بلسان عربى بمن وكلت إليهم حراسة السفن، ثم خلع عمامته من على رأسه وأشار إليهم بها إشارة خاصة ، فرفعوا المرساة ورجعوا بنا إلى الوراء مسافة فرسخ تجاه مدينة القاهرة ، فاعتقدنا أننا مقتولون وذرفنا الدموع الغزار .

---

(١) فى الأصل Sebreci ولا يعرف فى تاريخ هذه الفترة من صبر الدين هذا .

إطلاق سراح الملك ورحيل البعض إلى فرنسا

٣٧٥ – أراد الرب الذى لا ينسى شعبه أن يتم الاتفاق – وقد أوشكت الشمس على المغيب – على وجوب إطلاق سراحنا ، فعادوا بنا إلى حيث كنا وسحبوا مراكبنا الأربعة إلى الشاطىء ، فطلبنا إليهم أن يدعونا نذهب فى سبيلنا ، فأبوا قائلين إنهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا « لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبة الدهر فى جبين أمرائنا » .

٣٧٦ – حينذاك طلبنا إليهم أن يقدموا لنا ما نأكله فقالوا إن البعض ذهب لإحضاره من المعسكر ، لكن لم يزد ماقدموه لنا عن أقراص من الجبن المقدد فى الشمس حتى لا يتوالد فيها الدود ، وبيض مسلوق منذ أربعة أيام أو خمسة وقد صبغوه بألوان مختلفة إكراماً لنا .

٣٧٧ – ثم نقلونا إلى البر فذهبنا ناحية الملك الذى كانوا يسيرون به إذ ذاك من الفسطاط الذى وضعوه به إلى ناحية النهر ، وسار وراءه على الأقدام عشرون ألف مسلم قد تمنطقوا بسيوفهم .

كان فى النهر – تجاه موقف الملك – سفينة جنوية بدت خالية من كل أحد سوى رجل واحد على ظهرها ، لم يكد يرى الملك على شاطىء النهر حتى صفر صفيراً اندفع له من قاع السفينة ثمانون من رماة الأقواس وهم فى كامل سلاحهم وقد رفعوا سهامهم ، وما انقضت برهة إلا ووضعوا النبال فى تجاويفها ، فما كاد المسلمون يطالعونهم على هذه الصورة حتى فروا كالأنعام ولم يبق مع الملك منهم سوى اثنين أو ثلاثة أشخاص .

٣٧٨ – ألقت السفينة لوحاً من الخشب إلى اليابسة ليصعد عليه الملك وأخوه

كونت دانجو وجوفرى دى سارجين وسيرفليب دى نيمور مارشال فرنسا الذى كان يسمى مارشال فير وسيد الثالوث ، وأنا معهم .

أما الكونت دى بواتييه فقد استبقوه رهينة فى أسرهم حتى يدفع الملك المائة ألف دينار التى كان قد تعهد بدفعها فدية له قبل مغادرته النهر .

٣٧٩ ـ وفى يوم السبت[1] التالى بعد الصعود ، وهو اليوم التالى ليوم خلاصنا جاء إلى الملك كونت فلاندر[2] وكونت سواسون وغيرهم من وجوه قومه الذين كانوا أسرى فى السفن يستأذنونه فى السفر ، فقال لهم الملك إنه يظن أنهم يحسنون صنعا لو تريثوا حتى يتم إطلاق سراح أخيه كونت بواتييه ، إلا أنهم أجابوه أنهم لا يستطيعون انتظاراً وقد أوشكت جميع السفن على الانطلاق إلى عرض البحر .

ومن ثم فقد ركبوا سفنهم عائدين إلى فرنسا بعد أن أخذوا معهم الكونت الطيب[3] بطرس دى بريتانى الذى اشتد به المرض شدة لم تمد فى حياته أكثر من ثلاثة أسابيع ، فوافاه أجله وهو مازال بعد فى البحر .

الفدية واستيلاء جوانفيل على مال الداوية

٣٨٠ ـ أخذ رجالنا فى عد الأموال التى كان عليهم دفعها فدية صباح السبت ، واستغرق منهم العد طوال يوم السبت وكذلك الأحد حتى المساء لأن النقود تقدر بالوزن ، وكل وزنة بعشرة آلاف دينار .

---

(١) هو يوم ٧ مايو ١٢٥٠

(٢) أخطأ جوانفيل حيث سيذكر فيما بعد (٤٢٢ ، ٤٢٤) أن كونت فلاندر كان فى عكا .

(٣) هذا النعت غير وارد فى جونز ، ص ٤٥٤ .

فلما كان مساء الأحد قام رجال الملك الموكلون بالعدّ فأرسلوا إليه يخبرونه أنه لايزال ينقصهم ثلاثون ألف دينار لاستيفاء المبلغ المتفق عليه ، ولم يكن مع الملك إذ ذاك سوى ملك صقلية ومارشال فرنسا ووزير الثالوث وأنا ، أما الباقون فكانوا منهمكين جميعا فى عد المال اللازم لدفع الفدية .

٣٨١ — حينئذ قلت للملك إنه يحسن صنعا لو أنه بعث إلى مارشال فرسان المعبد — إذ كان أستاذهم الأعظم قد مات — يسأله أن يقرضه ثلاثين ألف دينار لإطلاق سراح أخيه ، فأرسل الملك فى البحث عن جماعة الداوية ، وعهد إلىّ بعرض الأمر عليهم ، فلما أفضيت إليهم بجلية الخبر تصدى لى الأخ[1] ستيفين دوتريكورت المشرف على الداوية قائلا : « ياورد جوانفيل ، ليس فيما أشرت به على الملك من خير أو تعقل ، لأنك تعرف أننا نتناول ما بيدنا من الأموال بعد أن نقسم الأيمان على ألا نسلمها إلا لمن استودعونا إياها » فتبادلنا[2] أنا وهو كثيراً من العبارات الخشنة والشتائم .

٣٨٢ — ثم تكلم من بعده الأخ رينودى فيشييه Vichier الذى كان مارشال الداوية فقال : « مولاى ، دعنا نفضّ هذا النزاع الناشب بين السيد جوانفيل وبين كبيرنا ، لأننا فى الواقع — كما قرر مشرفنا — لانستطيع أن نقدم شيئاً من هذه الأموال دون أن نكون قد حنثنا فى يميننا ، أما ما نصحكم به السنكال بأن تأخذوا قسراً ما نرفض إعارتكم إياه فإنكم بذلك تعملون كما تريدون ، لكن إذا عمدت إلى طرق هذا السبيل واستوليت على ما معنا هنا بمصر فإننا سنعوض أنفسنا مما لكم فى عكا من أموال » .

---

(١) فى نسخة جونز ، ص ٤٥٥ « الاب » .

(٢) من هذه الكلمة حتى نهاية الفقرة غير وارد فى جونز ، شرحه .

٣٨٣ — حينما سمعت منه هـذا التهديد[١] قلت للملك : « إننى ذاهب لأخذ المال إن أمرنى بذلك » فاستجاب لقولى وأذن لى فيما طلبته منه ، ومن ثم مضيت إلى كبرى سفن الداوية ، ولما هممت بالنزول إلى مخزنها حيث تودع الأموال سألت مشرف الداوية أن يصحبنى ليكون شاهداً على ما آخذه، إلا أنه رفض سؤالى . أما المارشال فقال إنه قادم معى وسيكون شاهداً على العنف الذى أستعمله معه.

٣٨٤ — وما كدت أصل إلى المخزن حيث توجد الخزانة حتى سألت خازن أموال الداوية الموجود هناك أن يناولنى مفاتيح صندوق أمامه ، فلما رآنى نحيفاً قد أنهكنى المرض وليس علىّ من الثياب غير ما كنت أرتديه فى الحبس أصر على الرفض ، وحينـذاك أبصرت مطرقة صغيرة كانت ملقاة على الأرض فتناولتها وقلت : إننى سأتخذ منها مفتاح الملك، فلما رأى المارشال ذلك لـكمنى ، وقال : « سيدى ، إننا نرى أنك تستعمل العنف معنا ، وسنأمر بإعطائك المفاتيح » . ثم أصدر أمره إلى الخازن بإسلامى إياها ، فاستجاب له الخازن الذى استبدت به الدهشة حينما أفصح له المارشال عن شخصيتى .

٣٨٥ — وجدت أن الصندوق الذى فتحته ملـكا لنيقولا دى شواسيه أحد سرجندية الملك ، فأخرجت ما به من فضة ، وذهبت فجلست على مقدم القارب الذى جاء بى ، وأخذت معى مارشال فرنسا وتركته حارساً على ما فى مركب الداوية من المال ، كما أبقيت وزير الثالوث على ظهر السفينة .

فلما صرنا على السفينة ناول المارشال النقود إلى الوزير الذى ناولنى إياها

---

(١) من بداية الفقرة حتى هذه الكلمة وارد فى جونز فقط ، ولم يرد فى الأصل .

بدوره وأنا على القارب الصغير حيث كنت جالساً ، فلما انتهينا من ذلك وصرنا على مقربة من مركب الملك أخذت فى الهتاف به « مولاى ، مولاى ، أنظر كيف جئت فى أحسن زاد » ، فتلقانى الرجل القديس بالفرحة البالغة ، ثم ناولت المبلغ الذى جئت به إلى القائمين بعدّ مال الفدية[1] .

وفاء الملك بتنفيذ الاتفاق

٣٨٦ — حين فرغ القوم من العد ، جاء إلى الملك مشيروه الذين أنجزوا العدّ وقالوا : إن المسلمين لن يطلقوا سراح أخيه حتى يصبح المبلغ فى أيديهم ، وكان من بين هؤلاء المشيرين من يرون ألا يدفع الملك الفدية حتى يردوا إليه أخاه أولا ، ولـكن الملك أجابهم أنه سيسلمهم الأموال وفاءاً لما اتفق وإياهم عليه ؛ أما فيما يتعلق بالمسلمين فلو أرادوا التمسك بشرف كلمتهم فلا بد لهم من الالتزام بالوفاء بما عاهدوه عليه .

وحينذاك قال فيليب لورد نيمور للملك إنهم اكتالوا فى الوزن عشرة آلاف دينار من حق المسلمين .

٣٨٧ — غضب الملك إذ طرق سمعه هذا الـكلام ، وقال إنه مصرٌّ على أن يعيد العشرة آلاف درهم بعد أن عاهدهم أن يدفع لهم مائتى ألف دينار قبل

---

(١) نسخة ويللى أوفى من بقيـة النسخ فى تفصيل الطريقة التى حصل بها جوانفيل على المبلغ المطلوب من الداوية فقد جاء فى جونز ، ص ٤٥٦ مانصه « ذهبت فى الحال إلى إحدى سفن الداوية وأبصرت صندوقاً رفضوا إعطائى مفاتيحه فهممت بفتحه كسراً باسم الملك بإسفين لولا أن أمر المارشال — وقد رأى صدق عزمى — بإعطائى المفاتيح ، ففتحت الصندوق وأخذت المبلغ المطلوب وحملته إلى الملك الذى كان سروره عظيما بعودتى » .

مغادرته النهر ، فوكزت لورد فيليب بقدمى وطلبت إلى الملك ألا يصدقه فيما يدعى ، وإذ ذاك قال السيد فيليب : إنى لم أقل غير الحق ، وأنه قال ما قال على سبيل المداعبة ، فأجابه الملك : « ولكنها دعابات ثقيلة ممجوجة »، وقال لفيليب : « وإنى لآمرك بحق طاعتك إياى باعتبارك تابعاً لى أن تأمر برد هذه الآلاف العشرة من الدنانير دون إبطاء ، إن لم تكن قد دفعت بعد » .

٣٨٨ — وقد نصح الكثيرون الملك بالانسحاب إلى سفينته التى كانت فى انتظاره فى البحر حتى لا يكون فى متناول يد المسلمين ، ولكنه لم يستمع إليهم أبداً قائلا : إنه لن يترك مكانه بالنهر حتى يتم دفع المائتى ألف دينار .

على أنه ما كاد يتم الدفع حتى قال الملك من تلقاء نفسه إنه أصبح فى حل من أيمانه ، وأنه ينبغى علينا الرحيل والمضى إلى السفينة الراسية بالبحر .

٣٨٩ — أخذ مركبنا فى الإقلاع ، وقطعنا مرحلة كبيرة ونحن صامتون من جراء الأسى الذى كنا نعانيه لتركنا كونت بواتييه فى الأسر ، ثم جاء فيليب دى مونتفورت فى سفينة إسبانية وصاح بالملك : « مولاى ، مولاى ، كلم أخاك الكونت دى بواتييه الموجود فى هذه السفينة الأخرى » فهتف الملك : « استبشروا خيراً ، استبشروا خيراً ! » فكان ما أراد ، وعمنا سرور لم نر أعظم منه ، ومضى الملك إلى سفينة الكونت ونحن فى إثره ، وانطلق صياد فقير إلى زوجة كونت دي بواتييه ذا كراً لها أنه رأى الكونت طليقاً ، فأمرت له بعشرين ديناراً باريسياً .

* * *

٣٩٠ — يجب ألا ننسى بعض أمور حدثت فى مصر حين كنا بها ، وسأخبرك أولا عن جوشيه دى شاتيون ، حيث ذكر لى أحد الفرسان — واسمه جون دى مونسون — أنه رآه يشق أحد شوارع القرية التى كان الملك أسيراً بها وقد سل حسامه فى يده ، وكان هذا الشارع يشق القرية فى استقامة، حتى لقد كنت تستطيع أن ترى الحقول الفسيحة من طرفيه .

٣٩١ — فلما رأى دى شاتيون أن الترك قادمون إلى هذا الشارع كر عليهم وسيفه فى يده وطردهم خارج القرية ، وحدث فى أثناء هروبهم أمامه أن أخذوا يرمونه بنشابهم ، لأنهم كانوا قادرين على الرمى من وراء ومن قدام .

فلما طردهم من القريه استل السهام التى كانت به ثم أعاد وضع سترته الحربية ونهض مقتعداً سرجه ورفع ذراعه وصاح : « شاتيون يافارس ؟ ياشاتيون ! أين رجالى البارعون ؟ » وحين استدار ورأى أن الترك قد دخلوا الشارع من ناحيته الأخرى كر عليهم كرة أخرى وسيفه فى يده فولوا مدبرين، وقد فعل ذلك بهم ثلاث مرات على هذه الصورة .

٣٩٢ — ولما أخذنى أمير السفن لأنضم إلى أولئك الذين أسروهم على اليابسة سألت عن كونت شاتيون ممن كانوا حوله ، ولكننى لم أجد أحداً يستطيع أن يدلنى كيف أخذوه ، غير أن چون دى فوينون Fouinon الفارس الطيب أخبرنى أنهم كانوا قد أخذوه هو ذاته أسيراً إلى المنصورة ، فأبصر تركياً ممتطياً صهوة جواد سيدى جوشيه دى شاتيون وكان سرج الحصان

ملطخاً كله بالدم ، فاستفسر لورد جون من التركى عما فعله بصاحب هذا الحصان. فأجابه التركى : إنه قطع رقبته على نفس هذا الحصان الذى يمتطيه ، كما يتبين من السرج الملوث بالدماء .

٣٩٣ — وكان فى الجيش رجل باسل جداً اسمه جمس القشتالى أسقف سواسون شاهد رجالنا وهم آخذون فى الارتداد نحو دمياط ، فلم تعد به ثمت رغبة فى العودة إلى الأرض التى ولد بها ، وحملته لهفته على ملاقاة الرب إلى ضرب خاصرتى جواده بمهمازه ، وكر وحيداً على الترك الذين تناوشته سيوفهم قتلا ، فمهدوا له السبيل لمرافقة الرب ليدرج بين عداد الشهداء .

٣٩٤ — وبينما كان الملك ينتظر أن يســـدد رجاله المبلغ المتفق عليه لإطلاق سراح أخيه كونت دى بواتييه جاء إلى الملك مسلم غرانق فى أحسن كسوة ، وقدم إليه لبنـا فى جرار وزهوراً مختلفة الألوان والأنواع هدية من أبناء الناصر[1] Nasac الذى كان سلطان مصر ، وقدم إليه هذه الأشياء ، وكان هذا المسلم يتـكلم الفرنسية .

٣٩٥ — حينذاك سأله الملك أين تعلم الفرنسية ، فذكر أنه كان فى سابق عهده نصرانيا ، فقال له الملك « أغرب عنى فلن أتحدث إليك » . فانتحيت به جانبا وسألته عن خبره فأنبانى أنه من مواليد منطقة بروفنس، ثم قدم إلى مصر فى صحبة الملك حنا وتزوج بها وأصبح من كبار رجالاتها، فقلت له :

(١) هكذا فى الأصل وكذلك فى الترجمة الفرنسية ، أما جونز (ص٤٥٨) فقد ترجمها Par les enfans le على حين أن جوانفل قال فى الأصل The Nasac of the Sultan Nasac وربما كان المقصود بذلك الملك الناصر داود الذى سمى نفسه بسلطان مصر .

ألا تعرف جيداً أنك لومت على هذا الوضع فإنك ستكون ملعوناً ويكون الجحيم مثواك؟ ».

٣٩٦ — ولما كان مؤمناً تمام الإيمان بأن ليس هناك من دين أحسن من النصرانية فقد أجابني بقوله : « بلى ولكني لا أستطيع مجابهة الفقر الذى لا بد أن أعيش فيه والمعرّة التى أعانيها لوعدت إليكم ، فستقولون عنى كلما رأيتمونى : « انظروا هذا العلج » . لذلك فإننى أفضل الحياة هنا فى ثراء وراحة على أن أضع نفسى فى مثل هذا الموقف الذى أتوقعه » .

فأخبرته بأن العار الذى سيكابده يوم الحساب ـ حين تتضح خطيئته أمام الجميع ـ سيكون أكبر من العار الذى يتحدث عنه ، وشجعته بكثير من الكلمات المشجعة لكنها لم تجد معه نفعاً ، ومن ثم تركنى ولم أره بعد ذلك أبداً .

• • •

آلام الملكة بدمياط

٣٩٧ ـ لقد سمعت فيما ذكرته آنفا عن الخطوب الكبار التى تحملناها نحن والملك والتى لم تكن الملكة ذاتها بمنجاة منها كما ستسمع حالا ، فقد جاءها خبر أسر الملك قبل اعتكافها فى الفراش بثلاثة أيام ، فأفزعها النبأ فزعاً كان يخيل إليها معه وهى نائمة أن الغرفة غاصة بالمسلمين فتصرخ « النجدة ! النجدة ! » .

وخافت أن يؤدى ذلك إلى موت الجنين فى بطنها ، فاستقدمت فارساً كهلا فى الثمانين من عمره ينام على مقربة من سريرها ويمسك راحتها، فكانت

كلما صرخت فازعة هتف بها « لا تنزعجى يامولاتى فأنا هنا » .

٣٩٨ — وكانت قبل انكفائها إلى فراشها تأمر بإخلاء حجرتها من كل من بها سوى هذا الفارس ،ثم تركع أمامه ملتمسة منه أداء خدمة لها ، فيقبل الفارس ويقسم لها اليمين على ذلك وتقول له « أتوسل إليك بحق العهد الذى قطعته لى الآن أن تبادر إلى قطع رأسى — إذا دخل المسلمون المدينة — قبل وقوعى فى أيديهم » . فيرد عليها الفارس « كونى واثقة أننى سأفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، لأننى مصمم كل التصميم على قتلك قبل أن يأخذوك » .

٣٩٩ — وضعت الملكة طفلا اسمه جون[1] ونعتوه بالحزين Tristan بسبب الألم الكبير والحزن العظيم اللذين كانا عند ولادته ، وقد حدث فى نفس يوم الوضع أن أخبرها البعض باعتزام البيازنة والجنوية وأهل المدن الحرة الأخرى الفرار ، فلما كان اليوم التالى استدعتهم جميعاً إليها بجوار فراشها حتى غصت بهم الحجرة وقالت لهم : « أيها السادة ، أتوسل إليكم بحق الله ألا تغادروا هذه المدينة ، لأنكم ترون أن فى ضياع هذه المدينة ضياعاً نهائيا للملك ولجميع من أخذوه أسيراً معه ، فإذا لم يحرك هذا منكم ساكناً فاستشعروا الرحمة بهذه المخلوقة البائسة الفقيرة المسجاة هنا وتريثوا حتى أبلّ من مرضى » .

٤٠٠ — فأجابوها « وماذا نفعل يامولاتنا ؟ إننا سنموت جوعاً فى هذه المدينة ؟ » فأخبرتهم ألا يجعلوا المجاعة سبباً فى مغادرتهم إياها ، « لإننى سآمر بشراء كل ما فى المدينة من طعام ، وسأعينكم جميعاً على نفقة الملك » .

فتشاوروا فيما بينهم ثم عادوا إليها قائلين لها إنهم ارتضوا البقاء ، وإذ

---

(1) هو الذى مات بتونس عام ١٢٧٠ وهو فى العشرين من عمره .

ذاك أمرت الملكة عليها رحمة الله بشراء كل ما فى المدينه من طعام بمبلغ ثلاثمائة وستين ألف جنيه أو يزيد ، غير أنه قدر لها أن تغادر فراشها قبل الأجل المضروب بسبب اضطرار المدينة للتسليم للمسلمين، فرحلت الملكة إلى عكا فى انتظار الملك .

• • •

سفر الملك إلى عكا

٤٠١ — بينما[1] كان الملك فى انتظار إطلاق سراح أخيه بعث بالأخ راؤل — وهو أحد الإخوان المبشرين — إلى أمير من الأمراء اسمه فارس الدين أقطاى وهو من أخلص من رأيت من المسلمين ، مخبراً إياه كيف أنه عجب كل العجب من أن ينقض هو وغيره من الأمراء الاتفاق المبرم بينهم وبينه حين عمدوا إلى قتل المرضى الذين كانت حمايتهم إياهم فرضاً عليهم ، وكيف أنهم اتخذوا من الآلات الحربية قمامة ، وكيف أحرقوا المرضى واللحوم المملحة التى تعهدوا بحفظها .

٤٠٢ — فرد فارس الدين أقطاى على الأخ راؤل قائلا « أيها الأخ راؤول: خبِّر الملك أن دينى يحول بينى وبين مساعدته فى هذه المسألة الشديدة الوقع على نفسى ، وخبره أيضاً عن لسانى ألا يبدى أى مظهر من مظاهر عدم الرضاء طالما هو فى أيدينا ، لأن ذلك يؤدى به إلى الموت » .

وكان من رأى الأمير أن يعاود الملك هذا الطلب بعد وصوله إلى عكا .

---

(١) الخبر من هذه الكلمة حتى نهاية فقرة ٤٠٢ غير وارد فى جونز .

٤٠٣ ــ ولما[1] جاء الملك إلى السفينة وجد أن جماعته لم يهيّئوا له شيئاً من الطعام أو الملبس ، ومن ثم كان عليه أن ينام ــ حتى وصولنا إلى عــكا ــ على الحشايا التى أعطاها له السلطان ، وأن يلبس ما كان السلطان قد أمر بتجهيزه له وإمداده به ، وكانت هنا الملابس من الساتان الأسود المخطط وفراء السنجاب الأغبر وكمية كبيرة جداً من الأزرار المصنوعة من الذهب الخالص .

٤٠٤ ــ بقيت إلى جوار الملك الأيام الستة التى قضيناها بالبحر رغم ما كنتُ أعانيه من وعكة ، ولقد أخبرنى حينذاك عن كيفية أسره وكيف استطاع بمعونة الرب مفاوضتهم فى صدد الفدية المطلوبة لنفسه ولنا .

ثم طلب إلىّ أن أذكر له كيف أسرونا على سطح الماء [وكيف أنقذنى أحد المسلمين من الموت[2]] ، فلما سمع ذلك أخبرنى أننى مدين بالشــكر الجزيل لسيدنا ، إذ خلصنى من هذه الأخطار الجسيمة .

كما أنه حزن حزناً شديداً على أخيه كونت دارتوا الذى لم يــكن ليأبى القدوم لرؤيته كما فعل كونت بواتييه ، وأنه كان بلا شك مستعداً لرؤيته على ظهر مراكبه .

٤٠٥ ــ كذلك اشتــكى لى من كونت دانجو الذى كان على ظهر السفينة لأن الــكونت لم يرافقه أبداً . ولقد حدث ذات يوم أن سأل عما

---

(١) ورد هــذا الخــبر فى جونز على الصورة التالية « وعلى الرغم من أن الملك قد قاسى شتى ضروب الآلام إلا أنه حين أصبح بالسفينة وجد أن خدمه لم يهيئوا له أى ترتيبات بها مما يحتاجه كالثياب والفراش والغطاء » .

(٢) الإضافة من جونز ، ص ٤٦٠ .

يفعله كونت دانجو فأخبروه أنه يلعب الورق على المائدة مع وولتر دى نيمور، فذهب إليهم وهو يدب على الأرض لشدة ما به من الضعف بسبب المرض ، وقذف إلى اليمّ بما أمامهم من زهر اللعب وموائده، غير أن خسارة دى نيمور كانت أكبر من خسارة الكونت لأن الملك أتبع ذلك بإلقائه كل ما على المائدة من النقود .

واشتد غضبه على أخيه لأنه كان منهمكا فى لعب الميسر [ولأنه[1] لم يكن يفكر إلا فى إدخال المسرة على نفسه بالمقامرة ، متناسيا موت أخيه كونت دارتوا ، والأخطار الجسيمة التى خلصهم الرب منها] .

. . .

متاعب جوانفيل بعكا

٤٠٦ ـــ سأخبرك هنا عن كثير من البلايا والأهوال التى لقيتها فى عكا التى خلّصنى منها الرب الذى كنت ولا زلت أضع ثقتى فيه ، وسأروى فيما يلى هذه المشاق حتى يتوكل على الرب من ألمّتْ بهم هذه البلايا ويثقوا بمساعدة الرب إياهم كما ساعدنى .

٤٠٧ ـــ ودعنا نقص خبرها الآن ، ذلك أنه حينما جاء الملك إلى عكا قدمت إلى شاطىء البحر مراكب جميع رجال الدين وأهل عكا الذين خرجوا لاستقباله فرحين أشدّ الفرح ، وجاءونى بجواد صغير لم أكد أمتطيه حتى خفق قلبى وقلت لمن أحضره أن يمسكنى خوف الوقوع . ثم أخذونى ولقوا

---

(١) الإضافة من جونز ، ص ٤٦٠

كثيراً من المشقة فى إصعادى درجات قاعة الملك حيث ذهبت وجلست إلى إحدى النوافذ ، وعلى مقربة منى طفل فى حوالى العاشرة من عمره اسمه بارتلميو ، وكانت أمه أم ولد للورد أمى دى مونتبليار de Montbéliard صاحب مونت فوكون Montfaucon .

٤٠٨ — وبينما أنا فى مجلسى هذا وليس من أحد يرعانى جاءنى خادم فى قميص أحمر ومعه سوطان أصفران نخيانى، وسألنى عما إذا كنت أعرفه فأجبته نفيا ، فذكر لى أنه قادم من Oiselay قلعة عمى،فسألته لمن ولاؤه، فذكر أن ليس له من سيد وأنه سيبقى معى إذا رغبت فى ذلك ، فرحبت به كل الترحيب ، فذهب باحثاً لى عن شعر أبيض مستعار ومشطنى جيداً .

٤٠٩ — ثم بعث الملك فى طلبى لآكل معه فذهبت إليه مرتديا القميص الذى كنت ألبسه زمن وقوعى فى الأسر .

٤١٠ — ثم جاءنى تابعى الجديد وأخبرنى أنه (١) تمكن من إيجاد منزل آوى إليه قريب من الحمامات حيث أستطيع إزالة ما علق بى من الأوساخ وما تراكم من العرق أثناء وجودى فى الأسر ، فلما أقبل الليل دخلت الحمام فاعترانى هبوط فى القلب وإغماء ، فأخذونى فى مشقة كبيرة من الحمام وسجونى فى فراشى .

فلما كان اليوم التالى قدم لعيادتى فارس كهل اسمه بطرس دى بوربون ، فأبقيته إلى جوارى ، فكان كفيلى فى المدينة فيما احتجته من ملابس ومعدات أخرى .

---

(١) رواية نسخة جونز ،ص ٤٦٣ صريحة فى أن أسقف عكا هو الذى رتب لجوانفيل هـذا المكان ليقيم فيه أثناء وجوده بعكا .

٤١١ — ولما أخذت زينتى بعد أربعة أيام كاملة من قدومنا إلى هناك ذهبت لرؤية الملك، فلامنى قائلا إننى لم أحسن صنعاً لتأخرى طوال هذه الفترة عن الذهاب إليه ، وأمرنى — إظهاراً لحبه - أن آكل معه كل يوم فى الصباح والمساء حتى يقرر ماينبغى علينا عمله من الذهاب إلى فرنسا أو البقاء حيث نحن .

٤١٢ – فأخبرت [١] الملك أن سيدى بطرس دى كورتنى Courtenay مدين لى بأربعمائة دينار من أجرى وأنه يأبى دفعها لى ، فأجابنى الملك بأنه سوف يأمر حالا بدفع هذا المبلغ من المال الذى فى ذمته للسيد كورتنى ، وتم ذلك فعلا ، وانصعنا لنصيحة بطرس دى بوربون فأخذنا أربعين دينارا نفقة لنا، أما الباقى فقد أودعناه أمانة عند المشرف على دير الداوية، حتى إذا تم إنفاق الأربعين ديناراً بعثت بالأب جون كايم دى سانت ميتيهولد (الذى استخدمته عندى فيما وراء البحار) ليحضر لى أربعين أخرى ، فأنكر مشرف بيت الداوية أننى استودعته شيئاً ، وأنكر معرفته بى .

٤١٣ — فذهبت من ثم إلى الأخ رينو دى فيشيه الذى أصبح رئيس فرسان المعبد بفضل مساعدة الملك إياه وبفضل رعايته الملك وقت أسره ، وشكوت إليه أمر مشرف حصنه الذى أبى أن يرد إلىّ مالى الذى استودعته إياه، فقال لى «ياسيد جوانفيل ، أنت تعلم أننى أحبك كثيراً ، لكن ثق أننى لن أحبك إذا لم تكف عن إثارة هذه القضية لأنك تريد أن تدخل فى اعتقاد الناس أن إخواننا الفرسان الداوية لصوص » .

فأخبرته أننى لن أكف عن هذه القضية بعون الله .

---

(١) الفقرات ٤١٢ — ٤١٤ غير واردة فى نسخة جونز.

٤١٤ — أقمت أربعة أيام أعانى ألم القلب شأن من لا مال عنده للصرف فلما انصرمت هذه الأيام الأربعة جاءنى كبيرالداوية ضاحكاً وقال إنه وجد نقودى .

أما كيف وجدوها فقد بدّلوا المشرف على الحصن وأرسله إلى قرية اسمها سيفورى ، وبذلك أعاد لى هذا الرجل ما لى .

. . .

مرض جوانفيل وكرم كونت أنجو

٤١٥ — أمر أسقف عكا — وكان من أهالى بروفنس — أن يؤجر لى بيت قسيس سنت ميشيل، وكنت قد أبقيت فى خدمتى كايم دىسانت مينهولد الذى ظل يخدمنى فى أمانةمدى عامين أحسن من أى تابع آخر لىخارج فرنسا، وكنت قد اصطنعت فى خدمتى كثيراً من الناس .

وكان عند رأس فراشىمقصورة تؤدى إلىالكنيسة،وحدث أن اعترتنى كما اعترت جميع رجالى ، حمى دائمة فمضوا بى إلى فراشى ؛ ولم يكن عندىأحد فى أثناء مرضى يقوم على خدمتى أو يساعدنى على النهوض من فراشى فلم أكن أتوقع غير الموت، وذلك من جراء التخدير الذى كانيرن فى أذنى حيث كانوا يحضرون إلى الكنيسة كل يوم عشرين ميتاً أو يزيد ، وكنت أسمع فى كل مرة . وأنا فى فراشى هـذه الأنشودة Libera me, Domine فأبكى وأرفع شكرى لله وأخاطبه قائلا :

« أيها الرب ، أرفع إليك عبادتى لهذا الألم الذى تذكرنى به فى يقظتى ورقودى ، وأتوسل إليك أيها الرب أن تخلصنى منه » .

وهكذا استجاب الرب نخلصتى أنا ورجالى .

٤١٧ — التمست بعدئذ من جيليمين — تابعى الجديد — أن يقدم لى كشف الحساب ففعل، فوجدت أنه خدعنى فى مبلغ قارب عشرة آلاف تورى أو أكثر ، فلما طالبته بها قال : نظرة إلى ميسرة. ففصلته من خدمتى وأخبرته أننى متنازل له عما فى ذمته لى لأنه يستحق ذلك المبلغ .

ثم علمت بعدئذ من فرسان برجنديا بعد عودتهم من الأسر أنه كان أظرف لص شاهدوه ، ذلك أن الفارس كان إذا احتاج إلى سكين أو سرج أو قفاز أو مهماز أو أى شىء آخر ذهب جيليمين وسرقه وأعطاه إياه .

٤١٨ — وفى الوقت الذى كان الملك فى عكا أخذ إخوته أنفسهم بلعب الميسر؛ وكان كونت بواتييه كريماً فى لعبه ، فكان إذا ربح أمر بفتح الحجرة ودعوة السادة إليها وكذلك السيدات — إن وجدن — وأغدق عليهم من نقوده ومما كسب .

أما إذا خسر فإنه يشترى نقود من يلاعبه سواء أكان هذا أخاه كونت أنجو أم غيره ، ثم يوزع ما معه سواء من نقوده أم نقود الآخرين .

مناقشة عودة الملك

٤١٩ — فى أثناء وجودنا بعكا أرسل الملك فى أحد أيام الآحاد فى استدعاء أخويه وكونت فلاندر [1] وكبار الرجالات الآخرين وقال لهم « أيها السادة

---

(١) الوارد فى نسخة جونز ، ص ٤٦٣ ، أن الملك بعث فى استدعاء « إخوته وبقية النبلاء » دون ذكر لكونت فلاندر مما يؤكد أنه لم يكن بها إذ ذاك . راجع المقدمة . وكذلك فقرة ٣٧٩ .

لقد بعثت لى سيدتى الملكة الوالدة[1] تلح علىّ أن أعود إلى فرنسا لما هو حائق بمملكتى من خطر كبير من جراء عدم إبرام الصلح أو عقد المدنة بينى وبين ملك انجلترا .

وقد أخبرنى أهالى هذا البلد ممن حادثتهم فى هذا الصدد أن مغادرتى إياه سيترتب عليها ضياع كل هذه النواحى إذ سينهج نهجى كل من بعكا ، ولن يجرؤ أحد على البقاء بها لعدم وجود قوة كافية للدفاع عنها ، لذلك ألتمس منكم أن تتدبروا هذه المسألة غاية التدبر لما لها من أهمية بالغة ، ثم تعودوا إلىّ بعد ثمانية أيام من يومنا هذا لموافاتى برأيكم فيما تعتقدونه صالحاً » .

٤٢٠ — وفى خلال[2] هذه الأيام الثمانية جاءنى القاصد الرسولى وقال إنه لا يدرك كيف يستطيع الملك البقاء حيث هو، ثم ألحّ علىّ أن أعود معه فى الحال فى سفينته ، فأخبرته بخروج هذا الأمر عن قدرتى ، فلم أعد أملك شيئاً بعد أن ألقيت فى النهر — كما علمت — كل ما كان فى حوزتى حين أسرنى المسلمون .

٤٢١ — وقد أجبته بذلك لا عن كراهية منى للذهاب معه، بل من جراء عبارة قالها سيدى دى بورلمونت Bourlemont ابن خالتى رحمه الله وأنا ماض إلى الأرض المقدسة، حيث قال « أنت ذاهب الآن إلى ما وراء البحار فتدبرّ أمر عودتك، لأنه ما من فارس — فقيراً كان أم غنياً — يستطيع العودة دون أن يدنّس شرفه إذا ما خلّف وراءه فى أيدى المسلمين من هم أقلّ منه من شعب الرب ممن ذهبوا فى صحبته » .

---

(١) يستفاد من رواية جونز ص ٤٦٣ أن لويس ذاته هو الذى رأى أن الظروف تحتم عليه العودة إلى فرنسا ، وهذا خطأ تاريخى .

(٢) لم ترد الفقرتان ٤٢٠ ، ٤٢١ فى نسخة جونز ، شرحه .

فغضب القاصد الرسولى منى وأخبرنى أنه ما كان ينبغى علىّ أن أرفض اقتراحه .

. . .

تباين الآراء وتمسك جوانفيل بالبقاء

٤٢٢ — مثلنا يوم الأحد التالى مرة أخرى فى حضرة الملك الذى[1] سأل إخوته والبارونات الآخرين وكونت فلاندرز الرأى الذى اتفقوا عليه بشأن العودة إلى فرنسا أو البقاء حيث هم ، فأجابوه أنهم وكلوا إلى السيد جى دىموفوازان أن يقرّر له صورة النصيحة التى يريدون إسداءها إلى الملك .

وإذ ذاك أمر الملك جى دىموفوازان أن يفضى إليه بها فقال له .

٤٢٣ — « مولاى ، لقد تدبر إخوتك وكبار رجالاتك الحاضرون هنا وضعك ، ورأوا ألاّ جدوى تعود عليك من بقائك فى هذه البلاد ولا نفع لمملكتك ، إذ لم يبق معك فى هذه المدينة غير مائة فارس فقط من جميع فرسانك الذين قدموا صحبتك ، مع أنك سرت إلى قبرص على رأس ألفين وثمانى مائة منهم ، ولذلك فإننا نمحضك النصح يا مولاى أن تعود إلى فرنسا وأن تدبر المال والرجال ، ثم تعود على جناح السرعة إلى هذه البلاد ، وتنتقم من أعداء الرب الذين أخذوك من قبل أسيراً » .

٤٢٤ — غير أن الملك لم تطب نفسه بما قاله جى دىموفوازان ، فراح يسأل كونت أنجو وكونت بواتييه وكونت فلاندر وكثيرين غيرهم من كبار

---

(١) الجملة من هنا حتى عبارة « حيث هم » فى السطر بعد التالى غير واردة فى جونز ، ص ٦٣ .

رجالاته الجالسين على مقربة منهم أن يطالعوه بآرائهم ، فاتفقوا جميعاً على ما قاله لورد جى دى موفوازان .

وإذ ذاك سأل القاصد الرسولى كونت جون دى يافا – وكان جالساً خلفهم – عما يرى ، فالتمس منه كونت يافا إعفاءه من الإجابة على هذا السؤال قائلا « إن قلعتى واقعة على الحدود ، فإذا نصحت الملك بالبقاء ظن القوم أننى فعلتُ ذلك إيثاراً لمصلحتى الذاتية » .

٤٢٥ – وحينذاك سأله الملك أن يقول ما يراه ، فقال الكونت « إذا استطاع الملك البقاء هنا مدة عام واحد كان ذلك أجدى عليه » ، وحينذاك سأل القاصد الرسولى من كانوا جالسين مع كونت يافا ، فاتفق رأيهم جميعا على ما قاله السيد جى دى موفوازان .

٤٢٦ – وكان ترتيبى الرابع عشر ، وكنت جالساً فى مواجهة القاصد الرسولى ، فسألنى ماذا أرى ، فأجبته أننى متفق مع كونت يافا ، ثم سألنى القاصد الرسولى فى غضب كيف يستطيع الملك أن يبقى فى مثل هذا العدد الضئيل من الرجال ؟ فحسبته قد تعمد إغضابى بما قال ، فأجبته فى عنف : « سيدى ، سوف أخبرك ما دامت هذه هى رغبتك » .

٤٢٧ – « يقال يا سيدى – وإن كنت لا أدرى مكانة الصدق فى هذا القول – إن الملك لم يصرف بعد شيئا من أمواله [1] ، ولكنه صرف أموال رجال الدين ، لذلك فلندع الملك ينفق من أمواله ، ولندعه يرسل فى استقدام الفرسان

---

(١) هذا يؤيد رواية النسخة التى ترجم عنها جونز ص ٤٦٣ حيث ورد أن من بين الأسباب التى تذرع بها جى دى موفوازان لصرف الملك عن البقاء فى عكا عدم توفر الأموال فى يدى الملك ، راجع أيضا Grousset : Hist. des Croisades, t., III, p.495

من المورة Morea ومن وراء البحار ، وحينما يسمعون أن الملك سوف يؤجرهم أجراً كبيراً فإنهم سيفدون عليه من جميع النواحى ، وإذ ذاك يستطيع بواسطتهم وبمشيئة الرب الصمود مدة عام يتمكن خلاله من تخليص الأسرى الفقراء الذين ضحوا فى سبيل الرب وفى سبيل خـــدمة الملك ، والذين لن يتحرروا إذا ما رحل » .

ولم يكن بين الحاضرين من أحد إلا وله قريب أو صـــديق فى ربقة الأسر ، ومن ثم لم يلمنى أحد ما ، بل شرع الجميع فى البكاء .

٤٢٨ — بعد أن فرغت من كلمتى عاج القاصد الرسول بالسؤال على ونيم لورد بيمونت الذى كان إذ ذاك مارشال فرنسا، يستفسره عن رأيه، فذكر أننى تكلمت حقاً ثم قال « سأخبرك عن السبب » .

وحينذاك نهض عمه سيدى لورد بيمونت Beaumont الفارس الطيب وكان شديد اللهفة على العودة إلى فرنسا،فصاح به منتهراً إياه وراح ينعته بالحمق والغباء وقال له : « ماذا لديك من قول تريد قوله ياقذر اللسان ، ألا فاجلس مكانك والزم الصمت » .

٤٢٩ — فقال الملك :« يا سيدى جون لقد اخطأت ، دعه يتكلم »

فأجابه : « محال يا مولاى لن أفعل ذلك » .

ومع ذلك فإن المارشال رأى الخير فى الصمت ، ولم يعد ثمت أحد يتفق معى فى رأيى غير لورد شاتنى .

وحينذاك قال الملك « أيها السادة ، لقد استمعت إليكم كما ينبغى وسأخبركم بالجواب الذى أرتضيه بعد ثمانية أيام من يومنا هذا » .

. . .

٤٣٠ — عندما خرجنا من هذا الاجتماع أخذ القوم في التهكم عليّ ولومى من كل النواحى قائلين « يا جوانفيل إن لم يأخـذ الملك برأيك ويؤثره على مجلس جميع مملـكة فرنسا فلا بد أن تـكون به لوثة جنون » .

فلما نصبت الموائد أجلسنى الملك إلى جواره أثناء تناول الطعام حيث اعتاد دائماً أن يجلسنى فى غياب إخوته ؛ ولم يخاطبنى ببنت شفة طيلة تناول الطعام على غير مألوف عادته ، لأنه كان يرعانى دائماً حينما نجلس إلى المائدة ، والواقع أن الظن ذهب بى مذهباً خلت معه أنه غاضب علىّ لما قلته من أنه لم ينفق بعد شيئاً من أمواله ، وأنه يتحتم عليه الإنفاق بسخاء .

٤٣١ — وبينما كان الملك يستمع إلى صلاة المائدة ذهبت إلى نافذة عند سريره وأخرجت يدىّ من قضبانها الحديدية ، ورحت أفكر إذا رجع الملك إلى فرنسا فلابدّ لى من أن أذهب الى أمير أنطاكية[1] الذى يعدّنى من أقاربه ، وكان قد بعث الىّ يسألنى الشخوص إليه والمقام عنـده حتى يحين موعد حملة أخرى تواتيها الفرصـة لإطلاق سراح الأسرى ، نفاذاً للمشورة التى أسداها لورد بولينكورت Boulaincourt .

٤٣٢ — وبينما كنت فى مكانى هـذا إذا بالملك قد قدم واتّـكأ على كتفىّ ووضع يديه فوق رأسى ، فحسبته فيليب دى نيمور Nemours الذى

(١) هو بوهيمند الخامس أمير أنطاكية وكونت طرابلس، والواقع أن حكمه فى أنطاكية كان حكما صوريا ، هذا إلى أنه كان شديد التعلق بالـكنيسة ، وقد كانت وفاته عام ١٢٦١ راجع Rey:Histoire des Princes d'Antioche, p. 400 seq

اشتدّ فى إيذائى هذا اليوم بسبب النصيحة التى ذكرتها ، ومن ثم قلت : « اتركنى فى هدوء ياسيدى لورد فيليب » .

وحدث بالصدفة أن أدرت رأسى فوقعت يد الملك على وجهى فعرفت أنه هو الملك بسبب وجود حجر زمرّدى فى إصبعه ، فقال « إلزم هدوءك لأننى أريد أن أسألك كيف تأتّى لك أن تبلغ هذا الحدّ من الجرأة ، أنت يامن لم تجاوز بعد شرخ الشباب فتمضى لتنصحنى بالبقاء هنا، رغم نصيحة جميع كبار رجالات فرنسا وعقلائها الذين أشاروا علىّ بالرحيل ؟».

٤٣٣ — فقلت له : « مولاى ، لو أن فى قلبى ذرة من الشرّ لما نصحتك»، فأجابنى «هل تقصد أن تقول إننى أخطىء لو رحلت ؟» ، فقلت له« ليساعدنى الرب ، أجل يامولاى ! » :

فسألنى : « هل تبقى أنت أيضاً لو بقيت أنا ؟ »

فقلت له « أجل إذا استطعت على نفقتى أو على نفقة أحد آخر » .فأجابنى « لتطمئن نفسك لأننى جد مسرور منك من أجل الرأى الذى ذكرته ، ولكن لا تخبر أحداً بذلك حتى ينصرم الأسبوع » .

٤٣٤ — فغمرتنى [1] الطمأنينة أكثر من قبل حين سماعى هذه الكلمات وأخذت أدافع عن نفسى بجرأة أكبر ضد أولئك الذين هاجمونى ، وكان فلاحو هذه البلاد يسمون بالمولدين [2] Poulains ، وقد قال السيد بطرس

---

(١) فى نسخة جونز ، ص ٤٦٥ « غمرنى السرور طول هذا الأسبوع من جراء ماسمعته منه » .

(٢) جاء فى تعريف الـ Poulains أنه طفل نتاج زواج فرنسى من مسيحية فى سورية =

دى أفالون Avallon الذى كان يعيش فى صور إنه سمع البعض يدعى أننى من جماعة المولدين المهجنين لأننى نصحت الملك بالبقاء بين هؤلاء المهجنين ، لذلك أرسل بطرس دى أفالون إلىّ يطلب منى أن أقوم بالدفاع عن نفسى ضد أولئك الذين سمونى بالعلج، وأن أقول لهم إننى أوثر أن أسمى مهجناً من أن أتخلى عن الميدان كما فعلوا هم أنفسهم .

. . .

الملك يقرر البقاء

٤٣٥ — فلما كان يوم الأحد التالى عدنا جميعاً إلى الملك وإذْ رأى الشمل مكتملا رسم علامة الصليب على فمه ، ولعله فعل ذلك التماساً لمساعدة الروح القدس، لأن سيدتى الأم قالت لى إنه ينبغى علىّ أن التمس عون الروح القدس وأن أرسم علامة الصليب المقدس فوق فمى كلما هممت بالكلام .

٤٣٦ — ثم تكلم الملك فقال « أيها السادة ،أشكر شكراً جزيلاً أولئك الذين نصحونى بالعودة إلى فرنسا ، كما أشكر أيضاً من أشاروا علىّ بالبقاء هنا ، وقد حدثتنى نفسى أننى لو بقيت هنا فلن يكون ثم خطر على مملكتى ، لأن سيدتى الملكة[٢] عندها الكثيرون للدفاع عن مملكتى ، وقد تدبرت ما قاله

Enfant né de mariage d'un Franc et d'une femme indigêne=
Chretienne en Syrie (cf. Lexique de l'ancien Français, art.Poulin)
وقد جاء فى تعليق جونز (ص ٤٦٦ حاشيه رقم ١) لترجمته للمذكرات أنه الطفل المولود من أم أوربية وأب شامى ، على أن النص الذى جاء به لايتفق مع ماذكره بل على التعريف الذى ترجمناه فى أول هذه الحاشية وفيه يقول Pulaine dicuntor, qui de
patre Syriano et matre Francigena generantur ».

(١) يقصد بذلك أمه الملكة بلانش التى كانت تدبر المملكة أثناء غيابه فى مصر والشام.

بارونات هذه البلاد من ضياع مملكة بيت المقدس المحتم لو أنني غادرت هذه البقعة التي لن يجرؤ على البقاء بها أحد بعد مغادرتي إياها .

٤٣٧ — « لكل هذا عزمت عزماً أكيداً على ألا أبرح مملكة بيت المقدس بأي حال من الأحوال وهي المملكة التي جئت لحمايتها وإعادة فتحها ، وقد صدقني العزم على البقاء هنا في الوقت الحاضر، لذلك أقول لكم جميعاً — أنتم يا كبار الرجالات الموجودين هنا — أن من أراد البقاء معي فليأت لي ذاكراً رغبته هذه، وسأنفق عليكم عن سعة حتى لاتكون لكم حجة عليّ، ويكون العيب عيبكم إن رفضتم البقاء » .

فامتلأ الكثيرون ممن سمعوا قوله عجباً ، وبكى كثير من الحاضرين .

لويس يرسل أخويه ويستبقي جوانفيل

٤٣٨ — أمر الملك — كما قيل — بوجوب عودة إخوته إلى فرنسا ، ولست أدري إذا كان ذلك بناء على التماسهم هم أنفسهم أم هي مشيئة الملك الذي قال ما قال بشأن بقائه فيما وراء البحار قرابة عيد القديس يوحنا(١) .

وحدث في يوم الاحتفال بعيد القديس چيمس — وكنت من حجّاجه وكانت له أيادٍ كريمة جمة عليّ — أن عاد الملك إلى حجرته التي أقيم فيها قداسه ، وجمع مجلسه المؤلف ممن بقي معه وأعنى بهم السيد بطرس كاتم سره الذي كان أخلص من رأيت له وأشد أفراد حاشيته استقامة ، ثم السيد جوفرى دى سارجين Sargines الفارس الطيب والرجل الفاضل ، ثم السيد جيل

---

(١) وذلك يوم ٢٥ يوليو ١٢٥٠ .

لى برون Brun الفـارس الطيب والرجل الفـاضل الذى خلع الملك عليه كونستابلية فرنسا بعد موت الفاضل إمبرت دى بيجو Imbert de Beajeu .

٤٣٩ — تـكلم الملك إلى هؤلاء فى صوت منخفض فيـه رنّة الغضب فقال : « أيها السادة ، لقد مضى الآن شهر منذ أن عرف الناس أننى اعتزمت البقاء هنا ، ولم أسمع أنـكم استبقيتم أى فرسان فى خدمتى » .

فقالوا له « لقد عجزنا يامولانا عن حملهم على ماتطلب، لأنهم جميعاً يغالون فى تقدير أجر خدمتهم وإلاَّ عادوا إلى بلادهم ، ممـا لم نجرؤ معه على نقدهم ما يطلبون » .

فقال الملك « ومن تظنون أنـكم قادرون على استخدامه ؟ » .

فأجابوه « الحق نقول ، إنه سنسكال شمبانيا ولـكننا لا نستطيع إعطاءه ما يريد » .

٤٤٠ — كنت فى هذه اللحظة فى حجرة الملك وسمعت هذا الحديث[1] ، فقال الملك : « ادعو إلى السنـكال » . فذهبت إليه وركعت أمامه فأنهضنى على قدمىّ وقال :

« ياسنـكال ، إنك تعرف أننى أحبُّك كثيراً ، وقد أخبرنى رجالى أنهم وجدوك تطلب أجراً أكثر من سواك ، فـكيف كان ذلك ؟ » .

فأجبته : « مولاى ، إننى لا أستطيع غير هـذا ، لأنك تعلم أننى وقعت فى الأسر وأنا على سطح الماء فقذفت فى اليم بكل ما كنت أملـكه » .

---

(١) جاء فى نسخة جونز (ص ٤٦٨) بعد هذه العبارة التالية التى تبين وقوف الجميع ضد الملك « لقد أخبر المجلس الملك بكل تلك الأمور عنى لأنى نصحته بما لا يتفق ورأيهم إذ طلبت إليه البقاء ، وبذلك حلت بينهم وبين العودة إلى فرنسا » .

فسألنى عما أطلب فقلت إنى أطالب بألفى دينار حتى يحل عيد الفصح[1] لمدة ثلثى العام المتبقيين » .

٤٤١ — فقال لى « والآن خبرنى ، هلاً حاولت مساومة أحد من الفرسان؟ فقلت له « بلى ، حاولت ذلك مع بطرس دى بونت مولان Pontmolain ثالث فرسان ثلاثة من حملة الأعلام ، يكلف كل منهم أربعمائة دينار حتى يحل عيد الفصح » فعدّ الملك على أصابعه ثم قال : « إن فرسانك يكلفونك ألفاً ومائتى دينار » .

فقلت له « وإننى لمذكرك يامولاى أنى أتكلّف ثمانمائة دينار أخرى لشراء حصان وسلاح لى ولشراء طعام لفرسانى ، لأنك[2] لن تسمح لنا بالأكل فى بيتك » .

فالتفت إلى رجاله وقال لهم . « الواقع أننى لا أجده مبالغاً فيما طلب » ، ثم استدار إلىّ قائلا : « وإننى لمحتفظ بخدماتك » .

. . .

رحيل أخيه ورسل فردريك وسلطان دمشق

٤٤٢ — بعد ذلك أعدّ شقيقا الملك وكبار رجالاته الذين بعكا سفنهم للرحيل الذى ما كاد يحين وقته حتى استعار كونت بواتييه مجوهرات من أولئك الذين كانوا عائدين إلى فرنسا وبذلها فى سخاء مجاناً لمن تخلف منا بعكا .

---

(١) يعنى بذلك عيد فصح ١٢٥١

(٢) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية الجملة غير وارد فى جونز .

والتمس منيّ كل من الإخوين أن أرعى الملك كل الرعاية ، وأخبراني أنهما لا يستطيعان الاعتماد على أحد ممن بقي معه مثل اعتمادهما عليّ .

ولما همّ كونت أنجو بركوب سفينته أظهر الحزن الشديد حتى عجبنا له جميعاً ، ومع ذلك فقد عاد إلى فرنسا .

٤٤٣ — لم يمض وقت طويل على رحيل إخوة الملك عن عكا حتى جاءه رسل من قبل الإمبراطور فردريك يحملون خطابات الاعتماد، ويقولون للملك إن الإمبراطور أوفدهم للعمل على إطلاق سراحنا ، وأطلعوا الملك على الكتب التي بعث بها الإمبراطور إلى السلطان الراحل الذي لم يعلم فردريك بعد بخبر موته ، ويطلب منه فيها أن يلقى سمعه إلى ما يقوله الرسل بشأن تخليص الملك، فقال البعض إنه لم يكن من الخير لنا أن يجدنا الرسل في الأسر ، ظناً من هذا البعض أن الإمبراطور قد أوفد رسله لمضايقتنا أكثر من إنفاذه إياهم لإطلاق سراحنا ، وقد ألفانا الرسل أحراراً ومن ثم تابعوا مسيرهم .

٤٤٤— وتلقى الملك أثناء إقامته في عكا رسلاً أنفذهم إليه سلطان دمشق، شاكياً إليه مرّ الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه : وقطع السلطان عهداً على نفسه أن يُسْلِم الملك مملكة بيت المقدس التي بيده إن ساعده ضد ابن عمه ، فصمّم الملك على أن يبعث بجوابه إلى سلطان دمشق على يد رسل من قبله أنفذهم إلى السلطان، وذهب معهم الأخ إيفيز Yives البريطاني من جماعة الإخوان المبشّرين ، وكان يعرف اللسان العربي .

٤٤٥ — وبينما كانوا ذاهبين من محل إقامتهم[1] إلى قصر السلطان

(١) في جونز ، ص٤٦٩ « إنهم كانوا ذاهبين من قصر السلطان إلى محل إقامتهم » .

رأى[1] الأخ إيفيز امرأة عجوزاً تمرّ بالشارع وهى تحمل فى يمناها وعاءا مملوءا بالنار،وفى يسراها قنينة ملآى بالماء، فسألها الأخ إيفيز « ماذا تفعلين بهذين ؟ » فأجابته إنها اعتزمت أن تحرق الجنة بالنار حتى لا يبقى شىء ، وآلت أن تطفىء الجحيم بالماء حتى لا يبقى منها شىء ، فسألها «ولم تفعلين ذلك ؟» فأجابته «لأننى لا أحب أن أعود فأرى أحداً يفعل الخير طمعاً فى الجنة أو خشية من الجحيم ، ولكن يجب أن يعمل المرء الخير مرضاة للرب وحده القادر على أن لنا يعمل كل ما يراه حسناً» [والذى[2] أحبنا حباً شديداً حتى لاقى الموت لمنجاتنا ، وهو موت قضى به على نفسه دفعاً لخطيئة ارتكبها أبونا الأول آدم ولخلاصنا] .

. . .

جون الأرمنى صانع أسلحة الملك

٤٤٦ — فى[3] هذا الوقت بالذات ذهب جون الأرمنى — وكان صانع أسلحة الملك — إلى دمشق لشراء وعاء وغراء لصنع أقواس الحرب ، فرأى كهلا شديد العجز جالساً فى سوق دمشق، فناداه إليه وسأله عمّا إذا كان نصرانياً، فردّ عليه بالإيجاب ، فقال له الشيخ الكهل « لابد أنكم أيها المسيحيون تكرهون بعضكم بعضاً ، لأننى رأيت ذات مرة الملك بلدوين ملك بيت المقدس — وكان أبرص — أثناء محاربته صلاح الدين ، ولم يكن مع بلدوين سوى ثلثمائة

---

(١) فى جونز ، شرحه أن إيفز قص بنفسه هذه القصة على جوانفيل .

(٢) الإضافة من جونز ، شرحه .

(٣) الفقرات ٤٤٦ — ٤٥٠ غير واردة فى نسخة جونز .

رجل مسلحين على حين كان مع صلاح الدين ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكن ها أنتم الآن قد صرتم فى ضعف شديد من جراء خطاياكم حتى أصبحنا نتصيدكم فى ميادين القتال تصيد الوحوش » .

٤٤٧ — وحينذاك قال جون الأرمنى إنه من الخير له أن يسكت فيما يتعلق بخطايا النصارى ، التى لا تعدّ شيئاً مذكوراً إلى ما يرتكبه المسلمون من المعاصى ، فأجابه المسلم بأنه قد ردّ عليه رداً ينطوى على الغباء ، فسأله جون عن السبب فقال إنه مجيب سؤاله ولكنه يريد قبل كل شىء أن يلقى عليه سؤالا عما إذا كان له ابن ؟ فردّ جون بالإيجاب فسأله أيهما أكثر إزعاجاً له : ضربة تأتيه من ولده أم منه هو المسلم ؟ فقال جون إنه سيكون أشدّ غضباً من ابنه أكثر من غضبه من المسلم لو فعل ذلك .

٤٤٨ — فقال المسلم « إذاً سأجيبك عن سؤالك ، إنكم أيها المسيحيون تعتبرون أنفسكم أبناء الناصرى[1] ، وأنكم تسمّون أنفسكم تبعاً لذلك بالنصارى ، وهذا هو تفضّله عليكم إذ أمدّكم بمعلمين تستطيعون بواسطتهم أن تدركوا ما فعلتموه من خير أو ما ارتكبتموه من شر ، ومن ثم كان غضب الرب منكم لخطيئة ترتكبونها أشد من غضبه علينا لمعصية حتى ولو شأت معصيتكم ، لأنه يدرك أننا ارتكبناها عن جهل وأننا عميان ، حتى أننا لنظن أننا سنتحرّر من جميع ذنوبنا إذا ما اغتسلنا بالماء قبل دفننا ، لأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) أخبرنا أن الماء مطهرنا عند موتنا » .

٤٤٩ — وكان جون الأرمنى ذات مرة فى صحبتى بعد عودتى من الأرض

---

(١) آثرت ترجمة « الرب » هنا بكلمة الناصرى ليستقيم التخريج المقصود من المتن .

المقدسة وكنت فى طريقى إلى باريس ، وبينما نحن جالسون لتناول الطعام فى الفسطاط جاء جمع غفير من الفقراء يتوسّلون من أجل خاطر الرب وأحدثوا جلبة كبيرة ، فبعث أحد رجالنا الموجودين خادمه قائلا « أسرع أسرع واطرد هؤلاء الفقراء » .

٤٥٠ — وإذ ذاك قال جون الأرمنى « لقد قلت أسوأ ما يمكن أن يقال ، فلو كان ملك فرنسا قد أرسل فى هذه اللحظة بالذات إلى كل منا عن طريق رسله مائة مارك من الفضة لما طردناهم عن بابنا ، أما الآن فأنت تطرد هؤلاء الرسل الذين يقدمون أعظم ما يمكن تقديمه ، لأنهم يتوسلون إليك أن تمنحهم شيئاً فى سبيل الله مما يعنى أنك سوف تعطيهم مما عندك ، وإزاء ذلك فإنهم يرون عطيتك ممثلة فى الله ذاته ، لأن السيد قال بفمه « إن للفقراء قوة فى إهدائنا هدية من الرب نفسه » ، ويقول القديسون إن الفقراء يستطيعون أن يوفقوا بيننا وبينه ، وكما يُطفىء الماء النار كذلك تمحو الحسنة السيئة فلا تعد مرة أخرى أبداً إلى طرد الفقراء بل أعطهم يعطك الله » .

. . . .

رسل شيخ الجبل وتهديداتهم

٤٥١ — بينما كان الملك مقيما فى عكا [١] وفد عليه رسل شيخ الجبل [٢] ، فلما عاد الملك من من قداسه بعث فى استقدامهم إليه [٣] وأجلسهم ، فكانوا على

---

(١) وردت العبارة التالية فى جونز بعد هذه الكلمة « وفد عليه رسل من قبل أمير البدو المعروف بشيخ الجبل » .

(٢) راجع فقرة رقم ٢٤٩ .

(٣) يستفاد مما رواه Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyre, R.H.C.Occ., t., II, p. 624 إن هذه الوفادة كانت فى سنه ١٢٥٠ .

النحو التالى : جعل فى مقدمتهم أميراً حسن الوقار رفيع المكانة، ومن خلفه شاب أعزب يمسك بيده ثلاثة خناجر متداخل بعضها فى بعض ، والغرض منها أن يقدمها حاملها إلى الملك تحدياً له إن هو رفض مقترحات الأمير[1] .

ووقف خلف الشاب الأعزب الذى يحمل الخناجر الثلاثة رجل آخر معه قطعة من قماش قد لفّها حول ذراعه يقدّمها للملك كفنا إذا رفض مطالب شيخ الجبل .

٤٥٢ — طلب الملك من الأمير أن يذكر له ماجاء من أجله ، فقدّم الأمير كتاب الشيخ إليه وقال له : « لقد بعثنى شيخى إليك سائلا إياك عمّا إذا كنت تعرفه ؟ » فأجابه الملك بأنه لا يعرفه إذ لم يسبق له أبداً رؤيته ، ولكنه طالما سمع عنه، فقال الأمير : « أما وقد سمعت عن شيخى فإنى لأعجب أشدّ العجب كيف لم تبعث إليه بكثير مما لديك لتبقى على صداقته لك كافعل إمبراطور ألمانيا وملك المجر وسلطان مصر وغيرهم عاماً بعد عام ، لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم مطمئنون على حياتهم طالما هم متمتعون برضاء مولاى عليهم» .

٤٥٣ — « فاذا لم يَرُقك أن تفعل هذا ، فأمُر بإعفائه من الجزية التى يدفعها للاسبتارية والداوية ، وحينذاك ينصرف عنك » .

وكان شيخ الجبل يدفع فى ذلك الحين جزية للداوية والاسبتارية الذين كانوا لا يرهبون بأس الحشاشين لمعرفتهم ألاّ جدوى تعود على شيخ الجبل من موت كبير الداوية أو الاسبتارية ، أضف إلى ذلك أنه كان يدرك أنه لو أمر بقتل

---

(١) المقصود بالأمير هنا شيخ الاسماعيلية .

أحدهما فسيحل مكانه رجل آخر فى مثـل كفاءته ، ولذلك لم يكن راغباً فى التضحية برجاله الحشاشين فى عمل لانفع من ورائه .

فقال الملك للأمير إنه سيراه مرة أخرى بعد الظهيرة .

٤٥٤ — فلما عاد الأمير وجد الملك جالساً وعلى جانبيه كبيرا الداوية والاسبتارية، وإذ ذاك طلب الملك من الأمير أن يقول بحضرتهما ماقاله فى الصباح، فقال الأمير أن ليس فى نيته تكرار ماسبق أن صرح به إلاّ فى حضور من كانوا فى المجلس صباحاً وحدهم دون غيرهم ، وإذ ذاك قال الأستاذان : « نأمرك بإعادة ماقلته » .

فأجابهم بأنه معيد ماقاله صباحاً انصياعاً لأوامرهما .

وإذ ذاك أمر الأستاذان المترجم أن يقول له باللسان العربى أن يأتى فى الصباح إلى بيت الاسبتارية للتكلم معهما ، فاستجاب لهما .

٤٥٥ ـ فلما جاءوهما فى الصباح أمرا الترجمان أن ينبئهم أن مولاهم [يعنى شيخ الجبل] قد تسرّع جداً حين جرؤ على مخاطبة الملك بهذا الأسلوب الوقح، وأنه لولا شرف الملك الذى وفدوا عليه مبعوثين لأغرقوهم فى بحر عكا القذر إغاظة لشيخهم، وقالا له « ونحن نأمرك بأن تعود إلى مولاك ثم تحضر ثانيا فى مدى خمسة عشر يوماً ، جالباً إلى الملك من الكتب والجواهر مايحمله على الصفح عنكم والرضا عليكم » .

عودة الرسل وإرسال إيفيز إليه

٤٥٦ — عاد رسل شيخ الجبل بعد خمسة عشر يوماً إلى عكا ، وأحضروا معهم قميص الشيخ إلى الملك ذاكرين له ـ نيابة عن شيخهم ـ أنه لما كان

القميص أقرب إلى الجسد من أى ثوب آخر فإن هذا يعنى أن شيخ الجبل أصبح يعدّ الملك أقرب إلى نفسه من أى ملك آخر ، كما أرسل إليه خاتمه ـ وكان من الذهب الخالص ـ وقد نقش عليه اسمه ، وبعث مع الخادم كلمة فحواها أنه يؤيد الملك ، وأنهما أصبحا منذ اللحظة روحاً واحداً فى جسدين .

٤٥٧ ـ كان من بين الجوهرات الأخرى التى بعث بها شيخ الجبل إلى الملك فيل من الخزف الصينى قد أبدعته يد صناع ماهر ، وحيوان يسمونه بالزرافة وكان من الخزف أيضاً ، ومجموعة مختلفة الأنواع من تفاح بللورى وألعاب للمائدة والشطرنج ، وكانت جميعاً قد ظللت بالعنبر الذى شُدّ إلى الخزف بأسلاك رقيقة من الذهب الخالص الجيِّد .

ويجب أن تعرف أنه عندما فتح الرسل الصناديق المحتوية على هذه الأشياء بدى كأنّ الحجرة بأجمعها قد عبقت بالريحان ، فسرى شذاه من بعيد .

٤٥٨ ـ ردّ الملك رسل شيخ الجبل إليه ومعهم مجموعة كبيرة من الجوهرات والأقمشة القرمزية والكئوس الذهبية وحوافر جياد فضية ، كذلك بعث بصحبتهم عارفاً باللسان العربى هو الأخ إيفيز البريطانى ، الذى وجد أن شيخ الجبل غير مؤمن بمحمد (صلعم) ولكنه يعتقد فى شريعة عمه [١] على .

٤٥٩ ـ وكان على هذا قد رفع محمداً إلى مرتبة التعظيم التى تبوأها ، فلما ثبتت أركان سيادة محمد على الناس احتقر عمه وباعد فيما بينه وبينه ، فلما رأى علىّ ذلك جمع حوله أكبر عدد مستطاع جمعه من الناس [٢] ولقنهم تعاليم أخرى

---

(١) هذا جهل من جوانفيل بقرابة الإمام بالرسول وبالشريعة ، راجع أيضا فقرة رقم ٢٤٩ .

(٢) فى نسخة جونز (ص ٤٧٣) فى معرض الكلام عن النزاع المزعوم بين الرسول عليه السلام والإمام على كرم الله وجهه جاء ما يدل على جهل كاتب المذكرات بتاريخ الإسلام =

مناقضة لتعاليم محمد حتى أصبح المؤمنون بعلى الآن يرمون أتباع شرعية محمد بالكفر ، وكذلك الحال إزاء المؤمنين بمحمد حيث يكفّرون أتباع على .

٤٦٠ — ومن بين التعاليم التى حوتها شريعة علىّ أنه إذا مات أحد ما وهو قائم بتنفيذ أوامر شيخه فإن روحه تحلّ فى جسد أحسن من جسده هو ، ومن ثم فإن الحشاشين لايترددون فى قتل أنفسهم إن أمرهم شيوخهم بذلك ، اعتقاداً منهم أنهم سيكونون فى موتهم فى حال أحسن مما هم عليها الآن .

٤٦١ — وهناك نقطة أخرى هى أنهم يؤمنون أنه لن يموت أحد إلا فى اليوم المقدّر له ، وهذه العقيدة تقول إنه ليس لأحد ما أن يرى أن الله قادرعلى إطالة الحياة أو تقصيرها ، ولذلك فالبدو[1] يقبلون شريعةعلىّ على أساس هذه الناحية ، ولذلك لا يلبسون الدروع حين ذهابهم للقتال ، لأنهم يظنّون أن وضعهم الدروع إنما هو عمل مناقض لتعاليم دينهم ، وهم إذا لعنوا أطفالم قالوا لهم « عليكم لعنة الفرنجة الذين يدّرعون خوف الموت[2] » .

٤٦٢ — وقد وجد الأخ إيفيز كتابا إلى جوار رأس فراش شيخ الجبل، تضمنّ كثيرا من العبارات التى قالها سيدنا الرب حين كان على الأرض للقديس بطرس، فقال له الأخ إيفيز « بحق الرب يا مولاى أرجو أن تداوم النظر فى هذا الكتاب لما ينطوى عليه من أقوال رائعة جداً » ، فقال شيخ الجبل إنه يُكثِر من مطالعته ، وأضاف قائلا « إن سيدنا القديس بطرس

= جهلامطبقا، حيث ذكر «أن عليا أخذ يجذب إلى مذهبه أكثر مايستطيع جمعهم من الناس وارتد إلى بعض نواحى الصحراء وإلى جبال مصر حيث لقنهم مذهباً جديداً يخالف مذهب محمد » .

(١) يخلط جوانفيل بين البدو والحشاشين .

(٢) راجع فقرة رقم ٢٥١ .

عزيز جداً عليّ لأنه فى بداية العالم حلت روح هابيل — بعد قتله — فى جسد نوح ، فلما مات انتقلت روحه فى إبراهيم ، ثم حلت بعد موت إبراهيم فى جسد القديس بطرس ، وإذ ذاك نزل السيد إلى الأرض » .

٤٦٣ — فلما سمع الأخ إيفيز هذا الكلام أفهمه خطأ عقيدته ، وأخذ يفقهه بعبارات طيبة كثيرة ، ولكن شيخ الجبل لم يرغب فى الاستماع إليه .

وقد ذكر الأخ إيفيز للملك كل هذه الأمور حينما عاد إلينا .

وكان شيخ الجبل إذا ركب سار مُناد أمامه وهو يحمل فأسا دانيمركية ذات يد طويلة مغطاة كلها بالفضة ، وقد تدلى منها كثير من الخناجر ، وينادى المنادى أمامه قائلا « تنحوا من أمامه وأفسحوا الطريق لمن فى يده حياة الملوك وموتهم » .

* * *

رد سلطان دمشق وإطلاق سراح بعض الأسرى فى مصر

٤٦٤ - نسيت أن أروى لك خبر ردّ الملك على سؤال سلطان دمشق حيث كان على الصورة التالية : أنه ليس عنده نية الانضمام إلى سلطان دمشق فى الوقت الحاضر حتى يرسل إلى أمراء مصر يسألهم أن يعوّضوه عن الاتفاقية التى كانت بينهم وبينه ثم نكثوها ، فإن لم يجيبوه إلى ذلك نهض لمساعدة سلطان دمشق عن طيب خاطر فى الانتقام لابن عمه سلطان مصر الذى فتك به هؤلاء الأمراء .

٤٦٥ — فى أثناء وجود الملك بعكا أرسل إلى مصر سيدى جون دى فالنسيين الذى طالب الأمراء بوجوب تعويضهم الملك عما ارتكبوه من إفساد،

وما أنزلوه به من أضرار ، فقالوا إنهم على أتمّ استعداد لإجابة مطلبه ، شريطة أن يتفق الملك وإياهم ضد سلطان دمشق ، فلامهم سيدى لورد جون دى فالنسيين لوماً شديداً لما ارتكبوه فى حقّ الملك من الأخطاء التى ذكرناها آنفاً ، وأشار أنهم يحسنون صنعا لو أنهم بعثوا إليه بجميع مَنْ فى أسراهم من فرسانه،عساهم بذلك يستميلون قلب الملك بالعطف عليهم، فاستجابوا لذلك فعلاً، وبعثوا إليه على سبيل المجاملة عظام كونت وولتر دى برين لكى تدفن فى أرض طاهرة .

٤٦٦ — عاد سيدى جون دى فالنسيين إلى عكا وبصحبته مائتا فارس جاء بهم من الأسر غير سواهم من الناس ، وكذلك صاحبته أميرة صيدا وهى ابنة عم كونت وولتر وأخت لورد وولتر ولورد دى رنيل الذى تزوّج ابنة جون لورد دى جوانفيل بعد عودته من وراء البحار — أقول إن سيدتى صاحبة صيدا أخذت عظام كونت وولتر وأمرت بدفنها فى كنيسة الاسبتارية فى عكا، وأمرت بإقامة الصلاة على أن يقوم كل فارس بتقديم شمعة صغيرة ودرهم من فضة ، وفعل ذلك أيضا الملك حيث قدّم شمعة صغيرة وبيزنتة من الذهب، وكلها على حساب سيدتى صاحبة صيدا ، وتعجّب الناس كثيراً حين فعل الملك ذلك ، إذْ لم يؤثر عنه أنه قدّم من قبل مالا ليس ملك يمينه ، ولكنه فَعَلَ ذلك على سبيل المجاملة .

٤٦٧ — وجدت بين الفرسان الذين جاء بهم سيدى لورد جون دى فالنسيين من مصر أربعين فارساً من بلاط شمبانيا وكانوا فى خرق مهلهلة رثة وحالة قذرة ، فأمرت بإعداد قمصان وعباءات خضراء لهم ، ومضيت بهم إلى حضرة الملك

ملتمساً منه أن يعاملهم باعتبارهم باقون في خدمته ، فاستمع الملك لما طلبته منه دون أن يجيب بكلمة ما .

٤٦٨ — وإذ ذاك نهض أحد فرسان مجلسه قائلاً إنني لم أنهج طريقاً سوياً حين اقترحت على الملك ما اقترحت ، فقد جاوز مصروفه دخله بسبعة آلاف دينار ، فأجبته إن سوء الطالع قد يدفع الإنسان أحياناً إلى الكلام ، وأننا فقدنا من أهل شمبانيا ما يقل عن خمسة وثلاثين فارساً كلهم من حملة السناجق ماتوا في خدمة الملك ، وزدتُ على ذلك قائلا « إن الملك لا يفعل جيداً إذا استجاب لما تقول ، في الوقت الذي يدّعي فيه حاجته إلى الفرسان » ، وما فرغت من ذلك الحديث حتى استخرطت في البكاء الحار ، فطلب إليّ الملك أن أنفس عن نفسي ، وقال إنه سيجيبني إلى كل ما طلبته بشأن هؤلاء الفرسان جميعهم ؛ ثم عينهم كما شئت وضمهم إلى فرقتي .

٤٦٩ — ردّ الملك على رسل مصر أنه لن يعقد اتفاقاً معهم إلا إذا بعثوا إليه برءوس جميع النصارى التي علّقوها على أسوار القاهرة ، منذ أن وقع في أسرهم كونت دي بار وكونت دي مونتفورت ، وإلا إذا أسلموه جميع الأطفال الذين أخذوهم صغاراً وأخرجوهم من دينهم ، وإلا إذا أعطوه مخالصةً بمبلغ المائتي ألف جنيه التي لا زالوا مدينين لهم بها .

وبعث الملك مع رسل الأمراء المصريين إلى القاهرة سيدي جون دي ڤالنسيين ، وهو رجل حكيم شجاع .

٤٧٠ — وفي مستهل الصوم الكبير تأهّب الملك — وجميع ما لديه من القوات — للذهاب إلى قيسارية لتقويتها بعد أن دمرها المسلمون ، وكانت تقع على مسيرة اثنتي عشرة مرحلة من عكا في الطريق إلى القدس .

أما سيدى لورد سواسون الذى كان فى عكا مريضاً فقد صحب الملك لتحصين قيسارية، ولست أعرف كيف لم يؤذنا المسلمون أثناء العام كله ، إلا أن تكون هذه إرادة الرب .

وبينما كان الملك يعمل فى تحصين قيسارية عاد رسل التتار إليه ، وسنخبرك بالخبر الذى جاءوا به .

٤٧١ — لقد أخبرتك من قبل أنه فى أثناء إقامة الملك بقبرص وفد عليه رسل من قبل التتار، وأفهموه أنهم ناصروه على المسلمين ومساعدوه على استرداد بيت المقدس من أيديهم ، وعاد هؤلاء الرسل بعد أن بعث الملك معهم سفراء من لدنه ، ومعهم كنيسة صغيرة أمر بأن تكون جميعها قرمزية ، وحملته رغبته على اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على تلك الكنيسة ، وأعنى بذلك بشارة الملائكة بالولادة والميلاد والتعميد وجميع الأحزان ونزول الروح القدس .

وأرسل كذلك مع المحراب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع الأشياء اللازمة لترتيل القداس ، واثنين من الإخوان المبشرين لتلاوة القداس أمام التتار .

٤٧٢ — وصل رسل الملك إلى ميناء أنطاكية ، واستغرق سفرهم منها إلى ملك التتار العظيم مدة عام كامل كانوا يقطعون فى كل يوم مسافة عشرة فراسخ ؛ فلما وصلوا إلى هناك وجدوا أن التتار قد بسطوا سلطانهم على جميع البلاد ، وأنهم دمروا كثيراً من المدن ، وأبصروا أكواماً ضخمة من عظام الموتى .

٤٧٣ — فسأل الرسل التتار كيف استطاعوا بلوغ مثل هذا السلطان

وتقتيل هذه الأقوام وتشريدهم ، فكان ردهم عليهم ما نقله الرسل إلى الملك فيما يلي :

« جاء التتار أصلا من بطاح رملية فسيحة لم يتهيأ لأحد عبورها ، ويبدأ هذا السهل من صخور ضخمة عظيمة الارتفاع عجيبة جدا تقع في نهاية شرق العالم ، ولم يسبق لأحد ما اجتياز تلك الصخور – كما يشهد بذلك التتار . وهم يقولون إن حول هذه الأسوار شعب يأجوج ومأجوج الذين لا بد من مجيئهم عند انتهاء العالم حينما يأتي المسيخ الدجال ليفسد كل شيء » .

٤٧٤ — ويسكن الشعب التتارى فى هـــذا السهل ، وكان التتار خاضعين لبريستور جون[1] ولإمبراطور فارس الذى تقع بلاده متاخمة لبلاده. ولأراض كـثير من الملاك الـكفرة الآخرين الذين يدفعون له جزية سنوية ، ويؤدون له بعض الخدمة لقــاء السماح لحيواناتهم بالرعى التى عليها وحدها حياتهم ، وكانت عادة بريستر جون وإمبراطور فارس وسواه من الملوك ازدراء التتــار الذين كانوا إذا جاءوهم لدفع ما عليهم من إقامة وجزية صرفوا وجوههم عنهم وولوهم ظهورهم ، ترفعا منهم أن يأخذوها أمامهم .

٤٧٥ — كان بين التتار رجل حكيم تنقل بين جميع نواحى السهول ، وحادث عقلاءها وشيوخ النواحى المختلفة ، وبيّن لهم ما يرسفون فيه من قيود العبودية ، وتوسل إليهم أن يتدبروا جميعا أحسن السبل للتحرّر من قيدهم ، ونجح فى جمعهم كلهم فى أحد أطراف السهل فى بقعة مواجهة لأرض بريستر جون

(١) آثرت إبقاء كلمة « Prester John » كما هى فى الإنجليزية لاسيما بعد أن اكتسبت هذه العبارة معنى تاريخيا معينا معروفا لطلاب العصور الوسطى .

وشرح لهم كل هذه الأمور، فأجابوه بالسمع والطاعة لما يشير به ، فذكرهم أنهم لن ينالوا ما يريدون إلا إذا نصبوا عليهم من بينهم ملكا أو زعيماً ، ثم أخذ يبصّرهم بالطرق التى يتخذون بها لأنفسهم ملكا ، فاتفقوا على ما أشار به .

٤٧٦ — كانت الخطة التى رسمها لهم هى أن تأتى كل من الاثنتين وخمسين قبيلة الموجودة هناك بسهم يحمل اسمها ، وأجمعت هذه القبائل على أن توضع الأسهم كلها أمام طفل فى الخامسة من عمره ، واتفقوا على أن يُنتخب الملك من القبيلة التى يتناول الطفل سهمها ، فلما سحب الصبىّ أحد القداح أمر الحكماء جميع القبائل الأخرى بالانسحاب، ثم اتفقوا فيما بينهم على أن تختار القبيلة التى قدّر للملك أن يكون فيها اثنين وخمسين رجلاً من أحكم رجالها وأحسنهم ، فلما اختير هؤلاء أحضر كل واحد منهم سهما باسمه .

ثم اتفقوا فيما بينهم على تتويج من يبرز باسمه السهم الذى يتناوله الطفل ، فتناول الصبى أحدها، فكان سهم الحكيم الذى أخذ نفسه بإرشاد الناس ، فوقع هذا الأمر منهم موقع الرضاء وازدهتهم الفرحة ، وإذ ذاك طلب إليهم ذلك الحكيم الصمت وقال لهم « أيها السادة ، إذا أردتمونى ملكا عليكم فأقسموا لى بحق مبدع السموات والأرض أن تلتزموا أوامرى » فأقسموا له على ما طلبه .

٤٧٧ — كانت الشرائع التى سنها تهدف لإقرار السلم بين الأهالى ، وتتلخص فى ألا يسرق أحد حوائج غيره ، ولا يضرب فرد آخر وإلا كان جزاؤه قطع يده ، وألا يعاشر رجل زوجة آخر أو ابنته وإلا بترت يده أو قتل .

كـذلك أقرّ بينهم كـثيراً من الشرائع الأخرى الجليلة بقصد استتباب السـلم .

. . .

غلبة التتار وتنصر أحد أمرائهم .

٤٧٨ — بعد أن نظم الملك أمورهم ورتب صفوفهم تـكلم فيهم قائلا : « أيها السادة إن أشدّ أعدائنا قوة هو بريسترجون ، وإنى لآمركم أن تكونوا جميعا متأهبين غداً لمهاجمته ، فإذا كُتبت له الغلبة علينا — لا قدر الله — فليفعل كل منـكم ما يرى فيه صلاحه ، أما إذا هزمناه فإننى آمركم بمتابعة القتال ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا ، ولا تحدّثن أحـدا نفسه فتمتد يده إلى الغنيمة ، بل اصرفوا همكم جميعـا إلى الفتك بقومه ، حتى إذا تمّ لنا النصر بادرت إلى توزيع الأسلاب عليـكم بالعدل ، فينال كل منـكم قسطه الذى يرضيه » .

فاتفقوا جميعا على ما قال .

٤٧٩ — فلما كانت الغداة كرّوا على أعدائهم كرة صدق وهزموهم بمشيئة الرب ؛ وأعملوا السيف فى جميـع من وجدوه فى لباس الحرب أو قادراً على الدفاع عن نفسه ، ولم يستثنوا من القتل إلاّ كل ذى مسوح دين وغير القسيسين والرهبان ، فخضع للتتار جميـع سكان بلاد « بريسترجون » ممن لم يشتركوا فى هذه المعركة .

٤٨٠ — وحدث أن تغيب أحد أمراء القبائل المشار إليها مدة ثلاثة

أشهر لم يوقف له فيها على أثر ، أو يسمع عنه خبر ، ثم عاد غير شاك ظمأ أو مسغبة ، حاسباً أن غيبته عن قومه لم تطل أكثر من ليلة واحدة . وروى لهم قصته فذكر من خبره أنه ذهب إلى قمة رابية عالية فوجد بهـا قوما كثيرين، لهم بشرة من أنصع ما رأت عيناه، وعليهم من الثياب أحسنها وأزينها ، وأبصر عند نهاية الربوة ملكهم، وكان أنصعهم بشرة وأجملهم هندماً وأحسنهم زينة، وقد جلس على عرش من الذهب .

٤٨١ — كان على يمينه وشماله ستة ملوك على رءوسهم التيجان، وقد ازينو بالأحجار الكريمة الكثيرة ، كما أبصر قريبا منه ملكة ركعت على يمينه تتوسل إليه أن يعطف على شعبها ، كما ركع على يساره رجل افرغ فى قالب من الجمال الفاتن، له جناحان يتألقان كأنهما وهج الشمس ، واحتشد حول الملك جمع كثيف من أناس حسنى الطلقة مجنحين .

٤٨٢ — ثم نادى الملك هذا الأمير التتارى إليه وقال له : « لقد جئت من جيش التتار » ، فأجابه « حقا ما قلت يا مولاى » ، وإذ ذاك قال الملك : ألا فاذهب إلى مليكك وخبره أنك رأيتنى — أنا ملك السموات والأرض — واطلب إليه أن يشكرنى لنصرى إياه على « بريسترجون » وقومه ، وخبره أيضا — نيابة عنى — إننى سأعينه بقوة تمكنه من ضم جميع العالم تحت حكمه » فقال له الأمير : « وما آيتى عنده يا مولاى كى يصدقنى » .

٤٨٣ — فأجابه « آيات صدقك لديه ليؤمن بما تقول أنك سوف تخرج لمحاربة امبراطور فارس فى ثلاثمائة من رجالك لن تزيد عليهم أحداً ، ولكى يؤمن مليكك العظيم أن لى القدرة على كل شيء فإننى سأنصرك نصراً

عزيزاً على إمبراطور فارس الذى سوف يحاربك بثلثمائة ألف مقاتل أو يزيد ؛ ولكن قبل أن تمضى لقتاله سل ملكك أن يعطيك القسس ورجال الدين الذين أسرهم فى المعركة [الأخيرة] ، وصدّقهم أنت وقومك فى كل ما يقولونه لك » .

٤٨٤ — فقال له الأمير « مولاى ، إننى لا أستطيع الذهاب إذا لم تأمر لى بمن يرشدنى الطريق » ، فالتفت الملك إلى حشد كبير من فرسانه المسلّحين أحسن سلاح يسرّ العين أن تراهم فيه ، ونادى إليه واحدا منهم قائلا : « تعال هنا يا چورج »، فجاءه الفارس وركع بين يديه ، فقال له الملك « انهضْ وسِرْ بهذا الرجل إلى قومه آمنا فى نفسه ، سليماً فى روحه » . فصدع الفارس — فى فجر أحد الأيام — لما أمره به الملك .

٤٨٥ — لم يكد الأمير يطلع على قومه فيبصرونه حتى أخذتهم — هم والجيش بأجمعه — هزة الفرح ، ثم التمس الأمير من الملك الكبير أن يعطيه القسس فأعطاه إياهم ، وإذ ذاك تلقى الأمير ورجاله تعاليم القسس أحسن لقاء ، حتى إنهم تعمدوا على بكرة أبيهم ، فلما فرغوا من ذلك جاء الأمير بثلثمائة مقاتل ودعاهم للاعتراف والتأهُّب للقتال ، ثم خرج بهم لمحاربة إمبراطور فارس فتمّت لهم الغلبة عليه وأخرجوه من مملكته ، فظل هائما على وجهه حتى بلغ مملكة بيت المقدس ؛ وهو نفس الإمبراطور الذى قاتل شعبنا وأسَرَ كونت وولتر دى برْيين ، وسنقص عليك خبر ذلك فى موضعه[1] .

* * *

(١) راجع فيما بعد رقم ٥٢٨

عادات التتار وندم لويس على الاتصال بهم

٤٨٦ — كان عدد شعب هذا الأمير [التتارى] المسيحىّ كبيراً ، حتى لقد أنبأنا رسلُ الملك أنهم شاهدوا فى معسكره ثمانمائة كنيسة صغيرة محمولة على عربات .

وأسلوبهم فى العيش أنهم لا يأكلون الخبز بل يعيشون على اللحم واللبن ، وأحسن ما يشتهون لحوم الخيل التى ينقعونها فى الماء المملّح ثم يجففونها فيمكنهم قطعها كما لو كانت خبزاً أسود .

وأحب مشروب إليهم وأقواه لبن إناث الخيل بعد أن يعطروه بالأعشاب . وقد قدم أحدهم إلى ملك التتار العظيم حصانا محملا بالدقيق جىء به من مسافة رحلة ثلاثة أشهر ، فأعطاه إلى مندوبى الملك [لويس] .

٤٨٧ — ويوجد بين التتار كثير من المسيحيين الذين يعتنقون عقيدة الإغريق ، إلى جانب النصارى الذين تكلمنا عنهم حالاً هم وغيرهم ، وإذا أراد التتار محاربة المسلمين عمدوا إلى إرسال هؤلاء العيسويين لقتالهم ، كما أنهم يصطنعون المسلمين فى أى حرب ضِدّ النصارى ، وجرت عادتهم أن يصحبهم إلى ميدان القتال جميع صنوف النساء غير المُعيلات وهم يأجرون هؤلاء النسوة كما يؤجرون الرجال على السواء ، تبعاً لقوّتهن وضراوتهن .

وقد ذكر لنا رسلُ الملك أن المحاربين من الرجال والنساء يأكلون معاً فى معسكرات الشيوخ الذين يعملون فى خدمتهم ، ولا يجرؤ الرجال على مسّ النسوة بأية صورة ، عملا بالمبدأ الذى علّمهم إياه ملكهم الأول .

٤٨٨ — وهم يأكلون لحوم جميع أنواع الحيوانات التى تنفق بالمعسكر ، أما النساء

اللائى عندهن أطفال فيشرفن على حفظ هذه اللحوم والعناية بها ، كما يَقُمْنَ أيضاً بإعداد طعام المحاربين .

وهم يضعون اللحم النىء بين سروجهم وعذبات ملابسهم ، حتى إذا خرج كل مابه من دم أكلوه نيئاً ، أما ما لا يستطيعون أكله بين آن وآخر فيضعونه فى حقيبة من الجلد، فإذا جاءوا فتحوا هذه الحقيبة وأكلوا أو"لا أقدم ما بها من قطع اللحم ، ولقد رأيت بنفسى رجلا خراسانياً من رعايا إمبراطور فارس كان يقوم بحراستنا أثناء أَسْرِنا يفتح حقيبته،فسددنا أنوفنا لعدم استطاعتنا تحمل" رائحة النتن المتصاعد منها .

٤٨٩ـ ولنرجع الآن إلى ما كنا فيه فنذكر ما فعله الإيلخان بعد تلقيه رسل الملك وهداياه من إرساله عهد أمان لجمع جميع الملوك الذين لم يدينوا له بالطاعة بعد ، فلما جاءوه أمر بنصب كنيسة الملك وخاطبهم بقوله : « أيها السادة ، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمساً عطفنا للدخول فى طاعتنا ، وها كم الجزية التى أنفذها إلينا فانظروها ، فإذا لم تستسلموا لنا فإننا مرسلون فى طلبه للقضاء عليكم »، وإذ ذاك أعلن أكثر الحاضرين استسلامهم للملك التتارى خوفاً من الملك الفرنسى .

٤٩٠ـ عاد مبعوثو الملك وفى صحبتهم آخرون من قبل ملك التتار العظيم، الذى حملهم كتباً منه إلى ملك فرنسا جاء فيها « السلم خير، فإنه إذا ساد أرضاً أكلت كل ذات أربع حشيش السلام ، كما أن من يدبون على قدمين يفلحون الأرض التى تخرج كل طيب فى سلام أيضاً » .

٤٩١ ــ « وإننا نقص عليك هذا الخبر لتزداد معرفتك، إذ لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا، فقد ثار بريستر جون ضدنا كما ثار علينا فلان وفلان غيره

من الملوك ، فحكمنا السيف فيهم جميعاً » ، ثم راح يعدد له هؤلاء الملوك ، ثم قال «لذلك ننصحك أن تبعث إلينا — عاماً بعد عام — بشيء من ذهبك وفضتك ، وبذلك تبقينا أصدقاءك ، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع من ذكرنا لك من الملوك » .

ويجب أن تعلم أن الملك ندم أشد الندم على إرساله رسلا إليه .

* * *

وصول بعض الفرسان النرويجيين

٤٩٢ ـ لنعد الآن إلى ما كنا فيه وما حدث أثناء قيام الملك بتحصين مدينة قيسارية من مجيء سيدى « إلينارد دى سنيانجان » إلى المعسكر ، فذكر أنه بنى سفينة فى مملكته النرويج الواقعة[1] عند نهاية المعمورة من ناحية الغرب ، وكيف أنه فى أثناء قدومه على الملك دار حول إسبانيا كلها ثم عبر مضيق بلاد المغرب ، وصادف أخطاراً كثيرة قبل أن يتأتى له الوصول إلينا ، فاستبقاه الملك هو وتسعة من فرسانه فى خدمته ، وقد أخبرنا لورد إلينارد هذا أن الليل فى بلاد النرويج قصير جداً فى شهور الصيف ، حتى إنك لترى فى آن واحد أضواء اليوم الآفل تلتقى بأضواء اليوم الوليد .

٤٩٣ ـ وقد أخذ هو ورجاله أنفسهم بصيد السباع ، واستطاعوا أخذ عدة منها متقحّمين الأخطار الجسام لأنهم كانوا يتقدمون لصيدها بكل ما يستطيعون من قوة ، ثم يرمونها بنبالهم ، وإذ ذاك تثب عليهم الأسود وثبة تكاد تأخذهم فيها

(١) من هذه الكلمة حتى كلمة الغرب ساقطة من جونز ، ص ٤٨٢

وتأكلهم ، لولا خرقة من قماش بالٍ يلوّح بها للأسد الذى يثب عليها فيمزقها ويأخذ فى التهامها ، ظناً منه أنه يفتك بالصياد . وبينما يكون الأسد مشغولا بتمزيق القماش يمضى صياد آخر ناحيته رامياً إياه بنباله ، وإذ ذاك يترك السبع تمزيق القماش ويثب على صائده الذى يلقى عليه هو الآخر بدوره قطعة ثانية من القماش ، فيثب عليها الأسد مرة أخرى ؛ وهكذا يقتلون الأسد بأقواسهم .

عادات الكومان

٤٩٥ـ بينما كان الملك يحصن قيسارية جاءه سيدى فيليب دى توسى Taucy الذى قال الملك إنه ابن عمه ، لأنه كان من ذرية احدى أخوات الملك فيليب[١] التى تزوّجها إمبراطور القسطنطينية ، فاستبقاه الملك فى خدمته مع تسعة من فرسانه مدة عام رحل بعده قافلا إلى القسطنطينية التى جاء منها ، وقد أفضى الى الملك[٢] أن إمبراطور القسطنطينية[٣] وكبار من بها من الرجال قد تحالفوا مع شعب يدعى الكومان Comans ليكونوا عوناً له ضد Vataces إمبراطور الإغريق .

---

(١) أخطأ جوانفيل إذا خلط بين فيليب دى توسى وبين نارجو Narjot دى توسى ، فقد كان فيليب حفيد أخت فيليب المسماة Agnés التى تزوجت من Vanas اليونانى ، كما تزوجت مرة أخرى من إمبراطور القسطنطينية .

(٢) رواية جونز ، ص ٤٨٢ تنص صراحة على أن جوانفيل سمعه وهو يروى للملك خبر هذا التحالف .

(٣) يقصد بذلك بلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى .

٤٩٦ — ولكى يقف كل فريق منهم إلى جانب الآخر فى إخلاص فقد ارتضى الإمبراطور وكبار رجالاته بجرح أنفسهم، ووضعوا دماءهم كلها فى وعاء فضى كبير، وحذا حذوهم ملك الكومان ووجوه من معه، ثم مزجوا دماءهم بدماء شعبنا، وخلطوا ذلك كله بالخمر والماء، وشرب الجميع من هذا المزيج وقالوا إن رابطة الدم آخت بينهم جميعاً، ثم أمر بكلاب سيّروه بين قومهم وقومنا وانهالوا عليه بسيوفهم فمزقوه إربا، وفعل رجالنا فعلتهم، وقال الجميع إن من يغدر بالآخر فى هذا الحلف حقّ عليه أن يمزق هذا التمزيق.

٤٩٧ — كذلك أخبرنا سيدى فيليب عن عجيبة شاهدها بنفسه حين كان فى معسكر الكومان، إذ مات أحد ثراة فرسانهم فحفروا له قبراً بالغ الكبر والاتساع، وأقعدوه به فى كرسى، بعد أن ألبسوه فاخر الثياب، ثم جاءوا بأحسن جواد كان لديه، وأحسن جندى عنده، ودفنوهما معه فى القبر حيّين.

أما الجندى قبل وضعه فى القبر مع مولاه فقد استأذن من ملك الكومان وغيره من الثراة، وبينما كان يستأذنهم فى ذلك عمدوا إلى وضع كمية كبيرة من الذهب والفضة فى ملفحته، وكلٌّ يقول له: «حينما أجىء إلى العالم الآخر، عليك أن ترد إلىّ ما أعهد به إليك الآن»، فيقول الجندى: «سأفعل ذلك عن طيب خاطر».

٤٩٨ — ثم ناوله ملك الكومان العظيم رسالة موجهة إلى أول ملك من ملوكهم، مبيناً فيها أن الجندى المشار إليه عاش كريم المخبر وأنه بذل نفسه فى خدمته، ومن ثم يحتم الواجب مكافأته فى الحال؛ فلما فرغوا من ذلك كله أنزلوا الجندى إلى القبر فى صحبة مولاه مع الحصان الحى، ثم غطوا فوهة

القبر بألواح التصق بعضها ببعض ، وانطلق الجيش بأجمعه فى جلب الأحجار والتراب، وقبل أن يأووا إلى فراشهم فى تلك الليلة كانوا قد أقاموا رابية كبيرة ذكرى لمن استودعوهم جوف الثرى .

حياة جوانفيل فيما وراء البحار

٤٩٩ — بينما كان الملك يعمل فى تقوية قيسارية ذهبت ذات يوم إلى معسكره لرؤيته فشاهدته يتحدث إلى القاصد الرسولى ، فما كاد يرانى أدخل حجرته حتى نهض واقفاً ، وانتحى بى جانباً وقال : « أنت تعلم أننى استبقيتك فى خدمتى حتى عيد الفصح[١] ، لذلك أرجو منك أن تنبئنى عما تطلبه من أجر لتبقى عاما بعد هذا العيد » ، فأفضيت إليه أننى لا أريد أن يعطينى من أمواله أكثر مما أعطانى من قبل ، ولكنى أريد عقد اتفاق آخر معه .

٥٠٠ — ثم قلت له : « إنك تسلم نفسك للغضب فتستشرى إن سألك سائل شيئاً ما ، لذلك أرغب إليك أن تبرم معى عهداً ألا ينزو برأسك الغضب منى إن طلبت منك شيئاً طوال السنة ، ولك علىّ أنا الآخر ألا أغضب إن رفضت سؤالى »، فلما سمع الملك ذلك انفجر ضاحكا فى صوت مجلجل ، وقال : إنه سيبقينى فى خدمته على هذا الشرط ، ثم أخذنى من يدى وسار بى إلى القاصد الرسولى وإلى أعضاء مجلس مشورته وأخبرهم بالشروط التى اتفقنا عليها فكان سرورهم عظيما[٢] لأنى كنت من أبرز رجال الجيش وأهمهم .

٥٠١ — وسأقص[٣] عليك فيما بعد كيف دبّرت أمورى ونظمتها

---

(١) يعنى بذلك عيد فصح ١٢٥١ ، راجع رقم ٤٤٠ ، ٤٤١

(٢) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية العبارة غير وارد فى نسخة جونز ٤٨٤

(٣) الفقرات من هنا حتى رقم ٥٠٤ ناقصة فى جونز

خلال السنوات الأربع التى بقيتها مغترباً بعد رحيل إخوة الملك ، فلقد كان عندى قسّان يقرآن علىّ كتاب الساعات، كان أحدهما يرتل قداسى حالما يبزغ الفجر ، ويظل الآخر فى انتظار استيقاظ فرسانى والفرسان التابعين لفريقى ، فإذا فرغت من سماع قداسى توجهت إلى الملك ، فإن كان راغباً فى الركوب للنزهة صحبته فى غدوته ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يأتى الرسل فنظل فى شغل طول الصباح .

٥٠٢ — كان فراشى موضوعاً فى فسطاطى بصورة يستحيل على أحد ما أن يدخل دون أن يرانى، وقد تعمدت وضعه على هذه الصورة حتى لا تتسرب الظنون الآثمة إلى أحـــد فيحسب أن عندى امرأة ، فلما جاء عيد القديس Remigus أمرت بإحضار الخنازير إلى زرائبى والماشية إلى حظائرى والطحين والخمر لتموين جماعتى مدة فصل الشتاء ، وقد فعلت ذلك لندرة المئونة فى الشتاء وارتفاع أسعارها فى هذا الفصل من السنة، بسبب هياج البحر خلاله أكثر من هياجه إبان الصيف .

٥٠٣ — واشتريت كذلك مائة طن من الخمر ، وكنت آمر دائماً أن يبدأ بشرب أجودها أولا ، أما شراب أتباعى فقد أمرت بمزجه بالماء الذى أمرت بالإقلال من كمياته المضافة إلى خمرة السادة ، وكان يوضع على مائدتى الخاصة — أمام كل فارس — قنينة كبيرة من النبيذ، وأخرى فى حجمها من الماء فيمزج كل منهم حسبما يشتهى .

٥٠٤ — كان الملك قد أمد كتيبتى بخمسين فارساً، وكنت كلما جلست إلى الطعام دعوت إليه عشرة فرسان بالإضافة إلى فرسانى العشرة، فكانوا يأكلون وقد يواجه الواحد منهم الآخر تبعاً لعادة هذه البلاد ، افترشوا الحصير على

الأرض ، وكنت كلما نودى للسلاح بعثت أربعة وخمسين فارساً يسمونهم أمراء عشرات لأن كلا منهم كان أميراً على عشرة ، وكنا كلما خرجنا مسلحين أكل الفرسان الخمسون فى معسكرى عند عودتهم ، وكنت فى جميع الأعياد السنوية الرسمية أدعو إلى مائدتى كافة رجال الجيش البارزين ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يستعير الملك بعض ضيوفى .

بعض الأحكام الصادرة فى قيسارية

٥٠٥ ــ ستسمع هنا عن العدالة والأحكام التى رأيتها تنفذ فى قيسارية أثناء إقامة الملك بها ، ونبدأ أولا بخبر الفارس الذى أمسكوه فى بيت من بيوت العاهرات ، فخيّروه ــ وفق عادات البلد ــ بين أن تأخذ المرأة العاهرة بمقوده فى المعسكر وهو فى قميصه ، وقد شدته بحبل تجريساً له ، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش ، فآثر التخلى عن فرسه وسلاحه للملك وترك الجيش .

٥٠٦ ــ ثم ذهبت إلى الملك سائلا إياه أن يمنحنى الحصان لأعطيه لسيد فقير فى الجيش ، فأنكر الملك علىّ وجاهة مطلبى ، لأن الحصان لا يزال يساوى ثمانين جنيها فأجبته : « لقد نقضت الآن ما أبرمناه من اتفاق ، لأنك غاضب علىّ لما سألتك إياه » فقال لى ضاحكا فى مرح : « قل ماشئت فلست غاضباً عليك » ، ومع ذلك فلم أتمكن من الحصول على الحصان للسيد الفقير .

٥٠٧ ــ أما الحكم الثانى فيتلخص فى أن فرسان كتيبتنا كانوا يتصيدون ذات يوم حيواناً متوحشاً يسمونه الغزال ، فوثب الإخوان الاسبتارية على فرسانى ودافعوهم ودفعوهم عن ذلك المكان ، فشكوت أمرهم إلى كبيرهم الذى

أجابني أنه سينصفني وفق تقاليد الأراضي المقدسة ، التي تتلخص في أنه سوف يأمر رجاله الذين ارتكبوا تلك الحماقة بأن يأكلوا وهم جلوس على عباءاتهم ، حتى يعفو عنهم فرساني الذين لحقت بهم الإهانة ويسمحوا لهم بالنهوض .

٥٠٨ ـــ طبق رئيس الاسبتارية على رجاله ما عاهدني به ، فلما رأيناهم وقد مكثوا يتناولون طعامهم ردحاً من الزمن قعوداً على عباءاتهم مضيت إلى الرئيس فوجدته جالساً على المائدة ، فسألته أن يأمر بقيام الإخوان الذين كانوا يأكلون أمامه وهم مفترشون عباءاتهم ، وحذا حذوى فرساني الذين ارتكب الإخوان تلك الحماقة في حقهم ، فأجاب بأنه لن يفعل ما سألناه إياه لأنه لايريد من الفرسان الاسبتارية أن يفعلوا ما فعلوا من سوء مع القادمين للحج إلى الأراضي المقدسة ، فلما سمعت منه ذلك جلست مع الإخوان ، وشرعت في مشاركتهم طعامهم،وأخبرته أنني لن أقوم حتى يقوموا، فذكر لي أنني أكرهه على ما لا يحب ، ثم لبى رجائي وأمر أن أشاركه أنا وفرساني طعامه ، بينما ذهب الإخوان للأكل مع غيرنا على مائدة أخرى .

٥٠٩ ـــ أما القضاء الثالث[1] الذي شاهدت تنفيذه في قيسارية فكان كالآتي : حدث ذات مرة أن دفع أحد جنود الملك واسمه « لي جولو » أحد رجالي المحاربين بيده، فشكوت أمره إلى الملك الذي قال إنه يرى من الأجدى أن أترك المسألة حيث وصلت ، لأن الجندي لم يزد على أن دفع فارسي دفعة ، فقلت له : إنني لن أدع المسألة تمر بلا بحث ، وأنني سوف أترك خدمته إن لم ينصفني ، فقد كثر تعدي جنده على فرساني .

---

(١) في نسخة جونز ص ٤٨٤ « الثاني » .

٥١٠ — حينذاك أمر بأن تأخذ العدالة مجراها وفق مألوف ماجرى عليه العرف فى الأرض المقدسة ، حيث جاء الجنـدى إلى معسكرى حافيا غير منتعل، وليس عليه من الثياب سوى قميصه وسرواله وحسامه فى يمينه مجرداً من غمده ، ثم ركع أمام الفارس وأمسك سيفه من ذبابه، وناول مقبضه إلى الفارس قائلا له: « سيدى ، استمحيك العفو عما فعلته من دفعى إياك بيدى ، وها أنذا قد أحضرت لك هذا السيف لتبتر به يدى إن كان فى بترها إرضاء لك » .

فطلبت من الفارس أن يعفو عنه فعفا .

٥١١ — أما[1] العقوبة الرابعة نخبرها أن رئيس فرسان الداوية كان قد بعث الأخ «هيج دى چوى» - مارشال الداوية - إلى سلطان دمشق لعقد اتفاق يتعلق بقطعة كبيرة من الأرض اعتاد فرسان المعبد استغلالها كلها ، ثم رغب السلطان فى أن يكون استغلالها مناصفة بينه وبينهم ، وارتضى الطرفان هذا الاتفاق على أن يكون تنفيذه مرهوناً بموافقة الملك عليه ؛ واستصحب الأخ هيج معه - حين عودته من عند سلطان دمشق - أميراً من لدنه ومعه الاتفاق المكتوب لتنفيذه فى الحال .

٥١٢ — أفضى كبير فرسان المعبد بكل هذا إلى الملك فاشتدت دهشته، وقال إن الرئيس جاوز حدّه حين خاطب السلطان واتفق معه دون مشاورته فى الأمر أولا ، وزاد على ذلك أنه لا بد من إصلاح ماجرى ، ثم أمر الملك برفع ثلاث درقات من خيمه، وأن يجتمع جميع عامة الجيش لرؤية ماحدث ، فجاء كبير فرسان الداوية وكافة إخوانه الفرسان حفاة الأقدام قاصدين المعسكر، لأن خيامهم كانت

---

(١) الفقرات ٥١١ — ٥١٤ غير واردة فى نسخة جونز.

بعيدة عنه، فأجلس الملك أمامه رئيس إخوان الداوية وكذلك رسول السلطان، وقال للرئيس فى صوت مرتفع :

٥١٣ — « أيها الأستاذ الأعظم : عليك أن تخبر رسول السلطان أنك تائب عن كل اتفاق أبرمته مع مولاه دون محادثتى أولا بشأنه ، ولما لم تكن قد شاورتنى فى الأمر من قبل فإنك تعتبر السلطان فى حل من كل ما اتفق عليه معك ، وأنك غير ملتزم بشىء مما عاهدته عليه ».

حينذاك تناول كبير الداوية الاتفاقات المكتوبة وناولها للأمير قائلا له : « إننى أعيد إليك الاتفاقات التى أبرمتها خطأ ، وأنا تائب عنها » .

وإذ ذاك أمر الملك الأستاذ الأعظم بالنهوض وطلب إليه أن يُنهِض كذلك بقية الإخوان الاسبتارية ، فامتثل لأمره ، وإذ ذاك قال له الملك : « والآن اركع أمامى مكفّراً عن ذهابك إلى السلطان دون إذنى » .

٥١٤ — حينذاك ركع الأستاذ الأعظم وقدّم طرف عباءته إلى الملك، وتخلّى له عن جميع مايملكه الإخوان الداوية غرامةً وعقوبة كما يقرر الملك الذى قال : « وإننى لأعلن بادىء ذى بدء بنفى الأخ هيج — الذى أبرم هذه الاتفاقيات — من جميع نواحى مملكة بيت المقدس » ، ولم يستطع كبير الداوية — الذى كان هو والملك إشبيبنى كونت ألِنْسُون المولود فى قلعة الحجاج — بل لم تستطع المملكة ذاتها ولا أى أحد سواهما — حملَ الملك على الرجوع عما قضى به على الأخ هيج، الذى اضطر لمغادرة الأراضى المقدّسة ومملكة بيت المقدس .

. . . .

٥١٥ — بينما[١] كان الملك يعمل فى تحصين مدينة قيسارية عاد إليه رسل[٢] مصر وأحضروا معهم المعاهدة على الصورة التى اقترحها الملك والتى ذكرناها آنفاً، ونصت الاتفاقات المبرمة بين الملك والأمراء على تحديد يوم معين يذهب فيه الملك إلى يافا ، ويكون الأمراء المصريون فى هذا اليوم فى غزة وفاءً لقسمهم أن يسلموه مملكة بيت المقدس[٣] .

وقد أقسم الملك وأعيان جيشه على المعاهدة التى جاء بها الرسل ، والتزمنا — وفاء بأيماننا — مساعدة الأمراء ضد سلطان دمشق .

(١) بداية هذه الرواية فى نسخة جونز ، ص ٤٨٥ جاءت على الصورة التالية : « لقد سمعت من قبل كيف أرسل الملك رسلا إلى أمراء مصر يخبرهم أنه لن يلتزم الوفاء بأية هدنة معهم إن لم يعوضوه عن الأضرار التى أنزلوها به ، ومن ثم وصل رسل الأمراء ومعهم الكتب التى تؤكد للملك أنهم فاعلون كل مايرغب فيه » .

(٢) جاء فى ترجمة مرزيالس أن الذين عادوا هم رسل الملك لويس ،على حين أن الأصل الفرنسى القديم يقول Li messaige d'Egypte ،وقد ترجمها بهذا المعنى أيضا مسيو ويللى، ص ٢٨٣ . راجع أيضا الحاشية السابقة .

(٣) الواقع أن شيئاً من الغموض يعتور المعنى المقصود من هذه العبارة المترجمة أعلاه من النص الفرنسى القديم حيث جاءت على الصورة التالية «... et a cette journeé qui li roys dut ales a Japhe, li amiral d'Egypte devoient estre a Gadre per lour seremens, pour delivrer au roi le royaume de Jerusalem. » ، وربما كانت ترجمة جونز أكثر استقامة، إذ ورد فيها أنه « اتفق على يوم يلتقى فيه الملك وهؤلاء السفراء فى يافا حيث يقطعون العهد للملك بتسليمه بيت المقدس ، لقاء أن يقسم الأمراء وكبار نبلائه اليمين على أن يكونوا عوناً للأمراء ونجدة لهم ضد سلطان دمشق » . هذا ويلاحظ أن الترجمة الإنجليزية خلت من الإشارة إلى غزة خلوا تاما .

٥١٦ — حين علم سلطان دمشق بتحالفنا مع أمراء مصر بعث بأربعة آلاف تركى فى كامل سلاحهم إلى غزة حيث كان قادماً عليهم من يجيئون من مصر ، وقد فعل ذلك ليقينه بهلاكه إن تمكن جيش مصر من المجىء إلينا والالتحام بنا ، غير أن ذلك لم يثن عزم الملك عن الحركة والزحف إلى يافا التى لم يكد كونتها يوقن بمقدم الملك إليها[1] حتى أعدّ قلعته إعداداً بدت معه كأنها مدينة متأهبة كل التأهب للدفاع عن نفسها ، إذ وضع عند كل سور بأعلى الطوابى (وكان بها ما يقرب من خمسمائة) درعاً بأسلحته وريشة صغيرة ، فكان المنظر جميلا تهواه العيون، لأن أسلحته كانت من الذهب عليها صليب من الذهب المخطط.

٥١٧ — ضربنا مخيمنا فى النواحى المحيطة بالقلعة والمجاورة لها المشرفة على البحر من جانب إلى آخر ، ثم شرع الملك فى الحال فى تحصين ضاحية جديدة من الضواحى المحيطة بالقلاع القديمة المطلة على البحر والممتدة من ناحية إلى أخرى وكثيراً ما رأيت الملك يحمل بنفسه وعاء الطين إلى الخنادق، عساه ينال الغفران المرتجى .

٥١٨ — لم يف الأمراء المصريون باتفاقهم الذى كان بيننا وبينهم لأنهم لم يجرءوا على القدوم إلى غزة خوفاً ممن بها من جند سلطان دمشق ، على أنهم نفذوا شرطاً منه حين بعثوا إلى الملك برءوس جميع النصارى التى كانت معلقة على أسوار قلعة القاهرة حين وقع فى أسرهم كونت دى بار وكونت دى مونتفورت[2] ، فأمر الملك بدفنها فى بقعة طاهرة .

---

(١) كان ذلك حوالى شهر مايو ١٢٥٢ حيث بقى بها الى ٢٩ يونيو ١٢٥٣ ، راجع فيما بعد فقرة رقم ٥٦٣

(٢) راجع رقم ٢٨٦

كذلك بعثوا إليه الأطفال الذين أخذوهم عند أسرهم إياه ، وقد فعلوا ذلك آسفين لأنهم كانوا قد بدّلوا دين هؤلاء الصغار ، كما أرسلوا الى الملك بصحبتهم فيلا بعث به الملك الى فرنسا (١) .

٥١٩ ـ وبينما كنا مقيمين فى يافا جاءها أمير من قبل سلطان دمشق لحصر الغلة فى قرية (٢) تبعد عن المعسكر ثلاثة فراسخ ، فاتفقنا على وجوب مهاجمته ، فلما رآنا قادمين نحوه لاذ بأذيال الفرار ، وبينما هو يجرى فراراً خرج لطاردته خادم شاب وجندل على الأرض اثنين من فرسانه دون أن ينكسر رمحه ثم شكّ الأمير شكة انكسر معها الرمح فى جسده (٣) .

٥٢٠ ـ التمس مندوبو الأمراء المصريين من الملك أن يحدد لهم يوما يجيئونه فيه ، فقرر الملك ألا يرفض طلبهم ، وضرب لهم يوما قدموا فيه عليه ، فأبرموا معه اتفاقا وأقسموا جهد أيمانهم أن يكونوا بغزة فى ذلك اليوم المتفق عليه (٤) .

* * *

(١) ذكر جونز أنه ورد فى Recueille des Historiens de France, t. XXI, 355 تحت هذه السنة قصة بشأن فيل أرسله لويس الى فرنسا ، وليس من المستبعد أن يكون هو نفس الفيل الذى يتكلم عنه جوانفيل فى المتن أعلاه .

(٢) ترجمها جونز بكلمة Karet أما جوانفيل فذكر أنها Kasel ولعلها القسطل .

(٣) وردت هذه الرواية فى جونز ، ص ٤٨٦ على الصورة التالية : « وفى الحال أرسل الملك جماعة لصدهم وتبعهم هو ذاته ، فلم يكد قائدهم يرانا حتى لاذ بأذيال الفرار ، فانطلق فى إثره جماعة من رجالنا بأقصى سرعة » .

(٤) جاءت هذه الرواية على الصورة التالية فى op. cit p.487 « حين علم الأمراء المصريون أن الملك وجيشه كانوا فى يافا ، أرسلوا إليه سفراء آخرين لتحديد يوم يلاقونه فيه بلا توان ، فعين لهم الملك ذلك اليوم ، وعاهدوه صادقين أن يكونوا دقيقين فى الفراغ من المسائل المختلفة التى كانت موضع نزاع » .

كونت أو وأمير انطاكية والأرمن

٥٢١ ـ بينما كنا فى انتظار اليوم الذى حدده الملك لمقابلة الأمراء المصريين قدم إلى المعسكر كونت أو[1] Eu مستصحبا معه لورد إرنول دى جوين Guines الفارس الطيب وأخويه وفرسانه الذين كانوا تمام العشرة، فاستبقى الملك الكونت أو[2] فى خدمته وجعله فارساً [وكان « أو» فى ذلك الحين صغير السن جداً[3]] .

٥٢٢ ـ حنيذاك عاد أمير[4] أنطاكية وأمه الأميرة إلى المعسكر ، فاحتفى به الملك احتفاءاً عظيما ، وأقام له حفلا بالغ العظمة نصّبه فيه فارساً رغم عدم مجاوزته إذ ذاك السادسة عشرة من عمره، لكننى لم أر قط فى حياتى غلاماً فى مثل فطنته ، فقد التمس من الملك أن يتفضل بسماعه فى حضرة أمه ، فرضى الملك فكان ما قاله له أمامها :

٥٢٣ ـ « مولاى ، ليس من شك فى أن من حق أمى أن تبقينى تحت وصايتها مدة أربعة أعوام أخرى ، ولكن ليس ثم ما يبرر عمل شيء ما من شأنه دمار إمارتى وتدهورها، وأنا أقول هذا يامولاى لأن مدينة أنطاكية آيلة

---

(١) هو جان بن ألفونس دى برين ومارى كونتس أو ، وسيرد خبر صداقة الكونت الشاب لجوانفيل فيما بعد فى فقرتى رقم ٥٨٢، ٥٨٣ .

(٢) يستفاد من رواية Jones, p. 487 أن الملك استبقى الفرسان العشرة فى خدمته ولم يدخل فيهم كونت أو ، بل خلع عليه لقب الفارس رغم شدة صغر سنه .

(٣) الإضافة من op. cit. loc. cit.

(٤) هو بوهيمند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، وأمه لوسيا Lucia ، وقد تكلم جوانفيل من قبل عن هيمند الخامس ، وسيتكلم فيما بعد أيضا عن بوهيمند السادس .

إلى الانهيار فى يديها ، ومن ثم فإنى ألتمس منك يامولاى أن تتحدث إليها فى هذا الصدد ، وأن تطلب إليها أن تمدنى بالمال والرجال اللازمين لأنجد بهم من فى هذه المدينة من الرجال ، وهذا أيضاً ما يقضى به الواجب عليها ، فإن فعلته كان ذلك خيراً لها هى الأخرى أيضاً ، لأننى[1] إن ظللت مقيما معها فى مدينة طرابلس فإن ذلك يتطلب نفقة باهظة ، وكل ما أنفقه حينذاك سيكون بلا طائل أو جدوى » .

٥٢٤ ـ فاستمع إليه الملك قرير النفس ، وبذل قصارى جهده ليحمل أمه على إعطائه أقصى ما تستطيع .

ولم يكد الأمير يغادر مجلس الملك حتى شخص إلى أنطاكية حيث لقى بها عطفاً وأخذ منذ ذلك الحين يصنع أسلحته على نمط أسلحة فرنسا ، لأن الملك كان قد نصبه فارساً .

٥٢٥ ـ جاء[2] بصحبة الأمير ثلاثة أخوة مهرجون من أرمينيا الكبرى كانوا فى طريقهم إلى بيت المقدس للحج ومعهم ثلاثة أبواق صنعت على صورة معيّنة : إذا خرج منها الصوت خرج من ناحية وجوههم ، وكانوا إذا نفخوا فيها تعالت كأنها صوت بجعات خارجة من بحيرة وصدرت منها أجمل موسيقى وأرق أنغام ، فكان سماعها لذة كبرى .

٥٢٦ ـ كان الإخوة الثلاثة بارعين أيضاً فى الوثب ، فقد فرشت حصيرة تحت أقدامهم وقاموا بحركات بهلوانية حتى عادت أقدامهم مرة ثانية إلى الحصير ، وقد تشقلب اثنان منهم ورأساهما إلى الوراء وكذلك فعل كبيرهم ، فلما

---

(١) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية كلام الكونت ساقط من جوانز ، ص ٤٧٨ .

(٢) خلت نسخة جوانز من فقرتى ٥٢٥، ٥٢٦

أمروه بالشقلبة ـ ورأسه إلى الأمام ـ رسم علامة الصليب على نفسه ، إذ كان يخشى أن يندق عنقه وهو يتشقلب .

• • •

ملك فارس يأسر وولتر

٥٢٧ ـ لما كان ، الخير ألا يسدل النسيان ستاره على ذكرى كونت بريين ـ الذى كان كونت يافا ـ فإننا سنقص بعضاً من أخباره هنا .

ولى الكونت أمر يافا عدة سنوات ، كما تولّى الدفاع عنها بيسالته زمناً طويلا، وعاش معظم أيام حياته على ما كان ينتزعه من المسلمين وأعداء الدين [١] . وقد حدث فى ذات مرة أن هاجم جمعاً غفيراً من المسلمين كانوا ينقلون كمية ضخمة من الملابس المطرزة بالذهب والفضة فاستولى عليها كلها ، فلما أحضرها إلى يافا وزّعها كلها بين فرسانه غير مستبق لنفسه منها شيئاً ، وكان أسلوب حياته أنه إذا ترك فرسانه أغلق على نفسه كنيسته، وظل عاكفاً وقتاً طويلا على ابتهالاته حتى إذا أوشك الليل أن ينقضى ذهب لينام مع زوجته ، وكانت امرأة طيبة حكيمة وهى أخت ملك قبرص [٢] .

٥٢٨ ـ أما [٣] امبراطورفارس الذى كان اسمه بركة خان والذى هزمه

---

(١) جاء فى Jones, p. 488 «إنه أنجز فى حياته أروع أعمال الفروسية وحافظ على كونتية يافا عدة سنوات رغم استمرار مهاجمة المصريين له » .

(٢) هى مارى أخت هنرى الأول ملك قبرص ، راجع فقرة رقم ٨٨ .

(٣) جاء فى جونز ، ص ٤٧٨ قبل هذا مايلى : « لقد سمعت من قبل بالأمير التتارى الذى استطاع بمعونة الله هزيمة امبراطور فارس وجيشه المؤلف من ثلاثمائة ألف رجل، بقوة قوامها ثلاثمائة رجل فقط ثم طرده بعدئذ من مملكته » .

أحد أمراء التتار كما أخبرتك من من قبل[1] فقد جاء بكامل جيشه إلى مملكة بيت المقدس، واستولى على قلعة طبرية التي كان أوتودى مونت بيليارد قد حصنها . وكان أوتو هذا الكونستابل قد أصبح صاحب طبرية عن طريق زوجته .

أوقع امبراطور فارس كثيراً من الشرور بشعبنا [وقتل كثيراً من رجالنا حول عكا ويافا[2]] ، وحطم كل ما صادفه خارج قلعة الحجاج وعكا وصفد ويافا أيضاً ، فلما أنجز تخريبه زحف بنفسه على غزة لينضم بنفسه إلى سلطان مصر الذي كان مسرعاً فى القدوم لسلب شعبنا والقضاء عليه .

٥٢٩ — اتفق رأى كل بارونات البلاد والبطرك على النهوض لمهاجمة الإمبراطور قبل وصول سلطان مصر ، ورغبة منهم فى الحصول على المساعدة بعثوا فى استقدام سلطان حمص ، وكان من أحسن الفرسان فى جميع البلاد غير النصرانية ، وابستقبلوه استقبالا رائعاً فى عكا ، حتى لقد كانوا يوزعون الملابس المذهبة والحريرية أمامه أنى سار ، وهكذا وصل إلى يافا جماعتنا ومعهم ذلك السلطان .

٥٣٠ — أصدر البطرك قرار الحرمان ضد كونت وولتر لأنه أبىَ أن يسلم برجاً فى حوزته بيافا يعرف ببرج البطرك ، والتمس رجال لنا من وولتر أن ينهض معهم لمحاربة إمبراطورفارس ، فقال إنه مستعد لذلك على أن يمنحه البطرك الغفران حتى العودة ، فرفض البطرك هذا الطلب ، إلا أن رفضه هذا لم يمنع الكونت وولتر من الذهاب معهم[3] .

---

(١) راجع رقم ٤٨٥ .

(٢) الإضافة من Jones, p. 488

(٣) فى Jones, p. 489 « معنا » .

كان رجالنا يؤلفون ثلاث فرق: إحداها تحت قيادة كونت وولتر، والثانية بقيادة سلطان حمص، أما البطرك والجماعة التى من تلك الأراضى فكانوا يؤلفون الفرقة الثالثة، وكان الاسبتارية فى فريق كونت دى بريين.

٥٣١ — زحف العسكر حتى أصبحوا على مرأى من العدو الذى ما كاد رجاله يرونه حتى توقفوا، فقسم العدو رجاله إلى ثلاث فرق أيضاً، وبينما كان الخراسانيون ينظمون صفوفهم جاء كونت وولتر إلى رجالنا وصاح بهم «أيها السادة: استحلفكم بحق الرب أن ننهض لمهاجمتهم، لأننا بتمهلنا نتيح لهم فرصة لتقوية صفوفهم»، فلم يستمع أحد لقوله.

٥٣٢ — لما رأى الكونت انصرافهم عن دعواه جاء إلى البطرك وتوسل إليه أن يمنحه الغفران على الصورة التى التمسها منه من قبل، إلا أن البطرك ظل مقيما على رفضه، وكان مع كونت بريين كاهن باسل تولى من قبل أسقفية الرملة وقام بكثير من أعمال البطولة وهو فى صحبة الكونت، فلما علم الكاهن إصرار البطرك على الرفض قال لكونت وولتر «لا يضطربن خاطرك إذا ما رفض البطرك منحك الغفران لأنه هو المخطىء وأنت المصيب، وأننى لأغفر لك باسم الآب والإبن والروح القدس، والآن هيا بنا لقتالهم».

٥٣٣ — ثم ثبتوا مهاميزهم فى جيادهم وكروا على فريق إمبراطور فارس الذى كان يؤلف مؤخرة العدو، واستحر القتل فى الجانبين، ووقع كونت وولتر أسيراً فى يد العدو بسبب فرار جميع رجالنا[1] فرار العار، حتى إن الكثيرين منهم رموا بأنفسهم فى البحر يأساً من النجاة، وكان مما أيأسهم

---

(١) فى جونز ص ٤٨٩ «رجاله» يعنى بذلك رجال كونت وولتر.

وأنزل بهم الهزيمة رؤيتهم إحدى كتائب إمبراطور فارس تهاجم سلطان حمص الذى لم يبق من جنده الألفين بعد المعركة سوى مائتين [1] وثمانين رجلا رغم دفاعه العظيم عن نفسه .

هزيمة فارس واتفاق مصر والشام

٥٣٤ — صمم الإمبراطور على محاصرة السلطان فى قلعة حمص ، لأنه ظن أنه لن يستطيع الصمود طويلا بعد أن فقد الكثير من رجاله ، فلما رأى السلطان ذلك جاء الى جماعته وأنبأهم أنه زاحف لمحاربة العدو ، لأنه إذا قبع فى مكانه وتركه يحاصره فإنه لا بد هالك ، ومن ثم رتب الأمور بأن بعث بجميع رجاله غير المسلحين سلاحاً جيداً عبر أحد الوديان الخفية ، آمراً إياهم بمهاجمة مؤخرة معسكر العدو والفتك بنسائه وأطفاله حالما تطرق أسماعهم دقات طبول السلطان .

٥٣٥ — خرج الإمبراطور إلى ميدان القتال لمحاربة السلطان، ورأى كلاهما الآخر رأى العين ، ولكنه ما كاد يسمع صراخ قومه فى المؤخرة حتى انكفأ عائداً إلى معسكره لنجدة النساء والأطفال ، وإذ ذاك هاجمه السلطان هو ورجاله هجوماً قوياً منظما ، حتى لم يبق أحد من جماعة الإمبراطور البالغة خمسة وعشرين ألفاً ما بين رجل وامرأة ، حيث لاقوا جميعاً حتفهم ، مابين قتيل فى المعركة أو هالك بحد السيف .

٥٣٦ — كان إمبراطور فارس ـ قبل مجيئه إلى حمص ـ قد أسر كونت وولتر أمام يافا ، وعلقه رجال من ذراعيه إلى مشنقة، وأخبروه أنهم لن ينزلوه حتى يسلم

---

(١) فى جونز ، شرحه « غير ثمانين فقط » .

قلعة يافا إليهم ، وبينما كان هو على هذا الحال من الصلب أخذ فى الصياح على رجاله الذين بالقلعة ألا يسلموها أبداً مهما أنزل العدو به من أذى ، لأنهم إذا سلموه القلعة فإنه سيذبحهم بيديه .

٥٣٧ — فلما رأى الإمبراطور أنه لن يستطيع الحصول على أكثر مما حصل أرسل كونت وولتر إلى مصر هدية لسلطانها ، كما بعث إليه برئيس الداوية وكثيرين غيرهم ممن أخذهم أسرى ، وعهد بحراستهم فى طريقهم إلى مصر إلى ثلاثمائة رجل [من فرسانه[١]] ممن قيضت لهم الحياة يوم هزيمة الإمبراطور أمام حمص .

كان [٢] هؤلاء الثلاثمائة رجل — وهم من الخوارزمية [٣] — من بين أولئك الذين هاجمونا فيما بعد يوم الجمعة، يوم أن كنا مشاة ، وكانت سناجقهم حمراء ومشرشره أعلا تجاه الرماح ، وكانوا يرسمون على حرابهم رؤوسا بشعرها أشبه برءوس الشياطين .

٥٣٨ — ألح كثير من تجار القاهرة على السلطان أن يثأر لهم من كونت وولتر لما كان قد أنزله بهم من خسائر جمة ، فأذن لهم السلطان بالذهاب إليه والانتقام منه ، فمضوا [٤] إليه فى حبسه وذبحوه فمات فى سبيل الرب ، وعقيدتنا أنه الآن فى السموات وفى عداد الشهداء الصديقين .

---

(١) الإضافة من جونز ، ص ٤٩٠ .

(٢) من هنا حتى نهاية رقم ٥٣٧ غير وارد فى جونز .

(٣) أشار جوانفيل من قبل (رقم ٢٦٣ — ٢٧٦) إلى هذه المعركة دون أن يشير إلى تدخل الخوارزمية . أما فيما يتعلق بهم ودخولهم بلاد الشام بعد مطاردة التتار لهم فراجع رقم ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥٢٨ .

(٤) فى جونز « فمضى إليه الكلاب الخونة » .

٥٣٩ — أخذ سلطان دمشق مَن كان من رجاله بغزة[1] ودخل بهم مصر ، التى نهض أمراؤها لمحاربته هو وفريقه الذى استطاع بقيادته أن ينزل الهزيمة بهم فى الحال . على أن فريق أمراء مصر هزم مؤخرة فريق سلطان دمشق، الذى ارتد إذ ذاك إلى غزة مصاباً بجروح فى رأسه ويده، وكان أمراء مصر — قد بعثوا إليه — قبل رحيله إلى غزة — برسلهم لعقد الصلح معه ، وإن كانوا لم يحافظوا قط على اتفقاتهم معنا ، ومنذ ذلك الحين لم تعقد أية هدنة أو صلح مع جند دمشق أو جند مصر ، ويجب أن تعرف أنه لم يزد عدد رجالنا من المحاربين فى أية مرة على ألف وأربعمائة مقاتل .

هزيمة صاحب سنت لازار

٥٤٠ — وبينما[2] كان الملك معسكراً أمام يافا شاهد رئيس سنت لازار — تجاه الرملة على بعد ثلاثة فراسخ — بعض حيوانات وأشياء مختلفة، فحدثته نفسه بالحصول على غنيمة هائلة ، ولم يكن ذا رتبة فى الجيش مما مكّنه أن يفعل ما يريد ، فمضى نحو ما رآى دون أن يستشير الملك ، فلما جمع غنائمه بعضها إلى بعض هاجمه المسلمون وهزموه شر هزيمة، حتى إنه لم ينج من جميع رفاقه غير أربعة .

٥٤١ — لم يكد رئيس سنت لازار يعود إلى المعسكر حتى أخذ فى الصياح والدعوة للسلاح ، فذهبت وسلّحت نفسى ، والتمست من الملك أن

---

(١) لأول مرة ترد كلمة « غزة » فى نسخة جونز ، ص ٤٩١

(٢) قصة صاحب سنت لازار (رقم ٥٤٠ ، ٥٤١) غير واردة فى جونز .

يأذن لى بالذهاب إلى تلك البقعة ، فاستجاب لى وأمرنى أن أصطحب معى بعض فرسان الداوية والاسبتارية ، فلما أشرفنا على تلك الناحية وجدنا جماعة من المسلمين الغرباء قد نزلت إلى الوادى حيث حاقت الهزيمة بسبب سنت لازار ، وبينما كان هؤلاء الغرباء يسيرون بين القتلى هاجمهم رئيس رماة سهام الملك ، وتمت له الغلبة عليهم وقتل أكثرهم قبل أن نصل إليه .

٥٤٢ — وحدث أن اشتبك أحد جنود الملك مع واحد من المسلمين فى قتال،وأصاب كل منهما الآخر بضربة من رمحه طرحته أرضاً،فلما رأى ذلك أحد جنود الملك تسلل إلى حصانيهما وتعمّد أن لا يراه أحد ، وانطلق بهما بين أسوار مدينة الرملة ؛ وبينما كان سائراً بالحصانين انهار تحته صهريج قديم كان يمشى فوقه ، فسقط هو والجياد الثلاثة التى كانت معه إلى القاع ، وقد أخبرنى البعض بقصته فذهبت لرؤيته ، فوجدت أن الصهريج لا يزال ينهار فوقهم وأنهم لن يلبثوا أن يدفنوا تحته . وهكذا عدنا دون أن نفقد شيئاً سوى الخسارة التى أحدثها صاحب سنت لازار .

٥٤٣ — لم يكد سلطان دمشق يعقد الصلح مع أمراء مصر حتى أمر بعودة رجاله من غزّة إليه،فروا من أمام معسكرنا على مسافة تقل عن فرسخين دون أن تواتيهم الشجاعة بالهجوم علينا رغم ما كانوا عليه من الكثرة العددية ، إذ كانوا فى عشرين ألف مسلم وعشرة آلاف بدوى . وحدث قبل أن يحاذوا معسكرنا أن ظل رئيس رماة الملك ورجاله يرقبونهم مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال سوياً حتى لا يأخذونا على غرة .

٥٤٤ — فلما كان يوم عيد القديس يوحنا[1] الواقع بعد عيد الفصح

---

(١) وذلك يوم ٦ مايو ١٢٥٣ .

كان الملك يستمع إلى موعظته حين دخل عليه كنيسته فدائىّ من فريق رئيس رماة السهام وهو فى كامل سلاحه، وأفضى إليه أن المسلمين قد أحدقوا بـكبار الرماة . فالتمست من الملك أن يأذن لى فى الخروج إليهم ، فلبى رجائى وطلب إلى أن أستصحب معى خمسمائة رجل مسلح ، وذكر لى أسماء من أراد أن أصحبهم معى ، فما كدنا نغادر المعسكر حتى كان المسلمون الذين فصلوا بين رئيس الرماة وبين المعسكر قد رحلوا للانضمام إلى أمير من الأمراء كان مرابطا على رابية صغيرة أمام رئيس الرماة ، ومعه ما لا يقـــل عن ألف رجل مسلح .

٥٤٥ ـــ وبدأ القتال بين المسلمين وبين جنود رئيس الرماة الذين كانوا يبلغون مائتين وثمانين ، وما كاد الأمير يرى أن الضغط قد اشتد على رجاله حتى بعث إليهم نجدة فى أعداد كثيرة ، مكنت جنودنا من معاودة الانضمام إلى قوات رئيس الرماة الذى رأى اشتداد الضغط على رجاله ، فأرسل لمساعدتهم مائة أو مائة وعشرين مقاتلا ردوا المهاجمين على أعقابهم .

٥٤٦ ـــ وبينما كنا هناك قام القاصد الرسولى وبارونات البلاد الذين ظلوا مع الملك بإخباره أنه أخطأ خطأ جسيما بتعريضى للخطر ، ونزل الملك عند نصيحتهم ، فأرسل فى استدعائى واستدعاء رئيس الرماة أيضاً ففر الترك وعدنا إلى المعسكر ، وتعجّب الكثيرون من رجالنا كيف لم يأت العدو لمهاجمتنا ، وقال البعض إنهم لم يهاجمونا لأنهم وجيادهم كانوا يعانون التعب فى غزة التى أقاموا بها قرابة عام .

حسن أسلحة الجيش

٥٤٧ ـــ حين مر هؤلاء المسلمون أمام يافا وبلغوا عـكا بعثوا برسالة

إلى صاحب صور وكان فى الوقت نفسه كونستابل مملكة بيت المقدس يخبرونه فيها أنهم سيدمرون بساتين المدينة ، إذا لم يبعث إليهم بخمسين ألف بيزنتة ؛ فأجابهم أنه لن يفعل شيئاً من ذلك أبداً ؛ ثم أخذوا فى تنظيم كتائبهم ، وانتشروا على طول رمال عكا حتّى صاروا جد قريبين من البلد الذى أضحى على مرمى قوس منهم ، فخرج لورد صور من المدينة للدفاع عن مبانيها ، ورابط على جبل القديس يوحنا حيث توجد مقبرة القديس نيقولا ، كما خرج جنودنا من عــكا وأخذوا فى مشاغبة المسلمين برميهم عن سهامهم وقسيهم .

٥٤٨ ـــ إستدعى صاحب صور إليه فارساً جندياً يدعى لورد جون العظيم وأمره بالمضى لاستدعاء عامة الناس الذين خرجوا من مدينة عــكا حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر ، وبينما كان يفعل ذلك إذا بفارس مسلم ينادى عليه باللسان العربى ، ويدعوه للمثاقفة إن رغب فى ذلك ، فأخبره سيدى لورد جون بأنه يرحب بذلك كل الترحيب ، وبينما كان ذاهباً إلى المسلم لمصارعته التفت إلى يساره فشاهد جماعة قوامها ثمانية [أو تسعة[1]] من الترك قد توقفوا ليشاهدوا المثاقفة .

٥٤٩ ـــ وإذ ذاك انصرف عنها الجندى ومضى ناحية الأتراك القلائل الذين كانوا واقفين فى هدوء ليشاهدوا اللعب ، ورمى أحدهم برمحه رمية استقر الرمح معها فى جسده وجندله صريعاً ، فلما رأى الآخرون ذلك هجموا عليه وهو راجع ناحيتنا ، وضربه أحدهم بصولجانه ضربة قوية على خوذته الحديدية ، فلما مرّ به هذا التركى ضربه جون بسيفه على عمامته التى كان يلفها حول رأسه

---

(١) add. BAL., p. 492,

ضربةً دحرجتها على الأرض ، وكان من عادتهم أن يلبسوا العمائم فى حروبهم لأنها تحول دون الضربة القوية من السيف .

٥٥٠ — وإذاك وثب عليه تركى آخر وكاد أن يغمد رمحه فيما بين كتفيه ، لولا أن انحرف السيد جون يساراً حين أبصر الرمح يقصده ، فلما مر الرجل المسلم بسيدى جون ضربه جون ضربةً يسارية خلفية بسيفه فى ذراعه ، فأطارت السيف من يده وسط الحقل .

وهكذا عاد لورد جون وأحضر معه رجاله مشاة . وقد جرت جميع هذه الضربات الثلاث الرائعة أمام لورد صور ورجال عكا البارزين وعلى مرأى من جميع النساء اللائى كن يشاهدن هذا المنظر من أعلا الأسوار .

نهب صيدا

٥٥١ — حينما ترامى إلى سمع هذه الجموع الكثيرة من المسلمين الواقفة أمام عكا ممن لم يجرءوا على محاربتنا كما علمت ولا على مقاتلة مَن بعكا ، أقول حين سمعت هذه الجموع أن الملك يعمل على تحصين مدينة صيدا فى قوى عسكرية قليلة شرعوا فى قصدها . فلما سمع خبر مجيئهم سيدى لورد سيمون دى مونت بليارد رئيس رماة الملك وكبير رجاله فى صيدا ارتد إلى قلعة صيدا الشديدة المناعة والمحاطة بالبحر من جميع نواحيها ، وكان ارتداده هذا من وحى بصيرته النافذة ، من جراء عدم وجود قوة كافية لديه تمكنه من مقاومة المسلمين الغزاة ، وأخذ معه داخل القلعة أكبر عدد مستطاع من الناس ، ولكنهم كانوا قلة نظراً لشدة صغر مساحة الحصن .

٥٥٢ — هاجم المسلمون المدينة دون أن يلقوا أية مقاومة ، لأنها لم تكن

مسورة[1] من جميع نواحيها ، وقتلوا أكثر من ألف رجل من جماعتنا وانطلقوا بما غنموه إلى دمشق ، فلما سمع الملك هذه الأنباء اشتد غضبه [لأن[2] المسلمين خربوا كل ما أقامه فى صيدا] ولكن هل يجدى غضبه فى إصلاح ماجرى ؟ استغل بارونات البلد غضب الملك لصالحهم ، إذ كان قد جمع عزمه من قبل على الذهاب لتحصين رابية واقعة على الطريق الواصل بين يافا وبيت المقدس حيث كان يقوم على هذه الرابية حصن قديم فى أيام المكابيين .

٥٥٣ — لم يكن من رأى بارونات البلاد إعادة بناء هذه القلعة ، لأنها كانت على مسافة خمسة فراسخ من البحر ، وهذا هو السبب الذى من أجله لم يكن فى الاستطاعة إرسال الذخائر إليها بحراً دون وقوعها فى أيدى المسلمين الذين كانوا أقوى منا ، فلما جاءت الأنباء إلى المعسكر بتخريب ضاحية صيدا تحدّث بارونات هذه البلاد إلى الملك ، مبينين له أن إعادة تحصين صيدا التى ضربها المسلمون أجدى وأعظم قيمة من بنائه قلعة جديدة ، فوافقهم الملك على رأيهم .

الملك يرفض الذهاب إلى بيت المقدس

٥٥٤ — فى أثناء وجود الملك بيافا جاءه النبأ بأن سلطان دمشق يرحّب بذهابه إلى بيت المقدس آمناً سالماً [وكان[3] وكان شديد الرغبة فى زيارتها لولا أنه] عقد مجلساً كبيراً فلم يوافق فيه أحد من الحاضرين على ذهابه إلى بيس المقدس لأنه بذلك العمل سيجعل المدينة فى أيدى المسلمين .

---

(١) فى نسخة BAL., p.493 «لأن أسوارها لم تكن قد كملت بعد» .

(٢) الإضافة من النسخة السابقة ، ص ٤٩٣ .

(٣) Add. BAL., p. 493.

٥٥٥ — وضربوا للملك مثلا على ذلك بما فعله الملك فيليب العظيم عند رحيله من عكا إلى فرنسا، حيث كلف رجاله جميعاً بالبقاء فى الجيش مع الدوق هيج دى برجنديا : جدّ الدوق المتوفى حديثا ، وحدث فى أثناء إقامة الدوق وريتشارد ملك إنجلترا فى عكا أن جاءت الأنباء باستطاعتهم الاستيلاء على بيت المقدس غداً إن شاءوا ، نظراً لعودة جميع فرسان سلطان دمشق[١] إليه لمساعدته فى حروب ضخمة بينه وبين أحد[٢] السلاطين الآخرين ، ومن ثم فقد انقسم رجالنا قسمين: أحدهما بقيادة ملك إنجلترا، وثانيهما بقيادة دوق برجنديا وجميع عسكر ملك فرنسا.

٥٥٦ — وبينما كانوا يدبّرون خطة الاستيلاء على المدينة وفد على ملك انجلترا رسول من معسكر دوق برجنديا يفيد بأن الدوق لن يتقدّم خطوة، بل إنه مرتد إلى الوراء غيرةً من أن يقال إن الانجليز استولوا على بيت المقدس .

وبينما كانوا يتباحثون فى هذا الأمر تقدّم أحد فرسان الملك منه وقال له : « مولاى ، تقدم إلى هناك فسأريك الطريق إلى بيت المقدس » ، فلما سمع الملك ذلك رمى سترته الحربية وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، [ورفع يديه إلى السماء[٣]] هاتفاً بسيدنا « أيها السيد الرب الحنون ، أتوسل إليك ألاّ ترينِّى مدينتك المقدّسة إن لم أكن قادراً على تخليصها من أيدى أعدائك ! » .

---

(١) فى op. cit. p. 494 « فرسان مصر إلى سلطان دمشق » .

(٢) فى op. cit. Loc. cit « لمساعدة سلطان دمشق فى حربه ضد سلطان هذا البلد »

(٣) الإضافة من جونز ، ص ٤٩٤ .

٥٥٧ — ضرب البارونات هذا المثل للملك ، لأن ذهابه للحج — وهو أقوى ملوك النصرانية — قبل أن يخلص المدينة من أيدى أعداء الرب — سيحمل من يليه من الملوك والحجاج على الاكتفاء بالحج ، اقتداءاً بما فعله ملك فرنسا دون التفكير فى العمل على إنقاذ بيت المقدس .

٥٥٨ — وقام الملك ريتشارد بكثير من الأعمال الباسلة حينما كان فى الأراضى المقدّسة ، حتى إن جياد المسلمين كانت إذا خافت من أى غابة صاح بها راكبوها « هل تظنون أن فيها ريتشارد ملك إنجلترا ؟ » .

وكان أطفالهم إذا بكوا صاحت بهم أمهاتهم « اسكتوا وإلا ذهبنا وجئنا لكم بالملك ريتشارد فقتلكم[1] » .

* * *

هيج الثالث دوق برجنديا

٥٥٩ — كان دوق برجنديا — الذى حدثتك عنه حالا — فارساً عظيما جداً ، بارعاً فى الحرب ، لكنه لم يكن كريماً عاقلا تجاه الرب أو الناس ، ويتجلى هذا بوضوح مما رويناه عنه آنفا . لذلك فإنه لما قيل للملك فيليب المعظم أن كونت جون دى شالون قد رزق غلاماً سماه هيج باسم دوق برجنديا قال إنه يأمل أن ينشئه رجلا جسوراً كالدوق .

٥٦٠ — فلما سألوه لماذا لم يقل رجلا فطنا مثله قال « لأن هناك فارقاً كبيراً جداً بين الجسور والفطن ، لأنه يوجد كثير من الفرسان الجسورين

---

(١) راجع فقرة رقم ٧٧ .

فى البلاد النصرانية وفى بلاد المسلمين ممن لم يؤمنوا أبداً بالرب وبأمه ، ولذلك فإنى أخبركم أن الرب يهب هبة عظيمة ويعطى رحمة خاصة للفارس المسيحى الذى يمنحه قوة بدنية كبيرة ، ويبقيه فى الوقت ذاته فى خدمته ، حافظاً إياه من الخطيئة المهلكة ، ومثل هذا الفارس الذى يسيطر على نفسه يجب أن يسمى بالمنعم عليه ، لأن هذه القوة إن هى إلا منحة من الرب ، وهؤلاء الذين تكاملت عنهم من قبل قد يسمون بالجسورين لأنهم أقوياء فى أجسادهم ، ولكنهم لا يخافون الرب ولا يرهبون المعصية » .

تقوية يافا والرحيل إلى صيدا

٥٦١ — ليس من الملائم أن أتكلم عن المبالغ الضخمة التى صرفها الملك فى تحصين يافا لأنها أكبر من أن تعدّ ، فقد حصّن كل الناحية الواصلة بين طرفى ساحل البحر ، وأقام بها أربعة وعشرين برجاً ، وكسى الخنادق بالطين من الداخل والخارج ، كما أقام ثلاثة أبواب ، أقام القاصد الرسولى بنفسه واحداً منها مع جزء من السور .

٥٦٢ — ولكى ترى ما تكلفه الملك يجب أن تعرف أننى استفسرت من القاصد الرسولى عن المبلغ الذى صرفه لإقامة هذا الباب وهذا الجزء من السور ، فسألنى وماظنى؟ فقلت أكبر الظن أن الباب وحده كلفه خمسمائة دينار ، وأن هذا الجزء من السور كلفه ثلاثمائة دينار ، فأخبرنى — قواه الله — أن الباب والحائط معاً كلفاه ثلاثين ألف دينار .

رحيل الملك إلى صيدا

٥٦٣ — ولما فرغ الملك من تحصين يافا اعتزم الذهاب لإعادة تحصين مدينة صيدا التى دمرها المسلمون ، وشرع فى ذلك يوم الاحتفال بعيد القديس

بطرس وبولص[1] ، وبات الملك وجيشه تلك الليلة أمام صور الشديدة التحصين .

وفى تلك الليلة ذاتها دعا الملك رجاله جميعاً وأخبرهم أنه ماض -إن قبلوا- لأخذ مدينة من المسلمين يسمونها نابلس، وهى التى وردت فى الكتب القديمة باسم Samaria .

٥٦٤ـــ فأجمعت الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد على تحبيذ فكرته فى محاولة الاستيلاء على المدينة، لكنهم رأوا ألا يذهب هو بشخصه حتى لا تضيع الأراضى المقدسة بأجمعها إن حدث له حادث ، فقال لهم إنه لا يجوز له الذهاب دون موافقتهم ، ومن ثم بقى هذا المشروع معطلا ، لأن بارونات البلد لم يوافقوا على ذهابه بنفسه .

٥٦٥ — تابعنا سفرنا حتى جئنا رمال عكا حيث عسكر الملك والجيش ، وجاءنى فى هذا المكان جمع كبير من أهل أرمينيا الكبرى كانوا فى طريقهم إلى بيت المقدس للحج ، بعد أن دفعوا ضريبة[2] كبيرة للمسلمين الذين كانوا يدلونهم على الطريق .

وطلبوا منى بواسطة مترجم يعرف لغتهم ولغتنا أن أدلهم على الملك القديس .

٥٦٦ـــ فذهبتُ إليه حيث كان جالساً فى دهليزه مفترشاً الرمل دون سجادة أو أى شىء آخر تحته وقلت له: « مولاى ، يوجد خارج هذا الفسطاط

---

(١) هو يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٥٣ .

(٢) خلت نسخة Jones, p. 496 من الإشارة إلى دفعهم المال للمسلمين .

عدد كبير من أهالى أرمينيا الكبرى فى طريقهم إلى بيت المقدس ، وقـــد توسلوا إلىّ يامولاى أن أمكّنهم من رؤية الملك القديس ، ولـكن ليس عندى رغبة حتى الآن أن يقبل الناس عظامك » .

فضحك ضحكاً عالياً ، وطلب منى أن أذهب لإحضارهم ، ففعلت ما أمرنى به ، فلما رأوا الملك دعوا له الله ودعاه هو أيضاً لهم .

٥٦٧ ـــ فلما كان اليوم التالى نزل الجيش فى مكان يسمى « بمعبر الجيش » حيث يحلوا طعم الماء كل الحلاوة ، ويروون من هذا الماء حقول قصب السكر ، وإذ كنا معسكرين جاءنى أحد فرسانى وقال لى : « لقد أنزلتك اليوم فى مكان أطيب من المكان الذى نزلته بالأمس » .

وإذ ذاك وثب عليه غاضباً فارس آخر كان هو الذى اختار لى مكان الأمس وصاح به : « لقد جاوزتْ قحتك الحد فى الكلام عن كل ما أعمله » ، ثم جذبه من شعره جذبة قوية ، فوثبت عليه أنا الآخر بدورى ، ولكمته بين كتفيه فتركه من يده ، وقلت له « أخرج سريعاً من معسكرى ، فلن تكون بعد اليوم ـــ بعون الرب ـــ واحداً من أتباعى » .

٥٦٨ ـــ ابتعد الفارس وقد ارتسمت عليه دلائل الحزن والأسى الشديدين ، وأحضر إلىّ السيد چيل دى برون كونستابل فرنسا الذى راح يلتمس منى إعادته إلى ما كان عليه من الخدمة ، لِما رآه من ندمه الشديد على الحماقة التى ارتكبها ، فقلت له إننى لا أستطيع ردّه إلى خدمتى إلاّ إذا أحلّنى القاصد الرسولى من يمينى التى أقسمتها لأنه كان يميناً معقولا ، لأن الفارس كان يستحق العقاب » .

ولقد زويت لك كل هذه الأشياء كى لاتقسم يميناً ربما لايكون من الملائم قطعه ، إذ كما يقول الرجل العاقل « من يقسم سريعاً يستخفّ الحنث بيمينه ».

الحملة على بانياس

٥٦٩ — ذهب الملك فى اليوم التالى فعسكر أمام مدينة صــور الواردة فى الإنجيل باسم تير Tyre، حيث جمع الملك إليه كبار رجالات الجيش وسألهم إذا كان من الخير أن ينهض للاستيلاء على مدينة بانياس قبل ذهابه إلى صيدا ، فاتفق رأينا على أن ينهض إليها رجاله وحدهم ، ولم ينصحه أحد قط بالذهاب إليها بنفسه .

وتطلّب ثنيه عن عزمه صعوبة قصوى، وأخيراً تم الاتفاق أن يمضى إليها كونت أو Eu وفيليب دى مونتفورت وصاحب صور وچيل لى برون كونستابل فرنسا وسيدى بطرس كاتم السر ورئيس الداوية وإخوانه فرسان المعبد ورئيس الاسبتارية وإخوانه الفرسان أيضاً .

٥٧٠ ـــ فلما أرخى الليل سدوله زحفنا مسلّحين ، وجئنا بعد قليل من انبلاج النهار إلى سهل ممتد أمام المدينة المسماة بنياس والمسماة فى العهد القديم بقيصرية فيليب Caesarea Philip .

وفى هذه المدينة نبع ماء يسمونه الأور Jor ويوجد فى وسط السهل الواقع أمام المدينة نبع آخر جميل جداً يسمونه « دان Dan » ، وحين يلتقى النهيران الخارجان من هذين النبعين يكوّنان نهــراً يسمونه الأردن وهو النهر الذى عُمد فيه المسيح .

٥٧١ ـــ تم الاتفاق بين الداوية وكونت أو[1] والاسبتارية وبارونات البلد الحاضرين ، على أن يقف فريق الملك ـ الذى كنت فيه إذ ذاك ـ مع الفرسان الأربعين الذين جاءوا من شمبانيا واستبقاهم الملك فى خدمته وجعلهم فى فرقتى أقول اتفقوا على أن يقف فريق الملك ولورد جوفرى دى سارجين الصالح بين القلعة والمدينة ، وأن يدخلها بارونات من البلاد [وملاك الأراضى[2]] من ناحية الشمال ، ويدخلها الاسبتارية من ناحية اليمين ،ويدخلها الداوية مباشرة من أمامنا عن الطريق الذى جئنا منه .

٥٧٢ ـــ ثم تقدمنا إلى الأمام حتى صرنا أمام المدينة ، فوجدنا أن المسلمين الذين بها قد هاجموا عسكر الملك وأخرجوهم منها [ووجدت[2] كثيراً من رجالنا قد لاقوا منيتهم على أيدى المسلمين الذين طرحوهم على الأسوار] .

فلما[3] رأيت ذلك جئت إلى الرجال الأفاضل الذين مع كونت « أو » وقلت لهم « أيها السادة ، إذا لم تذهبوا إلى حيث أُمِرْنا بالذهاب ـ أعنى بين المدينة والحصن ـ فسوف يفتك المسلمون بجميع رجالنا الذين دخلوا المدينة » :

وكان طريقنا بالغ الخطورة وكان المكان الذى نحن ذاهبون إليه محفوفاً بالخطر ، فكان هناك ثلاثة أزواج من الأسوار التى لابد من اجتيازها ، وكانت السفوح شديدة الانحدار حتى كان من الصعب على الحصان الاحتفاظ بموقع

---

(١) لم يرد اسم كونت «أو» فى نسخة جونز ، ولكن ورد بدلا منه اسم « كونت أنجو » ، كذلك خلت هذه النسخة من الإشارة إلى بارونات البلد .

(٢) الإضافة من نسخة جونز ، ص ٤٩٨

(٣) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية خطاب جوانفيل غير وارد فى نسخة جونز .

حوافره ؛ كما أن الناحية التى نرغب فى احتلالها كانت غاصّة بالترك على ظهور جيادهم .

٥٧٣ ـ وبينما كنت أتحدث مع كونت « أو » وفرسانه رأيت أن جنودنا المشاة شرعوا فى تحطيم الأسوار، فقلت لمن كنت أخاطبهم إنه صدرت الأوامر بأن يزحف فريق الملك إلى حيث يقف الترك وأنه يتحتّم علىّ الذهاب ، فاستدرتُ أنا واثنان من فرسانى شطر أولئك الذين كانوا يهدمون الأسوار ، فأبصرت جندياً على حصانه فكّر فى الوثوب فوق السور فسقط هو وسقط فرسه فوقه ، وإذ ذاك ترجلت عن جوادى : وأخذته من مقوده ، ثم شاء الله أن يفرّ الترك من هذا المكان الذى كان علينا احتلاله حالما أبصرونا قادمين عليهم .

٥٧٤ ـ حين بلغنا هذا المكان ـ وكان الترك قد رحلوا عنه ـ أخذ المسلمون الذين كانوا بالمدينة يحرقون الإرم ، وما لبثوا أن تركوا المدينة لرجالنا دون مقاومة، وبينما كنت واقفاً فى ذلك المكان إذْ سمع مارشال الداوية بما أنا فيه من خطر: فصعد الرابية مفتشاً عنى ، كما قام بالبحث أيضا جماعة من الألمان الذين فى كتيبة كونت أو ؛ فلما أبصروا الترك على ظهور جيادهم مغذّين الخطى نحو القلعة تحرّكوا زاحفين خلفهم ، فقلت لهم : « أيها السادة ، إنكم تتنكبون الطريق السوّى ، لأننا هنا مقيمون حيث أُمِرْنا أن نكون ، ولكنكم ـ بمتابعتكم إياهم ـ تخالفون الأوامر الصادرة إليكم » .

***

٥٧٥ — تسمى القلعة المشرفة على المدينة بقلعة الصبيبة[1]. وهى واقعة على مسافة نصف فرسخ من جبال لبنان ، كما أن التل الذى يصعد إلى القلعة تتناثر فيه الصخور الضخمة تناثراً أشبه ما تكون فيه بالأكوام الكبيرة ، فلما أدرك الألمان ما فى تعقبهم العدو من حماقة قفلوا راجعين ، فلما رآهم المسلمون إذ ذاك هاجموهم مشاة ، وأخذوا يضربونهم من قمم الصخور ضربات قوية بصولجاناتهم ، ويجذبون الأغطية من فوق جيادهم[2] .

٥٧٦ ـ أخذ الخوف يتسرب إلى نفوس من معنا من الجند حينما شاهدوا ما حلّ بالألمان من بليّة ، ولذلك أخبرتهم أنهم إذا تزحزحوا عن موضعهم وتركوا الميدان نزعتهم بعدئذ نهائياً من ثبت الذين يتسلمون رواتب من الملك ، فقالوا لى : « أيها السيد : إنّ كفتينا غير متكافئتين ، فإذا تحتّم الفرار كان الأمر يسيراً عليك لأنك راكب جواداً ، أما نحن فمشاة ، وإذ ذاك يقتلنا المسلمون » ، فقلت لهم : « أيها السادة ، أقسم لكم أننى لن أفرّ بل سأبقى مترجلا معكم » ، ثم ترجلت من على ظهر حصانى ، وبعثت به إلى الداوية الذين كانوا على مسافة رمية سهم وراءنا .

وفى أثناء ارتداد الألمان رمى المسلمون واحداً من فرسانى واسمه جون دى بوسّى بسهم فى حنجرته فسقط مجندلا صريعاً أمام ناظرى ، وإذ ذاك قال لى

---

(١) لم يرد اسم هذه القلعة فى جونز ، ص ٤٩٩ .

(٢) جاء بعد ذلك فى نسخة جونز ، ٤٩٩ « واضطربت صفوفهم فعادوا إلى حيث كنت واقفاً » .

ابن عمه هيج دى إسكوت الذى برهن على شجاعته فى الأرض المقـــدسة : « سيدى ، تعال ساعدنا فى حمل ابن عمى إلى الوراء » فقلت له : « لتكن البلية نصيب من يعاونك. لأنك ذهبت إلى هناك دون أمرى، وإذا كان ثم شر قد حاق بك فإنك تستحقه ، ألا فاحمله ووسده الخندق ، أما أنا فلن أبرح مكانى هذا حتى يبعثوا فى التفتيش عنى ».

٥٧٨ ــ ولما سمع جون دى ڤالستين بما نحن فيه من خطر جاء إلى أوليڤر دى تيرم وإلى غيره من زعماء لانجدوك وقال لهم : « أيها السادة ، إننى ألتمس منكم وآمركم باسم الملك أن تساعدونى فى إعادة الصنجيل » ، وبينما كان يبذل جهده فى هذا السبيل جاءه [فارس[1] اسمه] وليام دى بيمونت وقال له: « إنك تتعب نفسك بلا جدوى لأن الصنجيل قد مات » ، فأجابه : « لابد من أن أحمل خبره إلى الملك حياً كان أو ميتاً » ، ثم تابع سيره إلى أن جاء إلى مكاننا على قمة الجبل ، وما كاد يقترب منا حتى بعث إلىّ طالباً الذهاب إليه ومحادثته . فلبيت طلبه .

٥٧٩ ــ بعدئذ قال لى أوليڤر دى تيرم إننا كنا فى خطر عظيم لأننا لو نزلنا عبر الطريق الذى جئنا منه فلا بد من أن نتحمّل خسارة طائلة جداً لأن التل شديد الانحدار، ولا بد للمسلمين من الهجوم علينا، وقال لى : « لكن إذا أنصتّ إلىّ فإننى دالك على طريق للنجاة يخلصك من التهلكة » : فسألته الاستمرار فى كلامه ، وسأفعل ما يريد .

٥٨٠ ــ قال : سأخبرك كيف تستطيع النجاة ، إننا سنذهب جميعاً على

---

(١) الإضافة من جوثر ، ص ٥٠٠ .

طول هذا المنحدر كما لو كنا ذاهبين إلى دمشق،وسيظن المسلمون الذين تراهم أمامك أننا نريد مباغتتهم من الخلف ؛ لكننا لا نكاد نصير فى هذه السهول حتى نبادر فندور حول المدينة ، وسنمر فوق النهر قبل أن يستطيعوا الصعود إلينا ، وحينذاك نستطيع أن نكبدهم ضرراً بليغاً ، فنضرم النار فى تلال القمح المدروسة الموضوعة وسط تلك الحقول » .

٥٨١ ـ ففعلنا ما اقترحه علينا ، ثم إنه أمر بجمع الأعواد التى تشبه قصب الغاب المستعمل فى صنع المزامير ، وأضرم فيها النيران ، ثم ألقى بهذه العيدان بين القمح المدروس ، وهكذا مكنتنا نصيحة أوليفر دى تيرم من العودة سالمين بعون الله . ويجب أن تعرف أننا حينما رجعنا إلى المعسكر حيث كان رجالنا وجدنا أن الجميع قد خلعوا عنهم لباس الحرب . وهكذا عدنا فى اليوم التالى إلى صيدا حيث يوجد الملك .

* * *

دفن قتلى صيدا وصداقة جوانفيل وأو

٥٨٢ ـ [حينما[1] عدنا إلى صيدا] وجدنا الملك ذاته قد أمر بأن تدفن فى الحال جثث النصارى الذين قتلهم المسلمون ، كما اشترك هو بنفسه فى حمل الجثث العفنة النتنة دون أن يسد منخاريه كما يفعل الآخرون . كذلك أمر بجلب العمال من جميع النواحى ، وأخذ نفسه بتقوية المدينة بالأسوار العالية والأبراج الضخمة ، حتى إذا بلغنا المعسكر وجدناه قد عاين بنفسه الأماكن التى نعسكر فيها ، وجعل[2] مكانى قريباً من مكان كونت « أو » ، لما كان يعرفه من إيثاره لصحبتى .

---

(١) الإضافة من عندنا للربط وتسلسل العبارة .

(٢) نسخة جونز ناقصة من هذه الكلمة حتى نهاية الفقرة رقم ٥٨٣ .

٥٨٣ ـ وسأخبرك بمداعبات كونت « أو » لنا ، فلقد أقمت بيتاً آ كل فيه أنا وفرساني على ضوء الباب الذي كان متجهاً إلى ناحية معسكر الـكونت الذي كان شديد الذكاء ، فصنع آلة صغيرة يستطيع بها رمى الحجارة فى بيتى ، فـكنا إذا جلسنا إلى الطعام تسلل وهيأ آلته على هيئة تـكون فيها مسددة إلى مائدتنا ؛ ثم يشرع فى رمى الحجارة فيكسر أواعينا ويحطم أكوابنا الزجاجية ، وكنت قد موّنتُ نفسى بالدجاج والديكة،وحدث أن أعطاه واحد لست أعرف اسمه دبّاً صغيراً،فـكان يدفعه للهجوم على طيورى،حتى لقد قتل منها اثنتى عشرة واحدة قبل أن يأتى أحد إليها ، فعمدت المرأة التى تقوم بحراسة الطيور إلى قتل الدب بمغزلها .

* * *

استيلاء التتار على بغداد

٥٨٤ ـــ بينما كان الملك مشغولا بتحصين صيدا وفدت على المعسكر قلة من التجار، ذاكرين لنا خبر استيلاء ملك التتار على مدينة بغداد وأسره خليفة المسلمين صاحب المدينة والمسمى بخليفة بغداد ، وقد قص علينا التجار طريقـة استيلاء التتار على مدينة بغداد وعلى الخليفة ، فذكروا أن ملك التتار ـ حين محاصرته المدينة ـ بعث إلى الخليفة يفهمه أنه يرحب بتزاوج أبنائهما ، فنصح الخليفة مشيروه بقبول هذا الزواج .

٥٨٥ ـــ ثم إن ملك التتار سأل الخليفة أن يبعث إليه بأربعين شخصاً من أهل الرأى عنده وكبار رجالاته لإتمام مراسيم الزواج ، فلبى الخليفة طلب الملك الذى سأله مرة أخرى أن يبعث إليه بأربعين آخرين من أثرى رجاله

وأعقلهم ، فاستجاب له الخليفة . ثم عاود الملك التتارى السؤال مرة ثالثة حين طلب منه أن يوفد إليه أربعين من أحسن أصحابه ، ففعل الخليفة .

فلما رأى ملك التتار أن جميع زعماء المدينة صاروا فى قبضة يده أيقن أن ّ مَن دونهم ممن فى المدينة من الأذناب والحواشى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم من غير الرءوس ، وإذ ذاك أمر بقطع رقاب هؤلاء المائة والعشرين شخصاً ، وشن هجوماً على المدينة أخذها فيه كما أخذ الخليفة أيضاً .

ولكى يغطى ملك التتار خيانته ويلقى تبعة ضياع المدينة على الخليفة أمر بوضعه فى قفص من حديد ، ومنع الطعام عنه أطول مدة على أن لا يؤدى به ذلك المنع إلى الموت ، ثم سأله عما إذا كان جائعاً فأجاب الخليفة « أى نعم » ، ولم يكن فى ذلك شىء من العجب ، وإذ ذاك أمر ملك التتار أن يأتوا له بوعاء كبير من الذهب ملىء بالجوهرات والأحجار الثمينة وسأله : « ألا تعرف هذه الجوهرات ؟ » فقال « بلى ، لقد كانت لى » ، فسأله عما إذا كان يهواها تماماً ، فرد عليه بالإيجاب .

٥٨٧ — فقال له الملك : «أما وقد كنت شديد الحب لها فتناول منها الآن ما تراه ملائماً لك وكله » ، فأجاب الخليفة أنه لا يستطيع ذلك إذ لم تكن طعاماً فتؤكل ، وحينذاك قال له ملك التتار : « ها أنت ذا الآن ترى ما هى وسائل دفاعك التى كنت تصطنعها ، لأنك لو كنت قد بذلت هذه الأموال — التى لا تغنيك الآن شيئاً — على من لديك من المقاتلة لأمكنك الدفاع عن نفسك الآن ضدنا ، وها هى ذى ثروتك لم تفدك أبداً فى وقت محنتك» .

٥٨٨ — [١] بينما كان الملك يعمل فى تحصين مدينة صيـــدا ذهبت إلى قداسه فى البكور ، فطلب إلىّ أن أنتظره حيث إنه يريد الركوب للنزهة ففعلت ما طلبه ، حتى إذا أصبحنا فى الخلاء جئنا أمام كنيسة صغيرة،ورأينا ونحن على ظهور الجياد قسيساً يرتل القداس ، فأخبرنى الملك أن هذه الـكنيسة قد بنيت تعظيما للمعجزة التى تمت على يد الرب حين طرد الشيطان من جسد ابنة المرأة الأرمل ، ثم ذكر لى أننا نستطيع الذهاب لسماع القــداس الذى كان القديس قد بدأه ،إذا ما رغبت فى ذلك ، فقلت له إن هذا أمر يطيب لى عمله .

٥٨٩ — فلما جاء وقت إعطاء « الســـلام » أبصرت القس الذى كان يساعد فى ترتيل القداس،وكان ضخم الجثة أسود البشرة هزيلا خشن الشعر،فخفت أن يطبق «السلام» على الملك فيبرهن على أنه حشاش ووغد زنيم فيقتل الملك، ومن ثم فقد ذهبت وأخذت « السلام » من القس وأحضرته للملك؛ فلما فرغ ترتيل القداس وعدنا إلى ظهور جيادنا وجــدنا القاصد الرسولى فى الحقول ، فذهب الملك إليه ونادانى وقال للقاصد « إننى أشـكو إليك الصنجيل الذى أحضر لى «السلام » ولم يمكن القس الفقير من إحضاره بنفسه إلىّ » .

٥٩٠ — فأخبرت القاصــد الرسولى بالسبب الذى حمانى على ذلك فقال نيافته إننى أحسنت صنعا فقال الملك « الحق أقول : كلا ! » .

ثم قام جدال طويل بينهما هما الاثنان وبقيت أنا ساكتا .

ولقد قصصت عليك هذه القصة لتقف على مبلغ تواضع الملك العظيم .

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة حتى نهاية فقرة ٥٩٦ غير وارد فى نسخة جونز .

ولقد تكلم الإنجيل عن تلك المعجزة التى أجراها الرب على ابنة الأرملة ، حيث جاء فيه إن السيد — حين إنجازه تلك المعجزة — كان فى أرض صور وصيدا ، ولهذا فقد قلت إن المدينة التى أسميها بصور كانت تسمى Tri والمدينة التى أسميها صيدا كانت تعرف باسم Sydoine .

رسل صاحب طرابيزون ومقدم الملكة إلى صيدا

٥٩١ — بينما كان الملك يعمل فى تحصين صيدا وفد عليه سفراء من قبل أحد كبار سادة أعماق بلاد اليونان يسمى نفسه كومنين العظيم وهو صاحب طرابيزون ، وقدموا إلى الملك هـدية من الجوهرات المختلفة ، وكان من بين ما أحضروه إليه أقواس من أعواد خاصة وقد ثبتت نهايات سامير القلاووظ إلى الأقواس فإذا أطلقت المسامير كانت حادة جداً ، وكانت حسنة الصنعة جداً (١) .

٥٩٢ — طلب هؤلاء الرسل من الملك أن يبعث بأميرة من قصره ليتزوجها سيدهم ، فقال الملك إنه لم يجلب معه أية واحدة من بلاده ، وأشار عليهم بالتوجه إلى ابن عمه ، إمبراطور القسطنطينية ، وأن يسألوه زوجة لمولاهم تكون من أسرة الملك [لويس] وأسرة الإمبراطور ، وقد أشار الملك بذلك عسى أن يتم التحالف

---

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل على الصورة التالية :

" Li apporterent ars de cor, dont les coches entroient a vis dedans les ars; et quant on les sachoit hors, si trouvoit l'on que il estoient dehors mout bien tranchant et mout bien fait".

وقد أشار ويللى إلى غموض هذه العبارة فى نسخة أخرى من المخطوطة ، وأهملت ترجمتها نهائيا النسخة التى ترجم عنها جونز كما يستدل من الحاشية السابقة .

بين الامبراطور وبين [كومنين] هذا الرجل القوى الثرى ضد عدوه Vataes الذى كان إذ ذاك إمبراطور الإغريق .

٥٩٣ ــ وصلت إلى صيدا بطريق البحر الملكة التى كانت قد نقهت أخيراً بعد أن ولدت فى يافا الليدى بلانش، فلما سمعت نبأ قدومها قمتُ من أمام الملك وذهبت لمقابلتها وقُدتها إلى القلعة .

٥٩٤ ــ فلما عدت إلى الملك الذى كان فى كنيسته سألنى عما إذا كانت الملكة وأطفاله فى صحة جيدة فأجبته أى نعم، فقال « عرفت ــ حين قمت من أمامى ــ أنك ماض لمقابلة الملكة ، لذلك أمرت بتأخير الموعظة حتى تحضر » .

ولقد أخبرتك بكل هذه الأشياء لأنه كان قد مضى لى معه حتى ذلك الحين خمس سنوات لم يتكلم خلالها معى أو مع غيرى ــ كما علمت ــ عن الملكة وأطفاله ، ولذلك يظهر لى إنه لم يكن من اللائق أن يبدو المرء كالغريب تجاه زوجته وأطفاله .

* * *

أبناء الفارس الفقير الأربعة

٥٩٥ ــ وفى يوم عيد جميع القديسين [١] دعوت جميع كبار رجال المعسكر إلى بيتى المجاور للبحر، وحدث فى أثناء تناولنا الطعام أن قدم على ظهر إحدى السفن فارس فقير مستصحباً معه زوجته وأبناءهما الأربعة ، فأمرت بإطعامهم فى بيتى حتى إذا فرغنا من تناول الطعام دعوت جميع من كانوا به

---

(٢) وذلك يوم أول نوفمبر ١٢٥٣ .

من وجوه الرجال وقلت لهم « هيا بنا نزكى زكاة جليلة ، فنمد يد الغوث إلى هذا الرجل الفقير فى أولاده الأربعة ، فيأخذ كل واحد منا واحدا وآخذ انا رابعهم » . فراحوا يتشاجرون فيما بينهم على أخـذ أبنائه ، فلما رأى الفارس الفقير ماجرى بكى هو وزوجته فرحاً .

٥٩٦ — وحدث أن كان كونت «أو» عائداً بعد تناول الطعام فى معسكر الملك فرأى الرجال العظام الذين كانوا فى خيمى ، فأخذا الطفل البالغ من العمر اثنى عشر ربيعاً ، فأحسن الطفل خدمة الـكونت وأخلص له ، حتى إننا بعد عودتنا إلى فرنسا رأى الـكونت أن يزوجه وينصبه فارساً .

وما من مرة حضرت مجلس الـكونت إلا ولازمنى هذا الفارس ، وأبى أن يتركنى قائلا : مولاى أثابك الله على صنيعك الذى فعلته معى، لأننى مدين لك بما أنا فيه الآن من نعمة » .

أما أشقاؤه الثلاثة الآخرون فلست أعرف عنهم شيئاً .

• • •

حج جوانفيل

٥٩٧ — سألت الملك ذات يوم أن يأذن لى فى القيام بالحج إلى مقام سيدتنا سيدة طرطوشة ، وهو مكان فسيح جداً للحج ، إذ أنه البقعة التى أقيم فيها أول مذبح على وجه البسيطة إجلالا لأم الرب ، وقد أظهرت سيدتنا كثيراً من المعجزات ، منها أنه كان يوجد رجل مخبول قد سكن الشيطان جسده ، وبينما كان أصدقاؤه الذين جاءوا به إلى هذا المقام يصلون لأم الرب التماساً لمعافاته ردّ عليهم « العدو » الـكامن فى جسده قائلا : « ليست سيدتنا هنا ، لـكنها فى مصر

تمد العون إلى ملك فرنسا وإلى النصارى الذين سينزلون إلى البر اليوم وهم مشاة ضد الأعداء الذين يمتطون صهوات النيل .

٥٩٨ — انقضى هذا اليوم وهم يدوّنون ما سمعوا ، فلما فرغوا من الكتابة جاءوا بها إلى القاصد الرسولى الذى روى لى هـذه القصة بلسانه هو ذاته ، ولتكن واثقاً من أن سيدتنا قد ساعدتنا فى ذلك اليوم بالذات، وكان لها أن تدأب على مساعدتنا لولا أننا أغضبناها هى وابنها كما رويت لك من قبل .

٥٩٩ — أذن لى الملك أن أذهب وطلب إلىّ شراء مائة قطعة من العبك مختلف ألوانها لتوزيعها على الرهبان الفرنسيسكان عند عودته إلى فرنسا ، فارتاح قلبى إذ ذاك لأننى أدركت أنه لن يبقى فيما وراء البحار مدة أطول مما قضاها .

ولما جئنا إلى طرابلس سألنى فرسانى عما انتوى عمله بالعبك الصوفى والتمسوا منّى أن أقصّ عليهم خبره فقلت لهم « ربما جئت به للكسب[1] » .

٦٠٠ — وتلقانا أمير طرابلس — رحمة الله عليه — فى فرح عظيم ، وبذل كل مافى طاقته للاحتفاء بنا ، ولو قبلت أنا وفرنسانى ما أراد أن يصلنا به لكان ما أخذناه من الهدايا شيئاً ضخماً عظيما ، ولكننا لم نأخذ غير بعض مالديه من الآثار المقدسة التى أحضرتها إلى الملك مع العبك الذى اشتريته له .

٦٠١ — أضف إلى ذلك أننى أرسلت إلى سيدتى الملكة أربع قطع من العبك، وكان الفارس الذى قدّمه إليها قد لفها فى قماش أبيض ، فلما شاهدته

---

(١) فى الأصل « ربما كنت قد سرقته للكسب » ولكننى آثرت ترجمة ماجاء فى رواية جونز ، ص ٥٠٢ .

الملكة داخلا عليها فى حجرتها ركعت أمامه فركع هو الآخر أمامها أيضاً ثم قالت له : « قم أيها الفارس فما ينبغى لك أن تركع وأنت تحمل الآثار المقدسة » فأجابها الفارس « سيدتى ، ليست هذه آثاراً مقدسة ولكنها قطع من العبك الصوفى بعثها سيدى اللورد إليك » ، فلما سمعت الملكة ووصيفاتها ماقال انفجرن ضاحكات ، وقالت الملكة للفارس « قل لسيدك إننى أتمنى له يوماً منكوداً مادام قد حملنى على الركوع أمام عبكه » .

٦٠٢ — وبينما كان الملك مقيما فى صيدا جاءه أحدهم[1] بحجر قد تكسر فى ندف صغيرة وهو أعجب حجر فى العالم بأجمعه ، فإذا أنت قشرت واحدة من هذه الندف وجدت بين الحجرين شكل سمكة بحرية ، والسمكة من الحجر ، ولا ينقصها شىء من عين أو عظم أو لون لتكون شيئاً آخر غير سمكة حية ، فأعطانى الملك واحداً من هذه الأحجار وجدت فيه سمكة بنية اللون على شكل سمكة الشبوط .

موت بلانش وقسوتها على مرجريت

٦٠٣ — تلقى الملك نعى أمه وهو فى صيدا فبكاها بكاءاً حاراً ، حتى لقد ظل يومين متتالين لم يجرؤ خلالهما أحد على محادثته ، ثم أرسل بعدهما أحد خدمه الخصوصيين لاستدعائى ، فلما مثلت أمامه فى غرفته حيث كان وحيداً مدّ إلىّ ذراعيه وقال : أفٍ يا سنكال ، لقد ماتت أمى » .

(١) على الرغم من خلو نسخة جوانز من هـذه القصة إلا أن المترجم أورد فى حاشية ص ٥٠٣ — نقلا عن نسخة يونانية — أن الذى جاء بهذا الحجر « أحد كبار الشخصيات فى مصر » .

٦٠٤ ــ فأجبته : مولاى ، لست أعجب من ذلك الحدث فما هى إلا مخلوق لابد لها من أن تموت ، ولكن عجبى منك أنت ــ وأنت الرجل الحكيم ــ إذ أكثرتَ من الحزن إكثاراً عظيما، لأنك تعرف ماقاله الحكيم : مهما يكن الحزن الذى فى قلب الرجل فلا ينبغى أن يظهر شىء منه على وجهه ، لأن الرجل الذى يبدى حزنه يُدخِل المسرة على قلوب أعدائه ويُحزن أصدقاءه ».

ثم بعث الملك إلى مختلف البلاد آمراً بتوزيع الهبات على روح الملكة ، كما أرسل بعدئذ صندوقاً مملوءاً بالرسائل إلى الكنائس فى فرنسا لإقامة الصلاة من أجلها .

٦٠٥ ــ وقد جاءتنى سيدتى مارى دى ڤِرْتس ــ وهى سيدة فاضلة جداً وامرأة قديسة ــ قائلة لى إن الملكة لا تكف عن النحيب الكثير ، وسألتنى أن أذهب إليها لمواساتها ، فلما صرتُ بحضرتها وجدتها مستغرقة فى البكاء فقلت لها « ما أصدق القائل إنه لايجوز لأحد ما أن يثق بالنساء ، لأن التى ماتت هى المرأة التى كنت تكرهينها أشد كراهية ، ومع ذلك فأنت تبدين عليها الآن أعمق الحزن » ، فذكرت لي أن بكاءها لم يكن على الملكة ولكن بسبب مافيه الملك من لوعة وغمة ، وبسبب ابنتها التى صارت فيما بعد ملكة نفارة والتى ستئوول رعايتها إلى الرجال .

٦٠٦ ــ كانت القسوة التى عاملت الملكة بلانش بها الملكة مرجريت شديدة للغاية ، حتى إنها لم تكن تطيق أن ترى ابنها فى صحبة زوجته ، ولم تكن تسمح له بالذهاب إلى جناحها إلا إذا تأخر الوقت ليلا وحان وقت نومهما ، وكان الملك والملكة يؤثران الإقامة فى قصر Pontoise على الإقامة فى باقى القصور

وذلك لوقوع حجرة الملك بالطابق الأعلى، على حين يقع مخدع الملكة في الطابق الأسفل .

٦٠٧ — كان الملك والملكة قد نظما الأمور فيما بينهما على أن يأخذا في محادثة بعضهما البعض وهما واقفان في سلم دائرى يصل بين الحجرتين ، كما رتبا ـ زيادة على ذلك ـ جماعة من الحجاب إذا رأو الملكة بلانش قادمة إلى حجرة ابنها ضربوا الأبواب بعصيهم ، وإذ ذاك يهرع الملك إلى حجرته ، حتى إذ جاءت الملكة الأم وجدت ابنها في غرفته .

وكان حجاب حجرة الملكة مرجريت يفعلون نفس الشيء حين تأتى الملكة بلانش إلى حجرتها فتجدها فيها[1] .

٦٠٨ — وحدث ذات مرة أن كان الملك إلى جوار زوجته الملكة التى خيف عليها من الموت من جراء مرض أصابها إثر وضعها أحد أطفالها ، فجاءت الملكة بلانش وسحبت ابنها الملك من يده وقالت له : « إخرج من هنا فما لك من عمل تؤديه هنا » ، فلما رأت الملكة مرجريت أن الأم بلانش تقوده إلى الخارج صاحت باكية « ياللجحيم الذى أنا فيه حيث لا تمكنينى من رؤية زوجى : حية كنت أم على وشك الموت » . ثم أغمى عليها وظنوا أنها ماتت، فعاد إليها الملك وقد حسب أنها فارقت الروح وأعادوها إلى وعيها بعد جهد جهيد .

---

(١) جاءت هذه القصة فى نسخة ترجمة جونز (ص ٥٠٤) على الصورة التالية : إنه حدث فى ذات يوم أثناء إقامتهم فى قصر Pontoise أن كان الملك مقيما فى الطابق الذى يعلو جناح زوجته الملكة، وكان الملك قد أمر بطانته إذا رأوا أمه الملكة قادمة وكان هو راقداً مع زوجته أن يضربوا الكلاب حتى يعلو نباحها ، فإذا سمع الملك نباحها بادر إلى إخفاء نفسه عن أمه الملكة » .

٦٠٩ — حين تم تحصين مدينة صيدا من كل نواحيها تقريباً أمر الملك بإقامة عدة مواكب فى المعسكر ، ولما فرغ القوم منها أمر القاصد الرسولى بإقامة الصلوات كى يفيض الرب عليه فضله وليستخيره ليرى الخيرة : فى عودته إلى فرنسا أم فى إقامته حيث هو .

٦١٠ — فلما فرغ القوم من المواكب بعث إلىّ الملك وكنت جالساً مع وجوه أعيان البلد ، وسار بى إلى أحد المروج حتى إذا صاروا ورأنى قال لى القاصد الرسولى : «ياسنكال ، إن الملك راضٍ عن خدماتك كل الرضاء ، وإنه مستعد أن يوفر لك الثروة والشرف ؛ ورغبة منه فى أن يطمئن خاطرك فقد رغب إلى أن أخبرك أنه قرر الذهاب إلى فرنسا فى عيد الفصح[1] القادم » فأجبته « الله يهبه القدرة على تنفيذ إرادته » .

٦١١ — ثم نهض القاصد الرسولى وطلب إلىّ أن أصحبه إلى مخيمه، فلبيت طلبه وأخذنى إلى حجرته الخاصة ـ نحن الاثنين فحسب ـ وأخذ يدى بين يديه واستخرط فى البكاء الشديد ، حتى إذا هدأت نفسه وطاوعته القدرة على الكلام قال لى : « يا سنكال ، إننى شديد الابتهاج ، وإننى أشكر الرب على أنك والملك وبقية الحجاج تتخلصون من الخطر العظيم الذى كنتم فيه طوال مدة مكثكم فى هذه البلاد، وإن الحزن ليرمضنى رمضا أن سأحرم من صحبتكم الطاهرة ، وأننى سأذهب إلى بلاط رومة بين من فيها من القوم الخونة » .

٦١٢ — ثم قال « لكنى سوف أخبرك ما أظن أننى فاعله ، ذلك أننى

---

(١) يعنى بذلك عيد فصح ١٢٥٤ م .

أرى الأجدى أن أبقى هنا عاماً بعد رحيلكم ، وأن أصرف كل ما معى فى تحصين ضواحى عكا ، وبذلك أريهم بوضوح لا إبهام فيه أننى لم أرجع إليهم بشىء من المال ، وأن يدىّ خاويتا الوفاض ، لأن القوم هناك لا يلاحقون من تربت يداه » .

٦١٣ — وحدث[1] ذات مرة أن أخبرت القاصد الرسولى بخبر خطيئتين قصهما علىّ أحد قسسى حيث قال لى « لم يتسن لأحد أن يبلغ ما بلغته من معرفة كل المعاصى المهلكة التى ارتكبها القوم فى عكا ، مما سينتقم له الرب انتقاما يطهّر به المدينة بغسلها فى دم سكانها ، وسوف يأتى قوم آخرون بعدهم يسكنونها » .

وقد شاءت القدرة أن يتحقق جزء من نبوءة هذا الرجل المبارك ، لأن المدينة قد غسلت فى دماء سكانها[2] ، ولكن لم يأت بعد القوم الآخرون الذين يحلون مكانهم ، وحين يأتون نرجو أن يقدر الرب لهم أن يكونوا مستقيمين وأن يحكموا أنفسهم وفق مشيئة الرب .

. . .

جوانفيل والملكة

إبحار الملك

٦١٤ — بعد حدوث هذه الأشياء بعث الملك فى طلبى آمراً إياى بتسليح نفسى أنا وفرسانى ، فسألته عن السبب فأنبأنى أننى ماضٍ لمرافقة الملكة

(١) هذه الفقرة بأكملها غير واردة فى النسخ الأخرى من المذكرات .

(٢) يشير إلى احتلال المسلمين إياها عام ١٢٩١ .

وأبنائهما إلى صور التى تبعد عنا مسافة تقرب من تسعة مراحل، فلم أعقب على ما قال بكلمة واحدة ، ومع ذلك فإن طلبه كان محفوفا بالخطر لعدم وجود هدنة أو صلح إذ ذاك بيننا وبين مصر أو دمشق ، ولكن الشكر لله إذ وصلنا جميعاً ليلا سالمين إلى صور دون أى عائق، رغم أننا اضطررنا للترجل والتوقف مرتين فى أرض عدونا،حيث أوقدنا النار لطهى طعام الصغار وإرضاعهم .

٦١٥ ـ ولما رحل الملك عن مدينة صيدا التى حصنها بالأسوار العظيمة والأبراج القوية والخنادق المنيعة من الداخل والخارج جاءه البطرك والبارونات .

٦١٦ ـ فلما جاءوا إليه قالوا له : « مولانا لقد حصنت مدينتى صيدا وقيسارية وضاحية يافا مما يعود بأكبر نفع على الأراضى المقدسة ، كما قويت مدينة عكا بما شيدته حولها من الأسوار وأقمته فيها من الأبراج ، وقد تباحثنا الوضع فيما بيننا يامولانا،فوجدنا ألا نفع لمملكة بيت المقدس يرتجى من طول إقامتك هنا بعد ، ومن ثم جئنا ناصحين لك مشيرين عليك أن تنهض إلى عكا فى فترة الصوم الكبير القادم، وأن تعد العدة لسفرك حتى تكون قادراً على الرجوع إلى فرنسا بعد حلول عيد الفصح » .

فنزل الملك عند رأى البطرك والبارونات ، ورحل عن صيدا وقدم إلى صور حيث كانت الملكة فى انتظاره، ثم رحل الجميع من هناك إلى عكا فى مستهل أيام الصوم الكبير[1] .

٦١٧ ـ وفى أثناء هذا الصوم أمر الملك بتهيئة مراكبه للعودة إلى فرنسا

(١) بدأ الصوم الكبير لسنة ١٢٥٤ يوم ٢٥ فبراير .

وكان عنده منها ثلاث عشرة ما بين شيني وغراب ، فأعدت جميعها حتى استطاع الملك والملكة ركوبها ليلة عيد القديس مرقص بعد عيد الفصح[1]، وواتتنا الريح طيبة فى رحيلنا .

وقد أخبرنى الملك فى يوم عيد القديس مرقص أنه ولد فى مثل هذا اليوم ، فأنبأته أنه من الآن فصاعداً يستطيع أن يقول إنه ولد مرة أخرى فى هذا اليوم ، إذ لا جدال فى أنه ولد ثانية يوم استطاع النجاة من هذه البلاد الخطرة .

جنوح باخرة الملك

٦١٨ ـ فلما كان يوم السبت أصبحنا على مرآى من جزيرة قبرص ومن جبل فيها قريب من الساحل يدعونه جبل الصليب ، وغامت سماؤها فى هذا اليوم ، فقد لفها ضباب كثيف ما لبث أن زحف من اليابسة إلى البحر فاستحالت معه الرؤيا ، حتى لقد ظنّ بحارتنا أننا بعدنا عن جزيرة قبرص أكثر مما كنا ، فتقدموا مبحرين غير حذرين ، حتى اصطدم مركبنا بسلسلة من الصخور الرملية غارقة فى المياه[2] ، ولو لم يصطدم بهذا الشاطئ الرملى لكان اصطدامنا أشد بمجموعة الصخور الكبيرة الغارقة التى كان لا بد لسفينتنا إذ ذاك من أن تتحطم عليها فنصبح كلنا غرقى هالكين .

٦١٩ ـ لم تكد سفينتنا تصاب حتى تعالت صرخات من بها وضجوا صائحين « وامصيبتاه ! » ، وعصر ركابها وملاحوها أكفهم خوف الغرق ، فلما سمعت بما جرى نهضت من فراشى وذهبت مع البحارة إلى برج السفينة ،

---

(١) كان ذلك يوم ٢٤ أبريل ١٢٥٤ .

(٢) راجع الفقرات ١٣، ١٦، ٣٩ .

فسمعت الأخ ريموند – وكان من فرسان الداوية وكبير الملاحين – يقول لواحد من خدمه «ارم الرصاص»، ففعل الخادم ما أمره به ريموند، وما كاد يرميه حتى صاح « وا أسفاه لقد اصطدمنا بالقاع » ، فلما طرق هـذا الصياح سمع الأخ ريموند شد ملابسه إلى حزامه وجذب لحيته وشرع يصيح « وا حزنى ، وا مصيبتى ! » .

٦٢٠ – وعند ذلك قام أحد فرسانى واسمه جون دى مونسون – وهو والد وليم رئيس أساقفة دير القديس ميخائيل – وعطف علىّ عطفاً شديداً إذ أحضر لى – دون أن ينبس ببنت شفة – معطفا مخططا من معاطفى، وألقاه على ظهرى حين أبصر أنه ليس علىّ من الثياب سوى قميص ، فرنفت به قائلا « وما جدواى بمعطفك الذى جئتنى به ونحن غارقون ؟» فقال لى « والذى نفسى بيده ، إننى أوثر ياسيدى أن أرانا كلنا غرقى من أن أراك مريضا من جراء البرد الذى يؤدى بك إلى الموت » .

٦٢١ – وصاح البحارة : « هيه ، أيتها الأغربة ، تعالى وخذى الملك ! » لـكن لم يقترب منا قط واحد من أغربة الملك الأربعة التى كانت موجودة هناك ، وحسناً فعلوا وإلا لتسابق إلى الوثوب عليها التماساً للنجاة ثمانمائة شخص كانوا على ظهر مركبنا، مما كان يؤدى إلى غرق الأغربة.

٦٢٢ – على أن الخادم الذى كان بيده الرصاص ألقاه مرة ثانية ، ثم عاد إلى الأخ ريموند مخبراً إياه أن السفينة لم تجنح إلى القاع ، فمضى الأخ ريموند مفضياً بهذا النبأ إلى الملك الذى كان متمددا على هيئة الصليب على ظهر السفينة حافى القدمين وليس عليه سوى قميصه ، وهو أشعث الشعر وقد رقد أمام تمثال سيدنا الذى كان على السفينة رقدة من يعتقد أنه لا محالة غارق .

لم يكد يتباج نور الصباح حتى أبصرنا الصخرة التى كان لا بد لنا من الاصطدام بها لو لم تجنح السفينة إلى هذا الرمل .

الملك يرفض مغادرة سفينته

٦٢٣ — وفى الصباح بعث الملك فى طلب كبار بحارة السفن الذين أرسلوا أربعة من الغواصين إلى قاع البحر ، فلما عادوا من مهمتهم استقدمهم الملك وكبار الملاحين واحداً بعد واحد مستمعين إلى كل منهم على حدة ، فلم يتسن لأحدهم معرفة ما قاله الآخرون ، وعلى أية حال فقد علم السائلون من الغواصين الأربعة أنه فى أثناء احتكاك سفينتنا بالرمل خلع الرمل أربعة وعشرين قدما من المعونة التى بنيت عليها المركب .

٦٢٤— حينذاك نادى الملك كبار الملاحين أمامنا وسألهم عما يشيرون به إزاء الصدمة التى أصابت السفينة ، فتشاوروا فيما بينهم ثم نصحوا الملك بمغادرة سفينته والركوب فى سفينة أخرى .

٦٢٥ — ثم قالوا له « إننا ننصحك بهذا لأننا متأكدون كل التأكيد من تفكك جميع ما بسفينتك من الألواح الخشبية ، ونحن فى شك من أن سفينتك — حين تخرج إلى عرض البحر — ستكون قادرة على مقاومة ضربات الأمواج دون أن تتفتت شذرمذر ، لأنه حدث أثناء قدومك من فرنسا — أن أصيبت إحدى السفن بمثل ما أصيبت به هذه ، فلما صارت فى عرض البحر لم تصمد أمام موجه ، فتحطمت وهلك كل من بها — وهم كثر — غير امرأة وطفلها كتبت لها الحياة على رمث من الخشب » .

وأستطيع أن أشهد على صحة هذا القول ، فقد رأيت المرأة ورضيعها فى مدينة « ألباف » ، فى معسكر كونت جوانى الذى آواها محبة فى الله .

٦٢٦ ـــ ثم التفت الملك بعدئذ إلى السادة بطرس كاتم السر وچيل لى برون كونستابل فرنسا وچرڤيه ديسكرين كبير طبّاخى الملك وإلى حامل أختامه ورئيس شمامسة نيقوسيا الذى صار فيما بعد كردينالا، كما التفت إلىّ أيضاً سائلا إيانا جميعا أن نشير عليه بما نراه بشأن ما جرى، فأجبناه إنه يجب على المرء ـ فيما يتعلق بالأمور الدنيوية ـ أن يقتصر ويأخذ بما يراه أكثر الناس تمرساً بها ، وقلنا له « وعلى ذلك فإننا نشير عليك ـ من ناحيتنا ـ أن تنزل على نصيحة بحارتك لك » .

٦٢٧ ـــ وإذ ذاك قال الملك للبحارة « أستحلفكم بشرفكم أن تصدقونى القول ، هل كان لكم أن تتركوا السفينة إذا كانت ملكا لكم وكانت محملة ببضائعكم ؟ »

فأجابوه بالنفى، إذ كان أهون على نفوسهم أن يعرضوا ذواتهم لخطر الموت غرقاً من أن يشتروا سفينة جديدة بأربعة آلاف دينار أو تزيد . فسألهم « وإذن فلماذا تشيرون علىّ بمغادرتها ؟ » فقالوا له « لأن الشبه غير متكامل إذ لا يستطيع الذهب . والفضة أن يقاسا بشخصك أو أشخاص زوجتك وأطفالك الذين على ظهر السفينة ، ولذلك فإننا ننصحك ألا تعرضهم وإياك للهلاك » .

٦٢٨ ـــ وإذ ذاك قال الملك لهم « أيها السادة ، لقد سمعت ما قلتموه وما قاله رجالى ، والآن فإنى مفضٍ إليكم برأيى ، ألا وهو أننى إذا تركت السفينة فإن من بها ـــ وهم خمسمائة فرد أو يزيدون ـــ سوف يبقون فى جزيرة قبرص خوفاً على أنفسهم ، إذ لا يوجد من لا يحب ذاته حتى لذاتى أنا ، وإذ ذاك لن يعود هؤلاء بعد هذا الخطر قط إلى بلادهم ، لذلك فإننى أفضل

أن أضع نفسى وزوجتى وأطفالى بين يدى الرب عن أن سبب ضرراً للكثيرين الذين معنا هنا » .

٦٢٩ — ويمكن للمرء الوقوف على الضرر الكبير الذى كان لا بد للملك أن يلحقه بمن فى سفينته مما حدث لأوليفر دى ثيرم الذى كان فى سفينة الملك ، فقد كان أوليفر هذا أجرأ من وقعت عليه عيناى وبرهن على ذلك إبان وجوده فى الأرض المقدسة[1] ، لكن لم تواته الشجاعة على البقاء معنا خوف الغرق ، فأقام فى قبرص حيث عُوّق فلم يعد إلى الملك مدة عام ونصف عام ، ومع ذلك فقد كان رجلا بارزا ثريا قادراً على دفع تكاليف سفره من جيبه الخاص ، ولك أن تتدبر الآن ماذا كان يفعله من دونه ممن لا يملكون أجر سفرهم إذا كان أوليفر قد عُوّق وتأخر إلى هذا الحد .

عاصفة بقبرص

٦٣٠ — خرجنا سالمين من هذا الخطر الذى قدر لنا الرب النجاة منه لنقع فى خطر آخر ، لأن الريح التى دفعتنا إلى ساحل قبرص من قبل - حيث توقعنا الغرق - هبت ثانية عنيفة جامحة حتى لقد ردّتنا مرة أخرى إلى الجزيرة ، فرمى البحارة مراسيهم ضد الريح ، لكننا لم نستطع أبداً أن نوقف السفينة حتى رموا خمسة مراس ، ورأوا من الضرورى خلع جوانب حجرة الملك[2] ، ولم نجد أحداً واتته الجرأة على البقاء بها مخافة أن تقذف به الريح إلى عرض البحر ، ولكن كنت أنا وكونستابل فرنسا جيل لى برون راقدين فى حجرة الملك حين فتحت الملكة أبوابها ، حاسبة أنها واجدة زوجها بها .

٦٣١ — فسألتها عما تبحث فقالت إنها جاءت للتكلم مع الملك وسؤاله

---

(١) راجع الفقرات ٦١٦، ٥٧٨ — ٥٨١

(٢) هكذا وردت فى الأصل الفرنسى .

أن ينذر للرب ـ أو قديسيه ـ نذراً بالحج عسى أن يتحنن الله فينقذنا مما نحن فيه من خطر ، لأن البحارة قالوا إننا على وشك الغرق ، فقلت لها « سيدتى الملكة ، عِدِى بأن تحجى إلى هيكل سيدى القديس نيقولا دى ڤارا نجاڤيل ، وأنا الضامن لك بأن الرب سيعيدك أنت والملك وأطفالكما إلى فرنسا سالمين » .

فقالت لى : « يا صنجيل إننى على أتم أهبة لأفعل ذلك عن طيب خاطر ، ولكن الملك عجيب جداً ، لأنه لو عرف أننى قطعت مثل هذا العهد دون مشورته ، فلن يأذن لى أبداً بالذهاب » .

٦٣٢ — فقلت لها « إذن لا أقلّ من أن تعملى شيئاً واحداً هو أن تعدى — إذا أعادكم الرب سالمين إلى فرنسا — أن تقدمى لهيكل القديس سفينة من الفضة تقدّر بخمس ماركات عن الملك وعن نفسك وعن أطفالكما الثلاثة ، وأنا الكفيل لك بأن الرب مجيب رجاءك ، لأننى نذرت للقديس نيقولا — لو أنقذنا من الخطر الذى كنا فيه ليلة أمس ـ أن أحّج إليه ماشيا غير منتعل من جوانفيل إلى ڤارانجاڤيل » .

فقالت الملكة لى إنها تنذر أن تقدّم للقديس نيقولا سفينة من الفضة ثمنها خمسة ماركات ، وأن أكون أنا الشاهد عنده على ما تقول ، فأجبتها « سأفعل ذلك عن طيب خاطر » ، ومن ثم مضت عنى وبقيتُ فى الخارج فترة قصيرة عادت إلينا بعدها قائلة لنا « لقد أنقذنا القديس نيقولا فقد هدأت الريح » .

٦٣٣ — ولما عادت الملكة — رحمها الله إلى فرنسا — أمرت بصنع سفينة

من الفضة فى باريس وفيها تماثيل فضية لها وللملك وللصغار الثلاثة ، كما صنعت من الفضة تماثيل بحارتها وعلمها ودفتها وحبالها ، أما الأشرعة فقد خيطت جميعها بأسلاك من الفضة .

وقد أخبرتنى الملكة أن صنعها كلفها مائة جنيه ، فلما تم صنعها بعثت بها إلىَّ فى جوانفيل كى آمر بأخذها إلى القديس نقولا ، ففعلت ما أرادت .

وقد أبصرتها فيما بعد موجودة فى هيكله حينما ذهبنا إلى هاجينو فى صحبة أخت الملك [الحالى] حين زواجها من [ابن] ملك ألمانيا[1] .

• • •

الانتفاع من نقمة الرب

٦٣٤ — والآن لنعد إلى موضوعنا ونتابعه ، ذلك أنه بعد أن قيضت لنا النجاة من هذين الخطرين جلس الملك على حافة السفينة وأجلسنى عند قدميه وقال لى[2] : « ياسنسكال لقد أطلعنا الرب على عظيم بأسه ، حين بعث ريحاً تافهة ليست من الرياح الأربع الكبرى كادت أن تغرق ملك فرنسا وزوجته وأطفاله وجميع من فى صحبته ، وعلينا الآن أن نشكره على إنقاذه إيانا من الخطر الذى كان محدقاً بنا » .

٦٣٥ — ثم تابع كلامه قائلا « وإن البلايا التى تلمّ بالناس على هيئة

---

(١) يقصد بذلك ألبرت إمبراطور ألمانيا الذى تزوج ابنة رودلف فى عام ١٣٠٠ من بلانش أخت فيليب الجميل ، وقد مات سنة ١٣٠٥ .

(٢) راجع ٣٩ — ٤١

أمراض خطيرة وظلم كبير إن هى إلا تحذيرات لنا من مخلصنا كما يقول القديسون ، وإذا كان الرب يقول لمن نجوا من مرض خطير « انظروا كيف كنت قادراً على إماتتكم لو شئت ! » ، فهو يقول لنا الآن « انظروا كيف كنت قادراً على إغراقكم جميعاً لو شئت » .

٦٣٦ — « وإذن فعلينا أن ننظر فى أنفسنا ونتأمل إن كان فيها شىء يغضب الرب فنبرأ إليه منه ، لأننا لو فعلنا غير ذلك — بعد ما حذّرنا — فإنه سينكبنا بالموت أو ببلية أخرى كبيرة تؤدى إلى هلاك أجسامنا وأرواحنا »

٦٣٧ — ثم قال الملك « وإن القديس ليقول ياسنكال : أيها السيد الرب ، لماذا تهدّدنا ، إنك لو أهلكتنا جميعاً فلن تجد الفقراء ، ولو حفظتنا جميعاً لن تكون غنياً ، ويقول أحد القديسين أيضاً إن هذه التحذيرات التى يرينا إياها الرب ليست لصالحه ولا لإنقاذه من مضرة ، ولكنها نابعة من حبه الكبير لإيقاظنا ، عسانا نرى نقائصنا جلية ، ولكى تكون وسيلة لخلاصنا من كل ما يغضبه ، فلنفعل ذلك ، وبذلك نكون سلكنا سبيل السداد » .

جزيرة لا مبيدوسا

٦٣٨ — غادرنا جزيرة قبرص بعد أن تزوّدنا بالماء والذخيرة اللازمة لنا ، وظللنا مبحرين حتى أرست بنا السفينة عند جزيرة يدعونها لامبيدوسا حيث أخذنا كمية كبيرة من الأرانب ، ووجدنا صومعة نساك قديمة منحوتة فى الصخر ، ذات حديقة أنشأها رهبانها منذ القدم ، وهى حافلة بأشجار الزيتون والتين والكروم وسواها من المزروعات يجرى فى وسطها نبع ماء ، فدخلنا فى صحبة الملك وظللنا سائرين حتى بلغنا نهاية البستان ، فألفينا تحت أول قبو

من أقبيتها محراب خطابة قد طُلِيَ بالجير وصليبا من الآجر الأحمر .

٦٣٩ — فلما صرنا تحت القبو الثانى وجدنا جثتى رجلين ميتين ، وقد وضعت عظام الأيدى على الصدرين ، وكان الهيكلان راقدين متجهين إلى الشرق على نفس الطريقة التى يدفن بها الميت فى باطن الأرض .

فلما عدنا إلى سفينتنا تلمّسنا واحداً من بحارتنا فلم نقف له على أثر ، فأخذ قائد السفينة فى التفكير [فيمن يكون الغائب فأدركه تخمينا[1]] ، ورجّح أنه ربما تخلّف بالجزيرة للتنسك والعبادة ، وإذ ذاك ترك له نيقولادى سواسى — وكان كبير حرس الملك — ثلاث حقائب ملآى بالقسماط على الشاطىء ، ليجدها البحار إن عاد ويقتات عليها .

. . .

جزيرة قوصرة وغضب الملك

٦٤٠ — حين خرجنا من هناك أبصرنا جزيرة عظمى فى البحر اسمها قوصرة ويسكنها جماعة من المسلمين بعضهم من رعايا ملك صقلية[2] والبعض الآخر من رعايا ملك تونس ، فالتمست الملكة من الملك أن يبعث إلى الجزيرة بثلاثة أغربة لجلب الفاكهة للأطفال ، فاستجاب لها وأمر قوّاد الأغربة بالذهاب إلى الجزيرة ، على أن يلقوه حين مرور سفينته أمام الجزيرة ، فدخلت الأغربة ميناء صغيراً فى الجزيرة ، لكننا لم نقف على خبر لأغربتنا حين حاذى مركب الملك الميناء .

---

(١) الإضافة من جوانز ، ص ٥١١

(٢) هو كونراد الثانى حفيد الإمبراطور فردريك الثانى .

٦٤١ — وأخذ البحارة يتسارّون فيما بينهم وبين أنفسهم ويحمحمون دون إفصاح ، فأمر الملك باستدعائهم إليه وسألهم عما يظنونه قد حدث لأصحابهم ، فأجابوه أنهم يرجّحون وقوعهم أسرى هم والأغربة فى أيدى المسلمين ، ثم قالوا له « لكننا ننصحك ونشير عليك يامولانا ألا تنتظر عودتهم لأنك بين مملكة صقلية ومملكة تونس وكلتاهما كارهة لك ، وعلى ذلك فإذا أذنت لنا بالإبحار استطعنا إنقاذك من الخطر قبل أن يلف الظلام الكون فى طياته ، وسنجتاز هذا المضيق فى أقصر وقت » .

٦٤٢ — فقال الملك « ألحق أقول لكم إننى لن أستجيب نصيحتكم وأنزل على مشيئتكم فأترك رجالى فى أيدى المسلمين دون أن أقوم على الأقل ببذل قصارى جهدى لخلاصهم ، وإنى لآمركم أن تمضوا بسفنكم لمهاجمتهم » .

فلما سمعت الملكة بما جرى استخرطت فى العويل قائلة : « واأسفاه ، لقد كنت أنا السبب فيما حدث » .

٦٤٣ — وبينما كانوا يديرون قلاع سفينة الملك والسفن الأخرى رأينا الأغربة قادمة علينا من ناحية الجزيرة ، حتى إذا حاذت سفينة الملك سأل الملك ملاّحيها عما عوّقهم ، فذكروا أن الخطأ ليس خطأهم وإنما مردّه إلى أن ستة من أبناء أثرياء باريس ظلوا يأكلون مما فى البساتين من فاكهة ، ولم يستطع الملاحون إخراجهم منها أو تركهم بها .

وإذ ذاك أمر الملك بوضع أبناء الأثرياء الستة فى زورق مكشوف ملحق بالسفينة ، فأخذوا يُعولون ويصرخون قائلين « يامولانا ، خذ منا — لخاطر الله — كل مانملك فدية لأنفسنا ، ولكن لاتزج بنا حيث القتلة واللصوص ، لأن ذلك سيكون لنا سبة الدهر وعار الأبد » .

٦٤٤ — وبذلت الملكة وبذلنا نحن غاية الجهد لاستجلاب عطف الملك ولكنه لم يستجب لأحد منا ، ومن ثم ألقى بهؤلاء الستة فى مركب النقل ، وظلوا فى الزورق حتى بلغنا الساحل ، وكانوا فى خطر وحزن مقيم حين يضطرب البحر وتعلو الأمواج فتلطم رءوسهم وتعلوها ، فيضطرون إذ ذاك للجلوس حتى تقذف الأمواج بهم إلى البحر ، وكان هذا العقاب رادعاً لهم لأن بِطْنَتَهم سببت لنا شراً فقد تأخرنا مدة ثمانية أيام ، ولأن الملك كان قد أمر السفن بالعودة للبحث عنهم [1] .

النار فى مخدع الملكة

٦٤٥ — جرت [2] لنا حادثة أخرى ونحن مازلنا بالبحر قبل وصولنا إلى اليابسة ، ذلك إن إحدى وصيفات الملكة لم تكترث حين وضعت الملكة فى فراشها ، إذ أخذت العصابة التى كانت تعقدها حول رأسها وقذفت بها إلى الموقد الحديدى الذى كانت شمعة الملكة مضاءة عليه ، ثم ذهبت هذه الوصيفة لتنام حيث تنام بقية النسوة فى حجرة تحت مخدع الملكة ، فاحترقت الشمعة حتى بلغت العصابة ، فأمسكت بها النار ثم انتقلت منها إلى الأقمشة التى كانت الملكة تغطى بها ثيابها .

---

(١) ورد فى نسخة جونز (ص ٥١٢) العبارات التالية التى يرجح أنها ليست من قلم جوانفيل وهذه ترجمتها «وهذه الجزيرة المسماة هنا Pantaleone هى التى يسميها الجغرافيون Pantalacea وتقع بين جزيرة صقلية وإفريقية على مقربة من سوسة وهى مدينة فى مملكة تونس ، وتتبع ملك أسبانيا وتخضع لنائب صقلية ، وعلى الرغم من أن سكانها من المسيحيين الكاثوليك إلا أنهم يلبسون لباس المسلمين ويتكلمون لغتهم » .

(٢) الفقرات من ٦٤٥ — ٦٤٩ غير واردة فى نسخة جونز .

٦٤٦ — فلما استيقظت الملكة رأت مخدعها كله مشتعلا ، فوثبت من فراشها عارية من كل شيء ، وتناولت العصابة وهي مشتعلة وقذفت بها إلى البحر ، كما أخذت القماش وأطفأته ، فصاح من كانوا في مركب النقل بالمؤخرة ، ولكن في صوت منخفض « النار ، النار » .

فرفعت رأسي وأبصرت عصابة الرأس مازالت مشتعلة بلهب جلي في البحر الذي كان شديد الهدوء ، فوضعت قميصي علىّ بأسرع ما يمكن ، وذهبت إلى البحارة وجلست معهم .

٦٤٧ — وبينما كنت جالساً معهم جاءني تابعي — وكان قد نام قبلي — وقال إن الملك قد استيقظ وسأل عني ، ثم قال لي تابعي « ولقد أخبرت الملك أنك في غرفتك فكذّبني » ، وبينما نحن نتكلم أبصرت قسيس الملكة جوفري قادما علينا فقال لي : « لا تنزعج فلم يحدث أي شيء » ، فقلت له «ياسيد جوفري إذهب إلى الملكة وقل لها إن الملك يقظان ، وعليها أن تمضي إليه ليطمئن باله » .

٦٤٨ — فلما كان اليوم التالي قدم كونستابل فرنسا وبطرس كاتم السر والسيد جرفيه رئيس مطعمه وقالوا للملك « ما الذي حدث في الليل ؟ فقد سمعنا كلمة النار » فلم أنبس ببنت شفة ، وحينذاك قال الملك « إن ماحدث كان عن سوء الطالع ، ولعلّ السنكال أكتم للأمر مني ، ولكنني سأخبركم كيف أننا جميعاً كدنا أن نحترق الليلة الماضية » .

٦٤٩ — ثم قص عليهم ماجرى ، وقال لي « آمرك ألاّ تذهب من الآن فصاعداً للنوم حتى تطفيء جميع النيران إلاّ النار الكبيرة الموجودة في آلة

السفينة ، واعلم أنني لن أذهب للنوم حتى تجيئني أنت » ، فدأبْتُ على مراعاة ذلك طيلة وجودنا بالبحر .

وكان الملك لا ينقلب إلى مخدعه إلا إذا ذهبت إليه .

. . .

معجزة لمريم العذراء

٦٥٠ — جرت لنا حادثة أخرى بالبحر ، ذلك أن السيّد دْرّاجونيه — من وجوه منطقة بروفنس — كان نائماً ذات صباح فى سفينته التى كانت تسبق سفينتنا بمسافة تقرب من فرسخ ، ثم استيقظ ونادى أحد أتباعه وقال له : « اذهب وسدّ هذا الثقب المفتوح ، لأن أشعة الشمس تنفذ منه فتضربنى فى وجهى » ، فرأى الخادم استحالة ذلك عليه إلا إذا كان خارج السفينة ، فلما همّ بالخروج لسدّ هذا الثقب المفتوح زلّت قدمه وسقط فى الماء ، ولم يكن بالسفينة — لصغرها — قارب نجاة ، ومن ثم خلّفته وراءها بمرحلة طويلة ، ولكن تسنّى لنا نحن الذين على مركب الملك أن نراه وهو يسقط فى الماء ، فحسبناه حزمة أو برميلا ، لأنه حين سقط فى الماء لم يبذل أية محاولة لإنقاذ نفسه .

٦٥١ — غير أن أحد أغربة الملك التقطه وأحضره إلى سفينتنا حيث أخبرنا كيف جرى الأمر ، فسألته متعجباً كيف لم يخطر بباله إنقاذ نفسه سباحة أو بأية وسيلة أخرى ، فأجاب أنْ لم يكن ثم داع أو حاجة لذلك ، لأنه ما كاد يسقط حتى أسلم نفسه لسيدتنا سيدة Vauvert فأمسكته من ذراعيه منذ اللحظة التى سقط فيها حتى التقطه غراب الملك ، وإجلالاً لهذه المعجزة أمرتُ بتصويرها فى كنيستى بجوانفيل وفى النوافذ الزجاجية فى بليكورت .

. . . .

٦٥٢ — بعد ستة أسابيع قضيناها فى البحر بلغنا ميناءً يبعد مسافة فرسخين من قلعة يسمّونها قلعــة Hyéres تابعة لـكونت بروفنس الذى صار فيما بعد ملك صقلية ، واتفق رأى الملكة وجميع أعضاء مجلس المشورة على أن ينزل الملك هنا لأن الأرض تابعة لأخيه ، فقال الملك إنه لن يغادر سفينته حتى نبلغ إيجمورت التى كانت بيده هو ذاته ، وتمسّك الملك بهذه الفـكرة ضدّنا كل التمسك يومى الأربعاء والخميس ، ولم نستطع صرفه عما تمسك به .

٦٥٣ — وكان فى السفن المرسيلية سكانان يتصلان بذراعى دفة فى هيئة عجيبة ، حتى إنك لتستطيعُ أن تدير السفينة يميناً أو يساراً بالسهولة التى تدير بها حصاناً . وكان الملك جالساً يوم الجمعة على أحد هذين الذراعين فنادانى إليــه وقال : « يا سنـكال : ما ظنك بهذا الموضوع [أنرسو أم نقلع] ؟ » فأجبته « يا مولاى ، ربمـا كان من الصواب إذا كان قد بدا لك ما بدا لسيدتى دى بوربون من عدم النزول فى هذا الميناء ، بل ترى أن نبحر ثانية حتى نصل إلى إيجمورت وننتظر فى البحر مدة سبعة أسابيع » .

٦٥٤ — ثم دعا الملك إليه جميع رجال مجلس مشورته وأخبرهم بمـا قلته وسألهم رأيهم ، فانعقد إجماعهم على وجوب رسوّه فى الحال ، لأنه لن يـكون من الحـكمة أن يعرّض نفسه وزوجه وأطفاله مرة ثانية للخطر فى البحر بعد أن قدرت لهم النجاة منه ؛ فاستجاب الملك للنصيحة التى أسديتها إليه ، وسُرّت الملـكة غاية السرور .

• • • •

٦٥٥ ـــ نزل الملك وزوجته وأطفاله فى قلعة هيرس ، وفى أثناء إقامته بها انتظاراً للحصول على جياد يأخذها إلى فرنسا جاءه رئيس دير كلونى الذى صار فيما بعد أسقف أوليفار بمُهْرين يساويان اليوم مبلغاً لا يقل عن خمسمائة دينار ، قدّم أحدهما هدية للملك والآخر للملكة وهو يقول: « مولاى ، سآتيك فى الغد للتحدث معك فى بعض شئونى » .

فلما كان الغد عاد رئيس الدير فاستمع إليه الملك فى أناة وصبر طويلين ، فلما انصرف رئيس الدير من حضرته جئته وقلت له : « أحبّ أن أسألك ـــ إن أذِنْتَ لى ـــ عما إذا كنت أصغيت لرئيس دير كلونى من أجل هذين الجوادين اللذين أهداهما إليك بالأمس » .

٦٥٦ ـــ فسكت الملك طويلاً مفكراً ثم قال : « ألحق أقول لك : أجل » . فتابعت حديثى قائلا « مولاى ، أتعرف لِمَ سألتك هذا السؤال ؟ » فقال « ولِمَ ؟ » فأجبته « لأن الرأى والنصيحة عندى يامولاى أن تمنع ـ حين عودتك إلى فرنسا ـــ من أقسموا لك اليمين من قبول أى شىء ممن لهم حاجة يريدون عرضها عليك ، ولتكن واثقاً كل الثقة فى أن قبولهم شيئاً ما سوف يحملهم على زيادة الإصغاء فى رضاء وأناة لمن وصلوهم بشىء كما فعلت أنت اليوم مع رئيس دير كلونى » .

وإذ ذاك جمع الملك جميع رجال مجلسه ، وأفضى إليهم بما كان من حديثى إليه ، فاستصوبوا النصيحة التى أسديتها إليه .

. . .

٦٥٧ — ترامى إلى سمع الملك خبر راهب فرنسيسكانى اسمه الأخ هيج ، فبعث فى استدعائه ، إذ حببته شهرته الفائقة فى رؤيته وسماعه والتحدث إليه .

وفى يوم مجىء الأخ هيج إلى هيرس تطاعنا إلى الطريق الذى كان قادماً منه ، فأبصرنا حشداً كثيفا من النساء والرجال على السواء يسيرون خلفه مشاة ، فطلب الملك منه أن يخطب الناس فاستهل عظته بالحديث عن رجال الدين قائلا « أيها السادة ، إنى لأرى فى بلاط الملك ورفقته كثيرا من رجال الدين ، وأنا — قبل كل شىء — واحد من هؤلاء الكثيرين الموجودين حوله ، لكن ليس لهؤلاء المتدينين القدرة على إنقاذ أنفسهم إلا إذا كان الكتاب المقدس يكذب علينا وهو أمر مستحيل .

٦٥٨ — « ذلك لأن الكتب المقدسة تخبرنا أن الراهب لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن ديره دون خطيئة مهلكة إلا بما يتهيأ من الحياة للسمكة خارج الماء ؛ فإذا قال من فى صحبة الملك من المتدنيين إن بلاطه دير ، فإنى أقول لهم هذا أكبر دير رأيته لأنه يمتد من هذا الجانب من البحر إلى الجانب الآخر ، وإذا قالوا إنهم يستطيعون فى هذا الدير أن يأخذوا أنفسهم بالحياة الخشنة لأجل خلاص أرواحهم فلست أثق بما يقولون ، لأننى أخبركم أننى تناولت معهم هنا كميات كبيرة من اللحم ، وشربت معهم من الخمر الجيدة أقواها وأصفاها ، وأنا واثق أنهم لو كانوا فى أديرتهم لما تقلبوا فى هذه البلهنية التى يتقلبون فيها الآن وهم فى صحبة الملك » .

٦٥٩ — وعرج هيج فى عظته هذه على الملك، فأشار عليه كيف يجب أن يستهدف فى حكمه صالح شعبه، ثم قال فى ختام خطبته إنه قرأ الإنجيل والكتب التى معه، وأنه لم ير مطلقاً — فى كتب المؤمنين أو غيرهم على السواء — أن هناك مملكة ما أو ولاية ما ضاعت أو انتقلت من حاكم إلى آخر أو من ملك إلى آخر ألاّ وسبق ذلك ضياع الحق وفساد العدالة.

ثم قال له «والآن فلنطلب من الملك — وهو فى طريقه إلى فرنسا — أن يُحِقّ الحق ويقيم العدالة بين شعبه، وأن يظل ساعياً فى حب الله حتى لا يسترجع الله منه مملكته وحياته معاً».

٦٦٠ — وقد أشَرْتُ على الملك أن يستبقى الأخ الراهب هيج فى صحبته أطول زمن ممكن، فقال لى إنه حاول ذلك معه لكنه رفض إجابة سؤله رفضا باتا.

ثم أخذنى الملك من يدى وقال لى «هيا بنا نذهب إليه ونرتجيه ثانية»، فلما جئناه قلت له: «هلا فعلت ياسيدى ما سألك إياه مولاى فأقمت معه فى بروفنس طول مكثه بها؟» فأجابنى غاضباً «ألحق أقول لك ياسيدى إننى لن أفعل ذلك، لأننى سوف أمضى إلى حيث يرى الرب أن ذلك أجدى من بقائى فى صحبة الملك».

ثم مكث معنا يوما واحداً رحل بعده عنا.

ولقد علمت من نبئه بعد حين أنه مدفون فى مدينة مرسيليا، حيث تمّت على يديه كثير من المعجزات الخوارق.

* * *

٦٦١ — فى اليوم الذى رحل فيه الملك عن هيرس نزل من القلعة مترجلا لشدة انحدار التل ، وظل سائراً على قدميه مسافة طويلة لعدم مجيئهم بجواده ، ثم ركب حصانى ، حتى إذا جاءوه بفرسه التفت إلى خادمه پونس وهو فى شدة الغضب وكلمه فى خشونة ، فلما فرغ من ذلك قلت له : « مولاى ، ينبغى عليك أن تغفر لبونس الخادم كثيراً ، لأنه خدم جدّك وأباك من قبل ، وهو اليوم فى خدمتك » .

٦٦٢ — فقال لى الملك « ياسنسكال ، إنه لم يخدمنا بل نحن الذى خدمناه حين استبقيناه عندنا رغم ما هو عليه من الصفات الشريرة ، لأن جدى الملك فيليب أخبرنى أنه يجب على المرء مكافأة خدمه ، فيجزل العطاء لمن يستحقه ويقبضه عمن لا يستأهله ، واعتاد أيضاً أن يقول إن الحاكم لا يستطيع أن يحكم حكما كريماً إن لم يعرف متى يقسو فى عنف وشدة ، ومتى يبسط يده . وإنى لذاكر لك هذه الأشياء لأن الناس شَرِهون فى السؤال والتساؤل ، وقل فيهم من يعنيه خلاص روحه وشرفه دون أن يكون ذلك على حساب سواه سواء بالحق أو بالباطل » .

زواج إيزابيل وثيبو

٦٦٣ — فى أثناء اجتياز الملك لكونتية بروفنس جاء إلى مدينة من مدنها اسمها إكس Aix يقال إن بها جسد مريم المجدلية ، فمضينا إلى كهف أقيم فى صخرة شديدة الارتفاع[1] ، يزعم الناس أن المجدلية عاشت فيه عيشة

(١) الوارد فى جونز ، ص ٥١٤ ، أن هذا المكان يسمى Le Baume

التنسك مدة سبع عشرة سنة ، ولما جاء الملك إلى بوكير Beaucaire ورأينا أنه أصبح فى أرضه وأملاكه الخاصة استأذنته ومضيت إلى ابنة أخى دوفيناڤينا وإلى عمى كونت شالون وابنه كونت برجنديا[1] .

٦٦٤ — وبعد أن قضيت مدة فى جوانفيل ورتبت أمورى بها عدت إلى الملك فلحقت به فى سواسون ، ففرح بقدمى فرحاً عظيما تعجب منه جميع من كانوا هناك ، حيث وجدت جون كونت بريتانى وزوجته ابنة الملك ثيبو التى قدّمت[2] للملك ولاءها وطاعتها بصدد جميع حقوقها فى شمبانيا ، فأحال الملك البتّ فى هذا الأمر — كما هو الحال إزاء ثيبو الثانى — إلى برلمان باريس لسماع قضيتهما ، حتى تأخذ العدالة مجراها بين الطرفين .

٦٦٥ — وجاء إلى هذا البرلمان — بناء على[3] نصيحته — ملك نڤارة وكذلك كونت بريتانى . وفى هذا الاجتماع التمس الملك ثيبو الزواج من سيدتى الأميرة إيزابيل ابنة الملك ، وعلى الرغم — مما قاله أبناء جدتى الشمبانيون من وراء ظهرى — حسداً منهم لما رأوه من فرحة الملك بى فى سواسون — إلا أننى لم أتوان عن الذهاب إلى ملك فرنسا ومحادثته فى شأن هذا الزواج ، فقال لى الملك « أمض إلى كونت بريتانى واحمله على التراضى وبعدئذ يتم الزواج » ، فسألته ألا يجعل عدم إتمام الصلح حائلا دون عقد

---

(١) يقصد بذلك هيج بن جان دى ستالون .

(٢) الوارد فى نسخة جونز ، ص ٥١٥ « أن النزاع كان قد شب بين ملك نفارة وورثة شمبانيا لادعاء الأول أن له حقوقا فى إقليم شمبانيا ؛ ولذلك أمرهم الملك جميعا بالذهاب إلى باريس لسماع حجة كل من الطرفين » .

(٣) راجع الحاشية السابقة ، ويلاحظ أن هذه العبارة ساقطة من نسخة جونز .

هذا الزواج ، إلا أنه قال لى أنه لن يتم القران على أية صورة حتى ينعقد الصلح ، كيلا يقول قائل من الناس إنه زوّج أبناءه بحرمانه باروناته من ميراثهم .

٦٦٦ — نقلتُ هذه الكلمات إلى الملكة مرجريت النفارية وإلى ابنها الملك وإلى بقية مستشاريهما ، فلما سمعوا ما قلت بادروا إلى إبرام الصلح ، وما لبث أن زوّج ملك فرنسا ابنته من الملك ثيبو ، وأقيمت فى ميان Melun ولائم العرس فخمة رائعة ، ومن هناك أخذ الملك ثيبو عروسه إلى بروفنز Povins حيث دخلاها وسط حشد كثيف من البارونات .

* * *

عاداته وتقاليده وموقفه من الأساقفة

٦٦٧ — بعد عودة الملك من رحلته فيما وراء البحار[1] أخذ نفسه بحياة التقشف ، فلم يؤثر عنه أنه لبس بعدئذ ثوبا من فراء السمور أو السنجاب الرمادى أو الملابس القرمزية اللون ، أو أنه اتخذ سرجا أو مهاميز مذهبة . بل كان لباسه من العبك الصوفى والقماش الأزرق ، كما كان فراء أغطيته وملابسه من جلد الغزال المدبوغ أو الحملان أو من الجلد المتخذ من أرجل الأرانب .

وكان شديد القصد فى مأكله ، حتى إنه لم يطلب قط أنواعاً معينة من الطعام ، بل كان يأكل ما هيأه له طباخه ووضعه أمامه .

وكان يمزج الماء بخمره فى كأس شرابه ، فيضيف إليها من الماء مايتناسب وقوة الخمر ، وكان يمسك كأسه بيده حين يأخذ السقاة فى مزجها

---

(١) فى جوز ، ص ٥١٥ «من فلسطين» .

بالماء وهم وقوف خلفه ، وكان يُطعم دائماً فقراءه ، فإذا فرغوا من أكلهم وزّع عليهم بعضاً من نقوده .

٦٦٨ — وإذا وفد منشدو الثراة عليه بآلاتهم الموسيقية بعد الفراغ من تناول وجبة طعامه لم يبرح مكانه قبل فراغ المنشد من صلاة الشكر ، وإذ ذاك ينهض ويقف أمامه قسيسه لترتيل صلاة الشكر ، فإذا كنا معه على انفراد أخذ مجلسه عند قدمى سريره ، فإن عرض الإخوان المبشرون أو الدومنيكان الذين معه إلى كتاب وأشاروا إلى وجوب قراءته إياه قال لهم « إنكم لن تقرءوه لى لأنه لا يستطاب قراءة أى كتاب بعد الأكل كما يستطاب الحديث فى حرية وأن يتكلم كلٌّ بما يشاء » .

وإذا كان مشاركوه الطعام من الأغراب ذوى المكانة آنس صحبتهم كل الإيناس .

٦٦٩ — وسأحدثك الآن عن حكمته ، إذ طالما شهد الناس أن لم يكن بين رجال مجلسه من يبزه حكمة ، ويتجلى هذا عندما يحادثه أحد فى أمر من الأمور فلا يقول له « سأفكر فى الأمر » بل يقرره فى الحال دون مشورة أحد إن رأى الحق أبلج واضحاً .

وفى هــــذا الصدد سمعت ردّه على ملتمس رفعه إليه جميع مطارنة مملكة فرنسا .

٦٧٠ — فقد[1] حدث ذات يوم أن كلّمه جى أسقف أوكسير Auxerre باسم جميع مطارنة مملكة فرنسا قائلا له « مولاى ، لقد كلفنى هؤلاء المطارنة

(١) القصة التالية بأكملها غير واردة فى جونز حتى نهاية فقرة ٦٧٧

والأساقفة المـائلون هنا أن أخبرك أن الملة النصرانيـة آخذة فى التدهور بين يديك ، وسيزداد تدهورها إن لم تعجل بتدبر أمرها ، إذلم يعُد أحد اليوم يرهب توقيع قرار الحرمان عليه ، لذلك نلتمس منـك يا مولاى أن تأمر نوابك وعسكرك أن يحملوا حملة صدق على جميع من صدر ضدهم قرار الحرمان ومضى عليهم عام ويوم كى يعملوا على استرضاء الـكنيسة » .

فأجابهم الملك دون أن يأخذ برأى أحدٍ مابأنه مُلبٍّ طلبهم عن طيب خاطر ومصدر أمره إلى عماله وسر جنديته بالتضييق على المحرومين بالصورة التى يرونها ، على شرط أن يطلعه الأساقفة على الحـكم فى كل حالة ليرى بنفسه ماينطوى عليه من عدل أو حيف .

٦٧١ — فتشاور الأساقفة فيما بينهم ، ثم عادوا إلى الملك مخبريه بأنهم يرفضون هذا الطلب ، لأن المسائل التى يتضمنها هى مسائل كنسية دينيـة ، فأجابهم الملك بدوره إنه لايستطيع إجابة مطالبهم على الهيئة التى تقدموا بها إليه ، وأنه لن يصـدر أمره إلى نوابه وسر جنديته بالتضييق على المحرومين لحملهم على طلب الغفران ، سواء أ كان قرار الحرمان عادلا أم جائراً .

ثم قال لهم « لو أننى فعلت ماتسألوننى إياه لـكنت سالـكا سبيلا يأباه الرب ولا يقره العدل ، وسأضرب لـكم مثـلا على ذلك بقرار الحرمان الذى حكم به أساقفة بريتانى على كونت بريتانى فظل محروماً مدى سبع سنوات ، ثم جَبَّت كنيسة رومة هذا القرار ومنحته الغفران ، فلو كنت اضطهدته بعـد السنة الأولى لـكنت إذن معذِّباً إياه ظلماً وعدواناً .

٦٧٢ — وحدث بعد عودتنا من وراء البحار أن انتخب رهبان دير سنت اربان رئيسين ، فما كان من بطرس أسقف شالون — عليه الرحمة — إلا أن طردهما وولى شئون الدير للراهب جون دى ميمرى ، وناوله عصا الأسقفية .

ولم أشأ الاعتراف بجون دى ميمرى المشار إليه رئيساً للرهبان ، لأنه كان قد آذى جوفرى رئيس الرهبان الذى ناهضه وعارضه وذهب إلى رومة ، فتوليت أمور الدير فترة من الزمن ، حتى أخذ جوفرى عصا الأسقفية بعد استرداده إياها من الراهب الذى منحها له الأسقف بطرس دى شالون الذى كان قد أصدر ضدى قرار الحرمان أثناء حدوث هذا النزاع ، فثار فى البرلمان الذى عقد بباريس جدل عنيف بينى وبين الأسقف بطرس دى شالون ، وكذلك بين الكونتيسة مرجريت دى فلاندر ورئيس أساقفة ريمس الذى كذبته الكونتيسة .

٦٧٣ — فلما عقد الاجتماع الثالث التمس جميع رجال الدين مجىء الملك ليتحدث إليهم على انفراد ، فلما فرغ من مقابلته اياهم والتحدث معهم عاد إلينا ، وكنا فى انتظاره فى غرفة الشهود ، وأفضى إلينا — وهو طلق المحيا — بالجهد الذى لقيه مع رؤساء رجال الدين ، لأن كبير أساقفة ريمس قال له :

« مولاى ، ماذا أنت فاعل لى بشأن حراسة سنت ريميجس دى ريمز التى أخذتها منى ، لأننى أقسم بحق هذه الآثار المقدسة الموضوعة أمامنا هنا أننى لا أضمر المعصية — كما تضمرها أنت — لكل نواحى مملكة فرنسا » ، فأجابه الملك « بحق هذه الآثار المقدسة الموضوعة أمامنا هنا أقسم أنك على أتم استعداد لأن ترتكب الخطيئة من أجل كومبين Csmpiégne وذلك لما

تنطوى عليه نفسك من جشع ، وعلى ذلك فأحدُنا الآن حانثٌ فى يمينه كاذب فى دعواه »

٦٧٤ ـــ ثم قال الملك : وإذ ذاك طلب منى أسقف شارتر أن آمر بأن أرد إليه مافى يدى من متعلقاته ، فأنبأته أننى لن أفعل ذلك حتى يدفع لى ما أستحقه ، وأخبرته أيضاً أنه قطع يمين الولاء لى ويداه فى يدى ولكنه لم ينهج معى نهج الصواب ، ولم يكن مخلصاً لى حينما بذل قصارى جهده فى حرمانى من حقى الذى آل إلىّ عن طريق الوراثة .

٦٧٥ ـــ وإذ ذاك قال لى[1] أسقف شالون : وماذا أنت فاعل لى يا مولاى بشأن السيد دى جوانفيل الذى حرم راهب دير سنت ايربان الفقير » ؟ .

فأجابه الملك « سيدى الأسقف ، لقد فرغتم من هذه المسألة فما بينكم حين قررتم أنه لا يجوز لمحكمة مدنية سماع شكوى رجل قد صدر ضده قرار الحرمان ، ولذلك فإننى لن استمع إليك حتى تنال الغفران » .

وأنا[2] أخبرك بهذه الأمور لترى فى وضوح كيف كان الملك يستطيع فض مثل هذه المشكلات وحده ووفق إدراكه الصائب .

٦٧٦ ـــ أما جوفرى رئيس دير سنت إربان فقد جازانى شراً على خير ، وجحد جميلى عليه ، فشكانى إلى الملك القديس وراح يفهمه أن الدير فى حراسته ، فطلبت من الملك أن يأمر بالفحص عما إذا كانت حراسة الدير من

---

(١) الكلام هنا على لسان الملك .

(٢) المتكلم هنا هو جوانفيل .

شأن الملك أم من شأنى ، فلما سمع جوفرى بذلك قال للملك « مولاى أتوسل إليك بحق الرب ألا تفعل ذلك ، بل رتب الأمر على أن يكون حل المشكلة القائمة بينى وبين السيد جوانفيل عن طريق المحاكمة ، لأننا نؤثر أن نرى الدير فى يديك من أن يرثه هو » .

وإذ ذاك قال الملك لى « قل الحقيقة : أمن حقى الإشراف على الدير ؟ » فأجبته « كلا يا مولاى ، بل إنه ملكى أنا » .

٦٧٧ — وإذ ذاك قال الملك للديرانى « ربما كان الدير تابعاً لك بالإرث ، لكن ليس لك الحق أبداً فى التصرف فى أموره ، أما فيما يتعلق بملكيته فيبدو لى مما ذكرته لى ومما قاله السنكال أن المسألة بينى وبينه هو فقط ، ولن أحاول من كل ماقلت الوصول للحق فى هذه المسألة ، لأننى لو أرغمته على الالتجاء إلى القانون فإننى أكون قد أخطأت فى حقه وهو تابعى ، لأننى أحقُّ الحق بمقتضى القانون » .

ثم أمر باستقراء الحقيقة ، فلما تجلت له أسلمنى حراسة الدير مصدقاً عليها بمراسيمه المقدسة .

* * *

حبه للسلام

٦٧٨ — وحدث أن بذل الملك القديس غاية جهده بغية مجىء ملك انجلترا وزوجته وأطفاله إلى فرنسا لمفاوضتهم فى عقد الصلح[1] بينه وبينهم ؛ ولكن

---

(١) عقد هذا الصلح فى سنه ١٢٥٨ وصودق عليه فى سنه ١٢٥٩ .

رجال مجلسه عارضوا فى عقد هذا الصلح أشد معارضة وقالوا له « إننا لنعجب يا مولانا أشد العجب من شدة إصرارك على إعطاء ملك انجلترا جزءاً كبيراً من الأرض التى فتحتها أنت وأسلافك وانتزعتموها منه ، والتى كان سوء تصرفه سبباً فى فقده إياها ، ويبدو لنا الآن أن ردك بعضها إلى ملك انجلترا — إن كنت لا تراها حقاً لك — لن يكون خيراً لك إلا إذا أعدت جميع ما فتحته أنت وأسلافك إلى أصحابه ، أما إذا آمنت بحقك فى هذه النواحى فإننا نرى أن ردك ما ترده إن هو إلا خسارة عليك » .

٦٧٩ — فأجابهم الملك القديس قائلاً « أيها السادة إننى مقتنع كل الاقتناع بأن لا حقّ لملك انجلترا فى الأراضى التى أصبحت ملك يمينى والتى استولينا عليها من أسلافه عدلاً ، غير أن الأرض التى سأردها إليه لا تعنى التزامى بإعطائها له أو لخلفائه ، ولكنى رادّها إليه لبذر المحبة بين أبنائى وأبنائه لأنهم أبناء خئولة ، وأحسب أن الخير فى تنازلى له عنها ، لأنه[١] سيكون من الآن فى طاعتى ، وهو أمر لم يكنه من قبل » .

٦٨٠ — كان الملك لويس أعظم رجل فى الدنيا بذل قصارى جهده لإقرار السلم بين رعاياه ، لا سيما بين كبار جيرانه وبين أمراء المملكة ، ومثال ذلك إصلاحه ذات البين بين كونت شالون عم السيد جوانفيل وابنه كونت برجنديا اللذين كان القتال ناشباً بينهما نشوباً عنيفاً وقت رجوعنا من بلاد ما وراء البحر[٢] ، وعمد الملك — استتباباً للصلح بين الأب وابنه — إلى ارسال جماعة

---

(١) الوارد فى نسخة جونز ص ٥١٧ « أن ذلك سيؤدى إلى إقرار السلم بينى وبينه وإلى أنه سيكون من الآن تابعى ... » الخ .

(٢) وردت بدلها كلمة « فلسطين » فى جونز ، ص ٥١٦

من أهل مجلسه على حسابه الخاص إلى برجنديا ، فانعقد السلم بفضل مجهوداته بينهما .

٦٨١ — كذلك كان هناك فى هذا الوقت حرب عنيفة بين الملك ثيبو الثانى ملك شمبانيا وجون كونت شالون وابنه كونت برجنديا حول دير لوكسيل Luxeuil ، وعمد سيدى الملك لإخماد تلك الحرب إلى إرسال جرفيه ديسكرين الذى كان إذ ذاك رئيس المطابخ بفرنسا وأصلح بينهما بجهوده .

٦٨٢ — بعد هذه الحرب التى أطفأ الملك أوارها نشبت حرب عنيفة أخرى بين ثيبو كونت دى بار وهنرى كونت لوكسبورج زوج أخت كونت ثيبو ، وحدث أن تقاتلا قرب Prény وتمكن ثيبو كونت دى بار من أسر هنرى كونت لوكسمبورج والاستيلاء على قلعته «لجنى» التابعة لكونت لكسمبورج عن طريق زوجته ، لذلك أرسل الملك من قبله — تهدئة لما بينهما — وعلى نفقته الخاصة — السيد بطرس كاتم سره الذى كان وحده — دون بقية القوم قاطبة — موضع ثقة الملك ، وأجدَت محاولات الملك نفعاً فى تهدئة الخواطر بين المتقاتلين .

٦٨٣ — أما فيما يتعلق بالأجانب الذين أصلح الملك فيما بينهم فقد كان بين رجال مجلسه من كانوا يرون أن الأجدى عليه تركهم يتقاتلون فيما بينهم ليضعف شأوهم ويزدادوا فقراً ، وإذ ذاك تصبح هجماتهم عليه أضعف مما تكونه لو كانوا أغنياء، فكان الملك يجيبهم على ذلك بقوله إنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه « لأن الأمراء المجاورين إذا رأونى تاركا إياهم يتقاتلون فيما بينهم فقد يستطيعون الاتفاق فيما بينهم ويقولون : إن الملك يضمر لنا الشرَّ ،ومن ثم فإنه يتركنا يحارب بعضنا بعضاً،وقد تدفعهم الكراهية إذ ذاك للتكتل والهجوم

عليّ ويلحقون بي خسارة كبرى ، هذا بالإضافة إلى أنني أكون حينئذ قد استجلبت غضب الرب القائل : طوبى لصانعي السلام » .

٦٨٤ — وقد حدث أن أحبّه أهل برجنديا واللورين الذين أصلح بينهم فأطاعوه طاعة عظمى حتى لقد رأيتهم يجيئون إليه ويرفعون قضاياهم أمامه في محاكمه ريمز وباريس وأورليان .

• • •

خوف لويس وجوانفيل من التجديف

٦٨٥ — كان حب الملك عظيما للرب ولأمه الحنون ، حتى لقد أمر بالتشديد في معاقبة من يثبت عليهم أنهم تناولوهما بالسوء أو السخرية أو القسم بهما قسما كاذباً . ولقد رأيته مرة يأمر بربط أحد الصاغة في قيسارية إلى سلم وليس عليه سوى قميصه وسرواله ، وقد شدت حول عنقه كميات كبيرة من إمعاء خنزير حتى بلغت أنفه .

وسمعت بعد عودتي من وراء البحار أنه أمر بكيِّ مواطن باريسي بالنار في أنفه وشفتيه[1] ، غير أنني لم أشاهد ذلك الأمر بنفسي .

واعتاد الملك القديس أن يقول « أوثر أن أكوى بالحديد المحمي لو كان في ذلك منع جميع الأقسام الكاذبة من مملكتي » .

٦٨٦ — لقد رافقته اثنتين وعشرين سنة لم أسمعه خلالها أبداً يحلف بالله

---

(١) الوارد في جونز ، ص ٥٢٧ أن جوانفيل سمع بهذا الحادث عندما كان في إمارته جوانفيل ، وأنه جرى عقب عودة الملك من فلسطين وأن الكي كان في الأنف والشفة السفلى.

أو بالعذراء أو بأحد من قديسيه ، وكان إذا أراد تأكيد شيء ما قال : « الحق أنه كان كذا » أو « الحق أنه كذا[1] » .

٦٨٧ ـــ كذلك لم يطرق سمعي أبداً أنه نطق بكلمة « الشيطان » اللهم إلا إذا جاء ذلك في كتاب حين ينبغي أن يجيء ذكره، أو ورد في حياة القديسين حيث ترد الإشارة إليه في الكتاب ، وما أعظم خجل مملكة فرنسا وخجل الملك من أنه لم يكن ثم أحد يتكلم دون أن يقول « فليأخذه الشيطان». إذ أنه من أشد الأمور إيلاماً للنفس أن ندعو على قوم ـ رجالاً كانوا أم نساءاً ـ أن يأخذهم الشيطان بعد تعميدهم الذى أصبحوا به أبناء الله .

وكان المألوف في بيت جوانفيل أن يُضرب أو يجلد من يجرى على لسانه مثل هذا القول،حتى لقد كادت هذه العبارة البذيئة أن تجتث منه .

* * *

حبه للفقراء وتعليمه أطفاله ومؤسساته الخيرية

٦٨٨ ـــ ولقد سألني ذات مرة عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء يوم الخميس المقدس، فأجبته « كلا » لأن مثل هذا العمل يبدو في عيني ممجوجاً فأخبرني أنه ينبغي عليّ ألا استنكف أو اشمئز مادام السيد المسيح قد فعله بنفسه،

---

(١) جاء بعد هذا فى نسخة جونز ، ص ٥١٨ « وكان من الواضح جداً أنه لم يكن ليجحد الرب فى سبيل أى عرض دنيوى ، وحدث أن رغب سلطان مصر وأمراؤها أن يفعل ذلك إن شجب اتفاقه معهم ، فلما علم أن هذا هو آخر اقتراح يقدمه الترك قال إنه يفضل الموت على ارتكاب مثل هذا الجرم» .

وقال لى « إذن فأنت تكره أن تفعل ما فعله ملك انجلترا من غسله أقدام المرضى بالبرص وتقبيله إياهم ».

٦٨٩ — وكان قبل انكفائه إلى فراشه يستدعى أبناءه إليه ويقص عليهم أنباء الملوك والأباطرة الصالحين ، طالباً إليهم أن يترسموا خطى هؤلاء الصالحين ، كذلك يذكرهم بأعمال الأمراء الطالحين الذين أضاعوا ما بيدهم من جراء إسرافهم وجشعهم ، ثم يقول لهم « وإننى لأذكّركم بهذه الأشياء عساكم تتجنبونها وحتى لا يصيبكم مقت الرب وغضبه » .

وقد علّمهم صلوات ساعات سيدتنا ، وأن ينشدوا أمامه صلوات ساعات اليوم لينشئهم على الاستماع إلى صلوات الساعات حينما يؤول إليهم حكم أراضيهم .

٦٩٠ — كان الملك يكثر من إخراج الصدقات الجمة ، وكان كلما جال فى مملكته أمر بتوزيع الأموال على الكنائس الفقيرة وعلى بيوت المرضى وبيوت الصدقة وعلى الفقراء الصالحين : رجالا كانوا أم نساء ، ممن أخنى عليهم الدهر .

وكان يطعم فى كل يوم فئة كبيرة من الفقراء إلى جانب من يأكلون على مائدته ، وكثيراً ما رأيته يوزع عليهم الخبز بيديه ويسقيهم بنفسه .

٦٩١ — ولقد بنى فى عهده كثير من الأديرة منها ديرا رويومونت والقديس انطونيوس فى باريس، ودير ليس Lis ودير موبيسون Maubisson ، إلى جانب كثير من أديرة الإخوان المبشرين والفرنسيسكان، فبنى خان بونتواز

وخان ڤيرنون وبيتاً للمكفوفين فى باريس، وديراً للراهبات الفرنسيسكانيات فى سنت كلو وهو الذى أنشأته أخته الأميرة إيزابلا بإشارته .

٦٩٢ — وكان إذا جاءه شىء من دخل الكنيسة المقدسة عمد قبل توزيعه إياه إلى مشاورة المتدينين الأفاضل وسواهم ، حتى إذا وقف على ما يريد وزع هذا الدخل بضمير مستريح ، غير مراع فى ذلك سوى رضاء الله وحده ، ولم يعط أبداً شيئاً من المنح لرجل من رجال الدين قد أخذ شيئاً من قبل ، وكان إذا ذهب إلى مدينة من مدن مملكته لم تطأها قدمه من قبل مضى إلى المبشرين والإخوان الفرنسيسكان — إن وُجدوا — ملتمسا منهم دعواتهم .

* * *

كيف أصلح أعماله ومنشآته الجديدة

٦٩٣ — بعد عودة الملك لويس إلى فرنسا من وراء البحار كرس نفسه كل التكريس لخلصنا ولإحقاق العدالة مع رعاياه ، مدركا أن ذلك هو السبيل الصالح الخيّر لإصلاح مملكة فرنسا ، فبدأ أولا بسنّ قانون عام نافذ بين جميع رعاياه فى كافة أرجاء مملكة فرنسا ، صورته كالتالى :

٦٩٤ — « نحن لويس ملك بمشيئة الرب، نأمر جميع أشراف مقاطعاتنا الفيكونتات والمديرين وغيرهم مهما كانت الظروف وأيا كانت مراتبهم بأن يقسموا العهد على أن يكون ديدنهم فى الحكم — طالما هم يشغلون إحدى الوظائف المشار إليها — إقامة العدل بين الجميع دون تفرقة بين الناس : فقيرهم وغنيهم ، سواء من كان منهم غريباً أو مواطناً ، وأن يراعوا العادات والتقاليد الطيبة الحميدة ويمارسوها .

٦٩٥ — « وإذا حدث أن سلك أشراف المقاطعات أو الفيكونتات أو غيرهم كالجند أو حراس الغابات مالا يتفق والأيمان التي قطعوها فإننا نأمر بمعاقبتهم فيما ملكت أيديهم،أو في أنفسهم إذا استحق الجرم ذلك ، وسيوكل إلينا نحن عقاب أشراف المقاطعات ، أما من عداهم فيكون عقابهم على يد أشراف المقاطعات أنفسهم .

٦٩٦ — « ومن الآن فصاعداً يقسم المديرون وأشراف المقاطعات والسرجندية يمين الإخلاص بمراعاة إيجاراتنا وحقوقنا ، والقيام عليها أحسن قيام ، وأن يراعوا عدم الافتيات على حقوقنا أو إضاعتها أو التقليل منها ، وأن يقسموا مع هذا أيضاً على ألا يأخذوا أو يتناولوا شيئاً تناولاً مباشراً أو عن طريق غيرهم : ذهباً كان أو فضة أو أي شيء ذا نفع غير مباشر ، أو أي شيء آخر غير الفاكهة والخبز والخمر ، أو غيرها من الهدايا التي لا تتجاوز قيمتها عشر سوسات .

٦٩٧ — « وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يقسمون ألا يأخذوا أو يسعوا لأخذ أي هدية مهما كان نوعها عن طريق زوجاتهم أو أبنائهم أو إخوتهم أو أخواتهم أو عن طريق أي أشخاص آخرين ممن يمتون إليهم بصلة ما ، فإذا وصل إلى علمهم أن هؤلاء الأشخاص أخذوا مثل هذه الأشياء بادروا إلى إلزامهم بردها بأسرع ما يمكن ، وعليهم أن يقسموا أيضاً ألا يقبلوا هدية ما أيا كانت من أي شخص يعمل معهم ، أو من أي شخص آخر تكون له قضية منظورة أمامهم ، أو تكون له شكوى بين أيديهم .

٦٩٨ — « وعليهم أن يقسموا اليمين على ألا يقدموا هدية لأي رجل

من رجال مجلسنا أو لزوجاتهم أو لأبنائهم أو لأى فرد من ذوى قرباهم، وألا يقدموا هدية للأشخاص الذين سوف يراجعون حسابات الموظفين أو لأى شخص آخر ممن نرسلهم من قبلنا إلى دوائرهم أو إلى مديرياتهم للتفتيش على أعمالهم، وأن يقسموا مع هذا يميناً على ألا يأخذوا أى ربح عن أى شيء يباع من مستأجراتنا أو من أشياء تعود إلينا .

٦٩٩ — « وعليهم أن يقسموا ويتعهدوا بأنهم إذا عرفوا أن أى موظف أو سرجندى أو مدير ممن يعمل تحت إمرتهم قد خان الأمانة بالسرقة أو الاغتصاب، أو اتُّهم بتهمة أخرى تلزمه بالتخلى عن خدمتنا ... إذا عرفوا ذلك عن شخص من هؤلاء فعليهم ألا يبقوه من أجل هدية أو عهد أو مودة خاصة أو أى سبب آخر، بل عليهم معاقبته ومحاكمته محاكمة صادقة .

٧٠٠ — « وعلى مديرينا وفيكونتاتنا وعمدنا وحراس غاباتنا وجميع سرجنديتنا من المشاة والخيالة أن يقسموا اليمين على ألا يهادوا رؤساءهم أو زوجات رؤسائهم أو أطفالهم أو أى واحد ممن يتصل بهم .

٧٠١ — « ولما كنا نريد انتظام هذه العهود انتظاما صادقاً فإننا نأمر بأخذها بكامل صورتها أمام الجميع بواسطة رجال الدين والمدنيين والفرسان والعسكر؛ حتى ولو كان بعضهم قد أقسم من قبل أمامنا، نأمر بذلك كى تكون هذه الأيمان أكثر مراعاة، ولكى يكون من أقسموها خائفين من خطيئة اليمين الكاذب أو خوفاً من العقاب الذى نوقعه بهم بل خوف العار الذى يجللهم أمام الناس، وخوف العقاب الذى ينزله بهم الرب فيما بعد .

٧٠٢ — « ونريد من جميع مديرى مقاطعاتنا ورؤسائها ونفرض عليهم

الامتناع عن التفوه بأى كلمة يكون فيها تعريض بالرب أو بسيدتنا أو بالقديسين وأن يكفوا كذلك عن لعب الميسر وعن غشيان الحانات ، ونأمرهم بمنع صنع زهر القمار فى جميع أنحاء مملكتنا ، وإخراج جميع النساء الداعرات من كل بيت ، وكل من يؤجر بيتاً لداعرة يؤول أجر بيته مدة عام إلى مدير المقاطعة أو شريفها .

٧٠٣ — «وزيادة على ذلك فإننا نمنع رؤساء مقاطعاتنا من القيام بعمليات الشراء الخادعة ، ونمنعهم من أن يأمروا — مباشرة أو عن طريق سواهم — بشراء أى شىء أو أرض تكون فى مقاطعاتهم أو فى غيرها طالما هم عاملون فى خدمتنا وبدون إذن وتصريح منا . فإذا تم مثل هذا البيع فإننا نأمر بأيلولة الأرض التى هى محل البحث إلى أيدينا وبقائها فيها .

٧٠٤ — «ونمنع جميع رؤساء مقاطعاتنا — طالما هم فى خدمتنا — من أن يزوجوا أحداً من أبنائهم أو بناتهم أو أى شخص آخر ممن ينتمى إليهم دون مصادقة منا ، وبالإضافة إلى ذلك نمنعهم من وضع مثل هؤلاء فى بيت دينى فى مقاطعاتهم ، أو تزويدهم بشىء ما من دخل الكنيسة المقدسة أو أى ممتلكات أخرى .

وزيادة على ذلك نمنعهم من إعطائهم حقوقاً أو مساكن فى بيوت الصدقة أو على مقربة منها ، مما يكون فيه افتئات على حقوق رجال الدين ، على أن هذا المنع الخاص بالزواج والتملك المذكورين من أعلاه لا ينطبق على مديرى المقاطعات وعمدها أو غيرهم ممن دونهم مرتبة .

٧٠٥ — « ونأمر ألا يحتفظ أى رئيس مقاطعة أو مديرها أو أى شخص آخر بكثير من العسكر أو الشمامسة حتى لا يتحمل الناس عبء إعالتهم

وإطعامهم ، ونأمر بأن يصبح الرجل شماساً بالتعيين وإلا لم يعتبر شماساً ، وكذلك لابد من تزويد سكرنا المسافر إلى مكان بعيد أو إلى قطر غريب بخطابات من رؤسائهم .

٧٠٦ — « ونأمر ألا يثقل رئيس المقاطعة أو مديرها من في خدمتنا كاهل أهلها الطيبين في أحكامه بما هو خارج عن نطاق الحق والعدالة ، وألا يوضع أحد من رعايانا في الحبس من أجل دين إلا إذا كان هذا الدين مستحقاً لنا نحن فقط .

٧٠٧ — « ونأمر ألا يجبي أحد رؤساء مقاطعاتنا غرامةً لدين مستحق على أحد من رعايانا ، أو من أجل أي إساءة إلا قُرِرَت هذه الغرامة في محكمة عامة تقدر قيمتها بناء على نصيحة الأشخاص المقتدرين والمتكافئين ، حتى ولو كانت الغرامة قد قدرت من قبل .

٧٠٨ — « وإذا حدث أن المتهم لم ينتظر حكم محكمتنا الذي سوف تقضي به عليه بل قدّم مبلغاً معيناً من المال بدلا من الغرامة فإننا نفوِّض المحكمة قبول هذا المبلغ إن كان معقولا وملائماً ، فإذا لم يكن كذلك فإننا نأمر بدفع الغرامة المقضى بها بالمبلغ السالف ذكره حتى ولو سلم المذنب نفسه إلى المحكمة .

« واننا ننهى رؤساء المقاطعات وعمدها ومديريها عن إرغام رعايانا ـ سواء بطريق التهديد أو الارهاب أو التلاعب والاحتيال ـ على دفع الغرامة سراً أو جهراً ، أو اتهام أحد إلا بسبب معقول .

٧٠٩ — « ونأمر متولى وظائف رياسة المقاطعات والإدارة والفيكونتية أو أي وظيفة أخرى ألا يبيعوا ما بيدهم من الوظائف إلى آخرين إلاّ برضائنا وموافقتنا ، وإذا حدث أن اشترك عدة أشخاص في شراء إحدى تلك

الوظائف السالفة الذكر فإننا نأمر بأن يوكل تنفيذ جميع واجبات الوظيفة إلى واحد من المشترين نيابة عن الآخرين ، وإذ ذاك يتمتع هو وحده دونهم جميعا بامتيازات الوظيفة فيما يتعلق بالسفر والضرائب والنفقات العامة، كما جرت العادة من قبل .

٧١٠ — كذلك نمنعهم من أن يبيعوا الوظائف المشار إليها إلى إخوتهم أو أبناء إخوتهم وأبناء أعمامهم بعد شرائهم إياها منا ، وألا يطالبوا بأى ديون قد تكون مستحقة لهم إلا ما كان منها متعلقا بوظائفهم . أما مايتعلق منها بديونهم الشخصية فإنهم يستردونه بواسطة سلطة رئيس المقاطعة كما لو لم يكونوا فى خدمتنا .

٧١١ — «ونهى رؤساء مقاطعاتنا ومديريها عن تكليف رعايانا بما يشق عليهم فى المسائل المعروضة عليهم، وذلك بنقلهم مكان إقامة الدعوة من بقعة إلى أخرى ، بل عليهم أن يفصلوا فى القضايا المعروضة عليهم فى المكان المقرر عليهم سماعها فيه ، حتى لا يحمل ذلك رعايانا على التنازل عن حقوقهم المشروعة تجنبا للمشقة أو كثرة النفقات .

٧١٢ — « ومن الآن فصاعداً نأمر جميع رؤسات مقاطعاتنا ومديريها ألاّ يغتصبوا من أى شخص شيئاما تملكه يداه قبل القيام بالاستفسار التام عنه، أو من غير صدور أمرٍ خاص منا ، وعليهم ألاّ يفرضوا على شعبنا ضرائب أو قروضا جديدة أو يستحدثوا مكوساً،وألاّ يرغموا أحداً ما على الانخراط فى سلك الجيش بغية ابتزاز المال منه ، لأننا نأمر ألاّ يُدْعَى شخص ما للقيام بالخدمة الحربية دون حجة وجيهة .

أما من يرغبون فى الانخراط فى الجيش شخصيا فلا يجبرهم أحد على شراء الإعفاء وبدفع مبالغ من المال .

٧١٣ — « وزيادة على ذلك فإننا نأمر رؤساء مقاطعاتنا ومديريها أن يمنعوا إخراج الحنطة والنبيذ وغيرها من السلع من مملكتنا دون مبرّر كافٍ فإذا كان الملائم إخراج هذه الأشياء من المملكة فليكن ذلك بأمر يعلنه جهاراً فضلاء الناس ممن لا تحوم حولهم شبهة من تزوير أو خطأ .

٧١٤ — « كذلك نأمر جميع رؤساء المقاطعات الفيكونتات ومديرى النواحى والعمد بالبقاء حيث هم مدة أربعين يوماً عقب تركهم الوظيفة فى النواحى التى كانوا يمارسون فيها مهام وظيفتهم ، ويكون بقاء الواحد منهم بشخصه ، أو عن طريق من ينوب عنه للإجابة عن كافة الاستفسارات التى يريدها الرؤساء الجدد بشأن أى خطأ يكون قد ارتكب ، أو يكون ادّعى به أحد ما عليهم » .

. . .

وبهذه القوانين عمل الملك كثيراً على تحسين أحوال المملكة .

***

إصلاح ولاية باريس

٧١٥ — كانت وظيفة ولاية باريس تباع فى ذلك الوقت إلى أثرياء باريس أو لغيرهم ، وكان الذين يشترون هذه الوظيفة يبسطون ظل رعايتهم على أبنائهم وأبناء إخوتهم إن ارتكبوا جرماً ، ومن ثم كان الصغار لا يبالون بارتكاب المفاسد ، اعتماداً منهم على نفوذ من يتولون ولاية باريس ، وهذا هو السبب الذى من أجله كثيرا ماديس ضعاف الناس بالأقدام ، دون أن يستطيعوا إحقاق العدالة ضد الأغنياء بفضل ما يقدمونه من الهدايا والمنح العظيمة إلى مديرى الولاية .

٧١٦ — وكأن يحدث في هذا الوقت إذا ما تفوه إنسان بكلمة حق أمام مدير ولاية باريس وأصر على يمينه رافضاً الرجوع فيها فيما يتعلق بدين أو أي مسألة أخرى ملزم بأداء الشهادة فيها فإن مدير الولاية يغرمه إذ ذاك ويعاقبه؛ وقد أدت فداحة الظلم الواقع على الناس وتعدد السرقات الكبيرة المنسوبة إلى مديري الولايات إلى أن انعدمت رغبة المستضعفين في البقاء في أرض الملك، بل أخذوا يرحلون إلى ولايات أخرى يقيمون بها ، وهجر الناس أرض الملك ، فكان مدير الولاية إذا عقد محكمته لم يحضرها أكثر من عشرة أشخاص أو أثني عشر شخصا .

٧١٧ — وزيادة على هذا كله حفلت باريس وما حولها بكثير من الجناة واللصوص ، وسرعان ما نمى الخبر إلى علم الملك الذي كان شديد المثابرة على الاستفسار عن أسلوب حكم شعب مملكته، وعن الطرق المتخذة لحمايتهم، لذلك سرعان ما أمر بمنع بيع وظيفة حاكم باريس ، وأجزل المرتبات الضخمة الطيبة لمن أصبحوا يتقلدون الوظيفة المشار إليها ، كما أسقط جميع الضرائب الظالمة المفروضة على الأهلين، وراح يفتش في كافة أرجاء المملكة عن الرجال الذين ينفذون العدالة تنفيذاً دقيقا طيبا محكما ، ولا يحابون غنيا على حساب فقير .

٧١٨ — ثم نمى إلى سمعه أن ستيفن بوالو Boileau ـ الذي تولى وظيفة المدير ـ قد أحسن الحكم في ولايته، فلم يعد يجرؤ على الإقامة بباريس مجرم أو لص أو سفاك، لإدراكه أن مصيره الشنق أو الإعدام إن فعل ذلك ، ولا ينجيه من ذلك نسب من أب ، أو قرابة ، أو ذهب ، أو فضة ، لذلك أخذت أرض الملك في التحسن ، وعاد الناس منذ ذلك الحين إليها التماسا للعدالة السمحة التي

سادت المنطقة ، وبذلك تكاثر السكان وازدهرت الأحوال ، حتى تضاعفت قيمة المبيعات والممتلكات والمشتروات وسواها ، فيما لو قورنت هذه القيمة بما كان يتناوله الملك من قبل[1] .

٧١٩ — وبهذا القانون أيضاً تحسنت أحوال مملكة فرنسا تحسنا كبيراً ، كما يشهد بذلك كثير من المسنين العقلاء .

• • •

صدقاته ومؤسساته الدينية

٧٢٠ — شب الملك منذ نعومة أظفاره شفيقا بالفقراء والمنكوبين رحيما بهم ، وجرت عادته أن يطعم أنى ذهب وأنى نزل مائة وعشرين فقيراً ، فيقدم لهم بيده الخبز والنبيذ واللحم أو السمك .

وكان عدد هؤلاء يزداد فى أيام الصوم الكبير وصيام الميلاد ، وكثيراً ما كان يحدث أن يطعمهم الملك بنفسه ، ويضع الطعام أمامهم بيديه ، ويقطع اللحم شرائح لهم ، ويوزع عليهم نقوداً من ماله الخاص .

٧٢١ — فإذا كانت ليالى الأعياد الكبرى والاحتفالات المقدسة وزع كل ما ذكرناه آنفاً على الفقراء ، وقدمهم على نفسه قبل أن يتناول طعاماً أو شراباً ، هذا بالإضافة إلى أنه كان فى كل يوم يجلس إلى جوار المسنين

---

(١) ورد بعد هذا فى نسختى ويلى ومرزيالس « وفى جميع هـذه الأمور التى أمرنا بها لصالح رعيتنا ومملكتنا نحتفظ لأنفسنا بالحق فى تفسيرها أو تعديلها أو تأجيلها حسبما يتراءى لنا » . ولكنها غير واردة فى نسخة جونز ، وليس لها فى الواقع موقع هنا إلا أن تكون بقية مرسوم الملك .

والعجزة ويقدِّم لهم الغذاء أو العشاء ، ويأمر بإطعامهم نفس الطعام الذى يقدَّم إليه هو ذاته ، حتى إذا فرغوا من أكلهم وصلَهم بقدر معين من المال .

٧٢٢ — وإلى جانب هذا كله كان الملك يتصدّق كل يوم بمبالغ كثيرة وضخمة على رجال الدين والفقراء وملاجى الفقراء وعلى الهيئات الفقيرة ، كما كان يتصدق على المعدمين من الرجال والنساء والأوانس ، وعلى النسوة الساقطات والأرامل المتربات وكل ذات حمل ، وكذلك على العمال الفقراء الذين أقعدتهم الشيخوخة أو المرض عن العمل فى حرفهم،حتى ليكاد يكون من المستحيل تعداد صدقاته ؛ ولذلك يمكن القول أنه كان أسعد طالعا من تيتوس إمبراطور روما الذى تذكر الكتب القديمة أنه كان يستشعر الحزن والقلق إن مرَّ به يوم عجزعن مد يد الإحسان فيه .

٧٢٣ — وشرع منذ أن أخذ مقاليد مملكته فى يديه ويدرك موقفه فى تشييد الكنائس وكثير من البيوت الدينية ، من بينها دير رويومونت الذى يمتاز بجماله وعظمته .

كذلك بأمر بإقامة كثير من بيوت الصدقة ، منها واحد فى باريس وآخر فى بونتواز، وثالث فى كومبيين ، ورابع فى ڤيرنون ، وأوقف عليها دخولا ضخمة ، كما أنشأ دير سنت ماتيو فى روان Rouen جمع فيه راهبات طائفة الإخوان المبشرين ، وشيد كذلك ديرا فى لونشان أنزل به راهبات طائفة الأخوان المينورست ، وخصص لهن مبالغ ضخمة للصرف منها .

٧٢٤— كذلك سمح لأمه أن تؤسس دير «ليس» قرب ميلون الواقعة على نهر السين Melun-sur- Seine ، وديرا قريباً من بونتواز يعرف بدير موبيسون،

وخصّص لها مبالغ كثيرة وممتلكات ضخمة ؛ كذلك أمر ببناء بيت للمكفوفين قرب باريس لاستقبال عُمْى المدينة الفقراء ، وأمر بإقامة كنيسة لهم لأداء الصلاة ؛ وكذلك أمر الملك الصالح ببناء ملجأ للعجزة يُعرف باسم بيت ڤوڤيرت Vauvert خارج باريس ، وأوقف عليه مبالغ كافية للرهبان الذين يقومون فيه بخدمة السيد الرب .

٧٢٥ — ثم ما لبث أن أمر بإنشاء بيت آخر خارج باريس على الطريق المؤدى إلى سنت دنيس عرف ببيت بنات الرب، أشار أن يكون مقر عدد كبير من النسوة اللائى اضطرهن فقرهن للسقوط فى خطيئة الرذيلة ، وأجرى عليهن أربعمائة دينار سنوياً .

وأقام فى كثير من نواحى مملكته بيوتاً للتائبات وأجرى عليهن معاشات يتكففن بها ، وأمر أن يسمح بالإقامة فيه لمن أرادت أن تحيا حياة الطهر .

٧٢٦ — وقد تذمّر بعض خواصه من إسرافه فى منح هذه المبالغ الضخمة وكثرة مصروفاته، فكان يقول لهم «وددت لو أن زائد الدخل قد خرج صدقة فى سبيل الرب ، أكثر من صرفه فى سبيل الأبهة والزينة الفارغتين فى هذا العالم» .

وعلى الرغم من أن الملك كان يبذل المبالغ الضخمة فى الصدقات إلا أنه لم يقصر فى الإنفاق على أهل بيته . . .

وكان الملك يسلك سلوكا كريماً فاضلاً فى برلمانات باروناته وفرسانه

واجتماعاتهم ، فكان يأمر باستضافتهم فى بلاطه ، ثم يروح يغدق عليهم إغداقاً يعفو على منية المتمنى ، مما لم يعهد مثله فى بلاط أسلافه .

* * *

مؤسساته الدينية فى فرنسا

٧٢٧ — كان الملك يحب جميع من يكرسون أنفسهم لخدمة الرب [(١) وأصحاب المسوح الدينية] ، ولم يحدث أن جاءه هؤلاء إلاّ وصلهم بما يعيشون به ، فابتاع للأخوان الكرمليين أرضاً على السين ناحية شارنتون charenton وأهداها إليهم ، وأمر ببناء بيت لهم ، واشترى لهم ملابس وكؤوساً وأمثالها مما يحتاجونه فى أداء خدمة سيدنا .

ثم اشترى بعدئذ لأتباع سنت أوجستين ضيعة أحد مواطنى باريس وجميع ملحقاتها ، كما أمر ببناء كنيسة لهم خارج بوابة مونتمارتر .

٧٢٨ — وأعال الإخوان الصوفية وأعطاهم بقعة على نهر السين ناحية سنت جرمين دى بريه St-Germain des Prés ، حيث استقروا هناك؛ لكن لم يطل بهم المقام إذ ما لبثوا أن اضطُهدوا .

وبعد استقرار الإخوان الصوفية جاء دور فئة أخرى من الإخوان يسمون بأتباع « العباءة البيضاء » الذين التمسوا مساعدته إياهم على الاستقرار فى باريس ، فابتاع لهم بيتاً بما حوله من المبانى القديمة وأنزلهم بها ، وكان ذلك قرب بوابة

---

(١) غير واردة فى جونز ، ص ٥٢٣

الداوية القديمة وعلى مقربة من دير الغزالين غير أن مجمع ليون الذى عقده البابا جريجورى العاشر قرر القضاء على جماعة إخوان العباءة البيضاء .

٧٢٩ — جاء بعد ذلك فريق آخر من الرهبان سموا أنفسهم بإخوان الصليب المقدس وكانوا يحملون الصليب على صدورهم ، وقد سألوا الملك أن يساعدهم فأجاب ملتمسهم راضياً مسروراً ، وأسكنهم شارعا كان يسمى من قبل Carrefour des Temple ، أما الآن فيسمى بشارع الصليب المقدس .
وهكذا أحاط الملك الصالح مدينة باريس بأهل الدين .

. . .

حمله الصليب للمرة الثانية

٧٣٠ — بعد حدوث الأمور المشار إليها سابقا ، استدعى الملك إليه بباريس أثناء أحد أيام الصوم الكبير (سنة ١٢٦٧) جميع باروناته فاستأذنته عن نفسى فى التغيب عن هذا الاجتماع بسبب حمى رباعية كانت ملمّة بى إذ ذاك ، لكنه أرسل إلىّ كلمة يقول فيها إنه يصرّ على وجوب حضورى ، لوجود جماعة من خيرة المطّببين والحكماء معه ، ممن يعرفون معالجة الحمّى الرباعية خير علاج .

٧٣١ — ذهبت إلى باريس فلما بلغتها فى ليلة عيد سيدتنا فى مارس لم أجد الملكة أو أحدا يستطيع إخبارى بعلّة استدعاء الملك إيّاى ، وحدث إذ ذاك أن غفت عينى بعشيئة الرب أثناء صلاة السحر ، وخيل إلى أنّى أرى فيما يرى النائم أن الملك راكع أمام المذبح ، وأن هناك كثيرا من رؤساء الأساقفة فى أبهى حللهم وهم يلبسونه حلة كنائسية حمراء من قماش ريمز الصوف الخشن .

٧٣٢ ـ فلما استيقظت من هذا الحلم استدعيتُ إلىّ قسيسى الشيخ وليم ، وكان رجلا عالماً ، وقصصت عليه رؤياى فقال لى « مولاى ، سوف ترى الملك يحمل الصليب غداً » ، فسألته عما يحمله على هذا الظن ، فأنبأنى أنه يرجح ذلك بسبب هذه الرؤيا ، لأن الحلة الكتانية المصنوعة من الصوف الخشن رمز للصليب الذى جللته بالحمرة القانية دماء السيد التى نزفت من جنبه وقدميه ويديه وقال : « لما كانت الحلة الكنائسية من صوف ريعز الخشن ، فإنها ترمز إلى أن حملته الصليبية هذه المرة لن تكون ذات جدوى كبيرة كما سترى ، إن مدّ الله فى أجلك » .

٧٣٣ ـ وبعد سماعى القداس فى كنيسة مجدلين بباريس ذهبت إلى كنيسة الملك ، فوجدته قد صعد إلى الهيكل الذى توجد به الآثار المقدسه ، وقد أمر بإنزال الصليب الحقيقى ، وبينما كان الملك نازلاً درج الهيكل راح فارسان من أعضاء مجلس مشورته يتجاذبان الحديث فيما بينهما ، فقال أحدهما للآخر « لا تصدقنى بعد الآن أبداً إن لم يُصلّب الملك نفسه » ، فأجابه الآخر « إن صلّب الملك نفسه فسيكون ذلك من أفجع الأيام التى مرت بفرنسا ، لأننا سوف نفقد عطف الملك إن لم نحمل الصليب ، أما إذا حملناه فسوف نفقد عطف الرب ، لأن حملنا إياه هذه المرة لن يكون فى سبيل الله ، بل خوفاً من الملك » .

٧٣٤ — وحدث فى اليوم التالى أن حمل الملك الصليب ، وحمله معه كذلك أبناؤه الثلاثة ، لكن لم تأت هذه الحملة الصليبية بالفائدة المرجوّة مصداقاً لنبوءة قسيسى .

ولقد بلغ بي التأثر غايته حين رأيت ملك فرنسا وملك نفاره يلبسان الصليب .

٧٣٥ — ولكن كان ردّي عليهما أنه حدث — في أثناء قيامي بخدمة الرب والملك في ما وراء البحار ومنذ عودتي — أن خرّب عسكر ملك فرنسا وملك نفارة[1] أرضي ، وأفقروا أتباعي ، حتى غُدْتُ وإياهم أفقر الناس ؛ وأخبرت الملكين بذلك الأمر ، ذاكراً لهما أن الواجب يقتضيني — إن أردت مرضاة الله — أن أبقى هنا لمساعدة جماعتي والدفاع عنهم . أما إذا أسهمت بنفسي في حملة الحجاج الصليبية مع ما أراه في هذا الإسهام من ضرر بأتباعي وهلاك لهم فإنني أكون بذلك قد عملت على إغضاب الرب الذي ضحى بنفسه لخلاص شعبه » .

٧٣٦ — ولقد اعتبرت جميع من أشاروا على الملك بالنهوض بهذه الحملة قد ارتكبوا ذنبا مهلكا وخطيئة كبرى ، لأن أمور مملكة فرنسا الداخلية كانت في هذه الآونة هادئة مستقرة ، كما أن السلم منعقد بينها وبين جيرانها ، لكن أحوالها أخذت تنتقل من سيء إلى أسوأ منذ رحيله عنها .

٧٣٧ — كان إثم الذين أشاروا على الملك بالسفر إثماً عظيما لمعرفتهم ما كان عليه من ضعف جثماني ، إذ لم يكن يحتمل أن يؤخذ في عربة أو يركبوه جواداً ، ولقد بلغ من الضعف حداً أمرني معه أن أحمله بين ذراعيّ من بيت

---

(١) ربما كانت عبارة جوانز ، ص ٥٢٤ أصدق تاريخيا مما ورد في الترجمة أعلاه فقد جاء فيها : « ألح على ملكا فرنسا ونفاره أن أحمل الصليب وأن أساهم في الحج معهما ؛ لكنني أجبتهما أنه في أثناء تغيبي فيما وراء البحار في خدمة الرب اشتد عمال ملك فرنسا في إرهاق شعبي إرهاقا بلغوا معه حد التوبة ، حتى إننا نجد مشقة كبرى في إصلاح أنفسنا » .

كونت دا كسير Auxerre حيث استأذنت منه وذهبت إلى دير الرهبان الفرنسيسكان .

ورغم ما كان عليه الملك من شدة الضعف إلا أنه كان من المحتمل أن يعيش أمداً أطول ، وأن يسدى خيراً كثيرا ، وينهض بأعمال جليلة لو أنه بقى فى فرنسا .

* * *

مرض لويس وتعاليمه لولده

٧٣٨ — لن أقول شيئاً عن سفر الملك إلى تونس لعدم وجودى بها ولله الشكر ، ولا أحبّ أن أضمّن كتابى أمراً لست على ثقة منه ، لذلك سنتكلم فقط عن ملكنا القديس ونخبر كيف أنه — بعد رسوّه بتونس — أمام قلعة قرطاجنة — أصابه إسهال فى المعدة ، كما مرض ابنه الأكبر فيليب بحمى رباعية وبنفس الإسهال المعوى الذى ألمّ بالملك ، فحملوه إلى فراشه ، وشعر بدنو أجله ، وأنه راحل عن هذا العالم سريعاً إلى العالم الآخر .

٧٣٩ — ومن ثم استدعى ابنه سيدى فيليب وأمره — كما لو كان يلقى إليه بوصيته — بمراعاة جميع التعاليم التى تركها له ، والتى أدوّنها هنا باللغة الفرنسية والتى يقال إنها كانت مكتوبة بيد الملك المقدسة وجاء فيها :

٧٤٠ — « ولدى العزيز ، إن أول شىء أحبّ أن ألقنك إياه هو أن تجعل قلبك عامراً بحب الله ، فلو لا هذا الحبّ ما كانت النجاة ، وجنّب نفسك إتيان أى عمل كارتكاب الذنوب مما يغضب الرب ، ولئن تكابد شتى ضروب العذاب أنفع لك من أن ترتكب إثماً كبيراً .

٧٤١ — « وإن دهاك الله بداهية فتقبلها صابراً وأشكر مخلصا واعتبر نفسك مستحقا لها ، وأنه سيحولها إلى نفعك ، وإن مسّك بخير فاشكره متواضعاً حتى لا يزدهيك الغرور ، لأنه لا ينبغى علينا أن نسىء إلى الرب على عطاياه لنا .

٧٤٢ — « وأكثر من الاعتراف ، واختر لهذا رجلا مستقيما فاضلا تعترف له ويدرك كيف يعلمك ما تفعله وما لا تفعله ، واسلك سبيلا يمكن من تعترف لديه ويمكن أصدقاءك من القدرة على لومك وزجرك إن تنكبت الطريق ، واستمع إلى صلوات الكنيسة المقدسة فى ورع وفى صمت ، وادع ربك بقلبك ولسانك معاً ، لا سيما إذا كنت فى ساعة قداس ، واملأ قلبك بالحنان والرحمة يرفرف بهما على الفقراء والبؤساء والمنكوبين ، واعمل على راحتهم ومساعدتهم بكل ما فيك من قدرة .

٧٤٣ — « وتمسك بتقاليد مملكتك الطيبة وانبذ السىء منها ، ولا تدع أطماعك تستشرف ما فى يد شعبك ، فلا تجْبِ منه من الضرائب أو المكوس إلا ما مسّت إليه الحاجة ودعت إليه الضرورة .

٧٤٤ — « وإذا شعرت بعبء ثقيل على فؤادك فافض به إلى من تعترف بين يديه ، أو لرجل مستقيم فاضل غير جعجاع بفارغ القول ، وإذ ذاك تصبح قادراً على تحمل هذا الثقل فى يسر .

٧٤٥ — « وتخير صحبك من الدينيين والعلمانيين ممن تتوسم فيهم الاستقامة والفضيلة والإخلاص ، ومن تجردت نفوسهم من الطمع ، وأكثر من محادثتهم ، وتجنب صحبة الأشرار ونحّهم عنك ، وأصغ فى رضاً إلى كلمة الرب وعيها فى

قلبك ، وثابر على صلواتك وتسامحك ، وأحب كل ما هو طيب ونافع ، وابغض كل ما انطوى على شر أينما كان .

٧٤٦ — « ولا تجرِّىء أحداً ما أن يفوه أمامك بكلمة قد تؤدى أو تجر إلى معصية ، ولا تشجعه على أن يغتاب بالشر أحدا من وراء ظهره التماساً للذة ، ولا تسمح بأن يقال فى حضرتك أية كلمة فيها امتهان للرب ولقديسيه ؛ وأكثر من شكر الله على نعمه التى أنعم بها عليك لتكون أهلا للمزيد منها .

٧٤٧ — « وكن مستقيما وصلباً لتقيم العدل والحق بين رياعاك ، فلا تنحرف يمينا أو شمالا ، وخذ بيد الفقير حتى يتضح الحق ، وإذا اتخذ أحد ما ضدك أمرا فلا تسىء به الظن حتى تتعرف الحقيقة ، وحينذاك يكون مشاوروك اجرأ فى الحق ، سواء أكان لك أم عليك .

٧٤٨ — « وإذا كنت تحوز شيئاً مما يتملكه آخر ، سواءاً كان هذا التملك بقرار منك أو من أسلافك وثبتَت ملكية الآخر له فأعده إليه دون توان أو إمهال ، أما إن كان الأمر موضع شك فكِلْ أمْرَ الاستفسار عنه إلى رجال حكماء فى مثابرة وعزم .

٧٤٩ — « وابذل عنايتك فى أن يعيش موظفوك ورعيتك فى ظل حكمك عيشة قوامها الهدوء والاستقامة ، وارع على وجه الخصوص القرى الآمنة ومجتمعات مملكتك لتكون كلها ناعمة بالحرية التى كان أهلها يتمتعون بها زمن أسلافك ، وإن وجدت أمراً يحتاج إلى تقويم فقوّمه، أو معوجاً فثقّفه بنفس ملؤها الحب ، وحافظ على قوة بدنك الكبرى وثرواتها ، إذ لا يجد إذ ذاك رعيك أو الأجانب ثغرة يهاجمونك منها ، لا سيما كبار رجالاتك وباروناتك .

٧٥٠ ـــ «وأحب جميع المنتمين الى الـكنيسة المقدسة ووقّرهم ، ولا تدع أحداً يغتصب أو يعمل على تقليل المنح والهبات التى خلعها عليهم أسلافك ، ويحـكى عن جدى الملك فيليب أن أحد مشاوريه ذكره ذات مرة بما أنزله به رجال الـكنيسة من الضرر البليغ بحرمانهم إياه من حقوقه وتطاولهم على سلطته القضائية ، وقال له إن تحمله ذلك إحدى العجائب الـكبرى ، فأجابه الملك الصالح إنه يعتقد صحة هذا القول،ولـكنه يرى أن الرب أغدق عليه عظيم عطفه ومنحه قسطا كبيراً من الرفاهية، وأنه لهذا يؤثر التنازل عن بعض حقوقه، من أن ينشب أى نزاع بينه وبين رجال الـكنيسة المقدسة .

٧٥١ ـــ «وعظم أباك وأمك واحترمها وأطع أوامرها ، واعهد بشئون الـكنيسة المالية إلى المعروفين بالاستقامة والذين يحيون حياة الطهر،وافعل ذلك بناء على نصيحة الأفاضل المستقيمين .

٧٥٢ ـــ « وحاذر أن تحارب أى أمير مسيحى إلا بعد تروٍّ ومشاورة عميقتين ، فإن لم يـكن ثم مناص منها فـكن على ثقة أنك غير منزل مضرة بالـكنيسة المقدسة ولا بمن لم يؤذوك ؛ وإذا نشبت الفتنة والمنازعات بين رعاياك[1] فاعمد إلى تهدئة ذات البين بينهم حالما تقدر على ذلك .

٧٥٣ ـــ « والتمس بين الصالحين رجالا اجعلهم مديرى ولاياتك ورؤساءها[2] وفتش عن سلوكهم، واستفسر عنهم وعن أهل بيتك، وتبين

(١) فى نسخة جونز «أنصالك» .

(٢) فى نسخة جونز ، ص ٥٢٧ «وسواهم من عمالك» .

عما إذا كانت فيهم رذيلة من جشع مفرط أو نفاق أو خداع ؛ وابذل جهدك لكي تحرر بلدك من كل جور مكروه ، وامحق مَحْقَةً قادر ما تلقاه فيه من يمين كاذب وهرطقة ، وراع أن تكون نفقات بيتك وسطا .

٧٥٤ — « وأخيرا ياولدى العزيز أرجوك أن تأمر بترتيل القداسات على روحى[1] وبإقامة الصلوات فى كافة أرجاء مملكتك ، واجعلنى شريكا لك فى كل يد بيضاء تقدمها وخير تفعله . وإننى لأ منحك ياولدى العزيز كل البركات التى يمكن أن يمنحها الأب الطيب لإبنه ، وأرجو[2] أن يحفظك الثالوث المبارك وكل القديسيين وأن يحموك من الشر ، وأسأل الله أن يهبك رحمته لتنفذ على الدوام مشيئته ؛ وليكن الرب موقراً فيك لكى أكون أنا وأنت معه بعد هذه الحياة الفانية ممجدين إلى الأبد . آمين » .

. . . .

موت لويس

٧٥٥ — بعد أن لقّن الملك الصالح ابنه فيليب هذه التعليمات ازدادت علته سوءاً ، فطلب القربان المقدس وتناوله بروح صافية وذهن حاضر كما تجلى فى حينه ، إذ أخذ يردد بدوره المزامير السبعة التى كانوا ينشدونها وهم يدهنونه بالزيت .

---

(١) فى نسخة جونز ، شرحه « ألتمس منك يابنى أن تبقينى أنا وروحى فى ذاكرتك بعد موتى ، وأن تساعدنى بالقداسات والصلوات والشفاعات والصدقات وأعمال الخير » .

(٢) فى نسخة جونز ، « وألتمس من ثالوث الجنة : الآب والابن والروح القدس أن يحفظك من كل الزور ، وألا تموت تحت الخطيئة » .

٧٥٦ — ولقد سمعت ابنه كونت ألنسون يروى أن الملك أخذ — ساعة موته — يهتف بجميع القديسين لمساعدته وخلاصه ، وكان أكثر هتافاً بالقديس جاك مردداً دعاءه الذى استهله بعبارة Esto Domine أى يارب كن مخلص شعبك وحاميه .

ثم طلب معونة سنت دنيس دى فرانس ويقول فى صلاته التى كان يرددها « أيها السيد الرب ، هبنا القوة التى نستطيع بها ازدراء متاع هذه الدنيا ونتمكن بها من عدم الاكتراث لأية مصيبة » .

٧٥٧ — وسمعت بعدئذ سيدى ألنسون ـ غفر الله له ـ يروى أن أباه طلب مساعدة القديسة جنفييف ، وبعدئذ أمر الملك القديس أن يسجوه على فراش من الرماد ، ووضع يديه على صدره على هيئة الصليب ، واتجه ببصره إلى السماء مسلماً روحه إلى بارئها[١] ، وكان ذلك فى نفس الساعة التى مات فيها السيد المسيح على خشبة الصليب من أجل خلاص العالم .

٧٥٨ — إن موت الأمير القديس لأمر محزن جدير بأن تسكب له الدموع ، فقد رعى مملكته رعاية قدسية خالصة ، وأكثر من إخراج الصدقات ، وأقام فيها كثيراً من المؤسسات الخيرية ؛ ولقد فعل الملك لويس فعل الكاتب الذى يزين كتابه بالذهب واللازورد ، فزين مملكته بما بناه من الأديرة الحسنة ، وبما شاده من بيوت الصدقة الجمة وبيوت الإخوان المبشرين والرهبان الفرنسيسكان وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً .

---

(١) فى نسخة جونز «إلى بارئه» وفى نسخة إيفرعان «إلى بارئنا» .

٧٥٩ — ترك الملك الصالح لويس هذه الدنيا غداة[1] عيد القديس الرسولى سنت برتاميو عام ١٢٧٠ من تجسد مخلصنا ، وقد وضعت عظامه فى نعش ، وحملت ودفنت حيث اختار موضع لحده فى كنيسة سنت دنيس فى فرنسا .

ومنذ ذلك الحين أظهر الرب فى هذا المكان كثيراً من المعجزات الباهرة ، تمجيداً له ولصفاته .

* * *

تقديس لويس

٧٦٠ — جاء بعدئذ رئيس أساقفة روان والأخ جون دى ساموا Samois الذى صار إذ ذاك أسقفاً — جاءا بناء على التماس من ملك فرنسا وصدوعاً لأمر البابا [مارتن الرابع] إلى دنيس دى فرانس ، وأقاما ردحاً طويلا من الزمن يتقصيان فيه خبر حياة الملك القديس وأعماله ومعجزاته ، ثم بعثا فى طلبى ، فمضيت إليهما واستبقيانى مدة يومين ، وبعد أن سألانى أنا وغيرى ، بعثا إلى بلاط رومة بما دوّناه وثبت عندهما ثبوت اليقين ؛ فنظر البابا والكرادلة نظرة الفاحص المتمعن فيما بعثاه إليهم ، فلما تبين لهم عن الملك ما تبيّن ردوا إليه حقه ، وأدرجوه فى عداد المعترفين بالإيمان الصحيح .

٧٦١ — وحدثت — وكان لا بد أن تحدث — فرحة كبرى شملت كافة

---

(١) هو يوم ٢٥ أغسطس .

أرجاء مملكة فرنسا ؛ وإنه لشرف عظيم لمن ينسج من ذريته على منوال فعاله الطيبة ، وياحطة من لا يقتفى خطاه فى أعماله الخيرة ، وأعظم حطة منهما تحيق بمن يجيئون من صلبه فيرتكبون الإثم ، إذ سيشير إليهم الناس قائلين : إن الملك القديس الذى جاء منه هذا النسل كان يأنف من ارتكاب مثل هذا العمل الطائش .

٧٦٢ — بعد أن جاءت هذه الأخبار السارة من رومة حدّد الملك يوما هو غداة عيد القديس بارتلميو[2] لرفع جثمانه المقدس ، فلما رفع الجسد الطاهر بادر إلى حمله رئيس أساقفة ريمز — عليه رحمة الرب — وابن أخى هنرى دى ڤييه Villers رئيس أساقفة ليون إذ ذاك ، ثم تناولته بعدهما أيد كثيرة من أساقفة ورؤساء أساقفة كانوا أكثر من أن أسميهم ، وحملوه إلى مقبرة كانت قد شيدت له .

٧٦٣ — حينذاك وقف الأخ جون دى ساموا واعظاً ، فأشار إلى الأعمال النابهة التى كنت شاهد بعضها ، وأقسمت على رؤيتى إياها .

٧٦٤ — ثم قال : « وهكذا ترون أن الملك كان أعظم رجل أمين، شهده زمنه ، ولقد بلغ فى وفائه مبلغاً عظيما، حتى لقد أبى أن ينقض عهده مع المسلمين ، ولم يكن ذلك العهد سوى مجرد قول نطق به لسانه ، ولو كان قد نكث فيه لربح عشرة آلاف دينار أو أكثر » .

ثم قص عليهم الأخ سيمون كل القصة التى ذكرتها من قبل .

---

(١) هو يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٢٩٨ .

فلما فرغ من خطبته قال لهم : « لا تظنوا أنى أكذب عليكم ، فإننى أرى أمامى رجلاً رأى هذه الأمور بنفسه وشاهدها وأقسم على صحتها » .

٧٦٥ — ولما فرغت الموعظة حمل الملك وإخوته الجسد المقدس إلى الكنيسة بمساعدة الآخرين من أقاربهم ، توقيراً لمن خلع عليهم كل هذا الشرف إذا برهنوا على أنهم جديرون به ، كما قلت من قبل .

فلندع الملك القديس أن يسأل الرب أن يمدنا بما نحن فى حاجة إليه لنجاة أرواحنا وأجسادنا . أمين .

• • •

جوانفيل يراه فى المنام ويبنى له مذبحاً

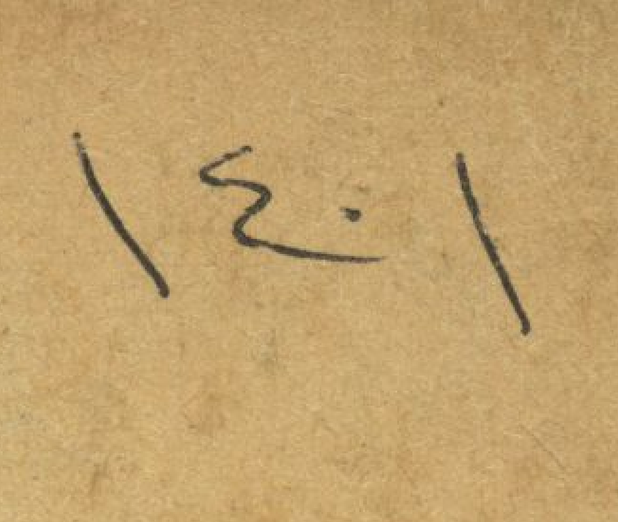
٧٦٦ — سأخبرك بأمور تكرم منزلة مليكنا المقدس ، أعنى بذلك ما رأيته فى نومى عنه ؛ فقد خيل إلىّ — فى الحلم — أننى أراه أمام كنيستى بجوانفيل وأحسب أننى أبصرته فى فرح عجيب وقلبه يفيض بالبشر ؛ وازدهانى كل الازدهاء أن أراه فى بيتى ، فقلت له : « مولاى ، حين ترحل عن هنا سأجعلك تقيم فى بيت من بيوتى وفى قرية من قراى اسمها « شيربيون » فأجابنى ضاحكا « ياسيد جوانفيل ، أقسم لك يميناً صادقا ألتزم به لك أنى غير راغب فى الرحيل عن هذا المكان سريعاً » .

٧٦٧ — فلما استيقظت من نومى استسلمت للتفكير ، وبدى لى أنه مما يرضيه ويرضى الرب لو أسكنته فى كنيستى ، ومن ثم شيدت له مذبحاً على

شرف الرب وشرفه ، تقام فيه الصلوات على الدوام له ، وأوقفت على هذا مبلغاً دائماً .

وقد رويت كل هذه الأمور لوريثه وسميه مولاى الملك لويس ، وأظن أنه فاعل كل ما يرضى الرب ويرضى مليكنا المقدس لويس .

* * *


١٤٠١


Bibliotheca Alexandrina
02772876